السيدة الأولى

الطبعــة الأولــى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

الطبعــة الثانيــة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

أنيس منصور

السيدة الأولى

دار الشروق

١- ولما خافت من الجنون أهداها كتابًا عن الأمراض العقلية

اخترع الأمريكان وظيفة «رئيس» الولايات المتحدة الأمريكية . وضاق رؤساؤهم بالوظيفة واللقب . ووجدوا أن البيت الأبيض مثل الزواج ، الذين فى داخله يريدون أن يطفشوا والذين فى خارجه يريدون أن يزحفوا إليه . فالسعيد من اقتحم الباب داخلاً وخارجًا . ولكن أحدًا من الواقفين أمامه لا يصدق الهاربين من الأيام السوداء فى البيت الأبيض ..

يقول الرئيس هوفر : لقد شرفنى خصومى مرة واحدة عندما اتهمونى بأننى وحدى المسئول عن خراب أمريكا اقتصاديًا وسياسيًا !.

يقول الرئيس ترومان : إننى أجلس هنا أحاول إقناع الشعب بأن يعمل ما هو واجب دون ضغط منى ـ هذه هى كل مهام رئيس الجمهورية !

يقول الرئيس كنيدى : عندما يسوء كل شىء تشير أصابع الناس إلى الرئيس ـ وهذه التهمة هى التى يتقاضى عنها مرتبه !.

يقول كيسنجر : إن تعرف رئيسًا واحدًا ، إذن أنت تعرف كل الرؤساء !.

يقول الرئيس ترومان : أحسست أننى عشت عمرى خمس مرات فى الأيام الأولى الخمسة فى البيت الأبيض !.

يقول الرئيس لنكولن : قالوا إننى ذاهب إلى جهنم لا محالة ، ولم أكن أعرف أن جهنم هى البيت الأبيض !.

يقول الرئيس بوكانان : إذا كنت سعيدًا لدخولك البيت الأبيض الذى أخرج أنا منه عائدًا إلى بيتى ، أنت إذن أسعد إنسان فى العالم !.

يقول ايزنهاور : ما أروع هذا اللقب : الرئيس السابق !.

يقول الرئيس شارل ديجول : كيف تحكم شعبًا يصنع ١٤٦ نوعًا من الجبنة ؟!.

ثم يقول الرئيس جون كنيدى : ما أحقر وأقذر هذه الوظيفة : رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

وقالوا عن نائب رئيس الجمهورية : إنه يشبه آخر قطعة جاتوه فى الطبق ، كل واحد لا يريد أن يمد يده لها ، ولكن يجىء دائمًا واحد يفعل ذلك !.

وقالوا : إنه فردة كاوتش احتياطى فى أتوبيس الحكومة !.

وقالوا : إنها الوظيفة الكبرى الوحيدة التى لامعنى ولا قيمة ولا خطورة لها !.

وأحسن ما قيل : كان هناك إخوان : واحد هرب بحرًا إلى

أوروبا ، والثانى أصبح نائبًا لرئيس الجمهورية ، ومنذ ذلك الحين لم نعد نسمع بهما !.

* * *

فى مايو سنة ١٧٨٩ وصل الرئيس واشنطون وزوجته مارتا على ظهر أحد الزوارق إلى رصيف نيويورك ، العاصمة المؤقتة . انطلق ١٣ مدفعًا تحية للرئيس الجديد .

وكانت تمشى وراءه سيدة ممتلئة هى زوجته من ثلاثين عاما ـ مارتا . وقد اعتاد الناس أن يروها معه منذ أيام الثورة الأمريكية . وكانوا يهتفون بحياة الليدى واشنطون .

وعلى جانبى الطريق إلى بيته الذى استأجره وقفت الجماهير ترى الملك الأمريكى الجديد ـ وسط بين الملك وبين أى موظف كبير من صميم الشعب .

وكان الرئيس واشنطون يعلم خطورة وصعوبة الوظيفة ، فهو يعمل كل شىء لأول مرة . والناس يرون كل شىء جديدًا عليهم .

والذين وضعوا الدستور الأمريكى كانوا حريصين على عدم إعطاء رئيس الجمهورية سلطات كبيرة ، وفى نفس الوقت عدم تجريده من السلطات .

وبسرعة استدعى الرئيس واشنطون عددًا من الشخصيات يستشيرهم فى أمره . وكيف ينادونه . مثلاً : صاحب السمو رئيس الجمهورية ..

وقيل : صاحب العظمة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية حامى الحريات ..

ولكن مجلس النواب رفض كل هذه الألقاب وأصر على : السيد الرئيس .

وحاولت الصحف أن تناديه : فخامة الرئيس ..

ولكن الرئيس أدامز وجد فى لقب : السيد الرئيس ، اهانة له وتحقيرًا لشأنه كأنه موظف صغير !.

وكذلك تناقش الرئيس واشنطون فى ألقاب زوجة الرئيس فقالوا : المركيزة .. الليدى .. وأخيراً اتفقوا : مسز واشنطون ـ وهذا يكفى

أول مشكلة واجهت أول رئيس لأمريكا : ماذا يفعل بالجماهير التى تريد أن تراه . وتصافحه وتلمسه . هل يفتح الباب على الآخر لكل الناس كل الوقت ؟ إن وقته لن يتسع لاستقبال ألوف الضيوف . فمتى يعمل ؟.

واستدعى الرئيس واشنطون عددًا من الشيوخ والنواب يسألهم النصيحة . قالوا له : لابد من تحديد الزوار . وتحديد رد الزيارات . فوقته لن يتسع . وفى نفس الوقت سوف يكون له أصدقاء . أو شلة خاصة تؤثر على نظرته للأمور وقراره بعد ذلك . وتقلل من هيبته ..

لقد اكتفى الرئيس جون أدامز بحفلتين فى الأسبوع . وكانت الصحف تنشر مواعيد الزيارة المفتوحة لكل الناس : يومى الثلاثاء والجمعة .. أما الأحد فاجازة .

وكان هناك نوعان من اللقاءات : أحدهما يتقلد فيه الرئيس السيف ويضع القبعة . أما الثانى فبغير ذلك ..

وفى أول حفلة أقامتها مسز واشنطون كانت جالسة . والسيدات حولها والرجال . كأنها ملكة . أما الرئيس واشنطون فهو الذى يقدم الطعام والمشروبات وينتقل بين الضيوف . وبعد نهاية العشاء لم يعرف الناس ماذا يعملون . هل يخرجون قبل أن تخرج هى .. هل ينتظرونها حتى تخرج هى كما تفعل الملكات . ومن الذى سوف يعلن نهاية الحفلة ..

ولكنهم فوجئوا بمسز واشنطون تقول : السيد الرئيس ينام فى التاسعة ، وأنا قبل ذلك بدقائق !

وخرجت . فخرجوا . وراءها !.

وكان بيت الرئيس مثل «دوار» العمدة مفتوحًا دائمًا ، ويرى كل واحد أن يخطف رجله ويصافح الرئيس . والسؤال عن صحته ..

وكان على السيدة الأولى أن ترد الزيارة ـ زيارة أعضاء الشيوخ والنواب . وأن يكون ذلك فى أسرع وقت حتى لا يغضب أحد . ففى يوم واحد ذهبت السيدة الأولى إلى سبعين أسرة !.

وعادت إلى بيتها عند منتصف الليل فوجدت الرئيس نائمًا . أيقظته فسألها : هل غرقت فى المحيط ؟ قالت : ليس بعد !.

وتقلب فى فراشه وأحس أنها إلى جواره ليقول لها : من الذى أنقذك ؟ قالت :

ليس بعد !

ونام الرئيس وعاد يكمل الحوار : ليس بعد ؟ الغرق ؟ أو النجاة ؟.

قالت : الغرق !. قال : بل النجاة ؟!.

ونام الاثنان . وفى الصباح الباكر سألها : من الذى غرق ؟ سمعتك تتحدثين عن شىء كهذا ..

وقالت السيدة واشنطون : كانت هذه أول إشارة إلى طبيعة وظيفة رئيس الجمهورية !.

ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، باعتباره رئيس الدولة ورئيس الوزراء ، كان يطلب إلى زوجته أن تساعده علنًا فى الوظيفة الأولى ، وسرًا فى الثانية .. حتى ظهرت السيدة الأولى بعد مائتى سنة فى مجلس الوزراء وحتى ظهرت معه فى كل مناسبة . وفى سنة ١٩٨٢ ظهرت صورة كاريكاتورية لنانسى ريجان وقد وضعت على رأسها التاج !.

وكان من واجبات السيدة الأولى أن تتوازن مع النشاط الاجتماعى للرئيس . فإن كان منطلقًا ، تحفظت هى .. وإن كان شعبيًا ، تمسكت بالمظهر الملكى فى عيون الناس .

وفى سنة ١٩٣٠ أوقف الرئيس هوفر حفلات رأس السنة التى اعتاد الرؤساء أن يقيموها فى البيت الأبيض . لقد وجدها مرهقة له ولزوجته ..

وعندما تلقت مسز واشنطون هدية عربة ، وافق الرئيس على أساس أن هذه الهدية ليست له .

* * *

والسيدة أبجيل زوجة الرئيس أدامز كانت شخصية مختلفة . ذكية . طويلة اللسان حاضرة البديهة موجعة . وكل شيء يقع لها تكتبه فى مذكراتها المملوءة بالأخطاء النحوية والإملائية ـ فهى لم تتعلم إلا القليل جدًا ! .

وصفتها إحدى مؤرخات البيت الأبيض تقول : كان لابد أن أذهب وأتحدث إلى جلالتها بعد أن أرتدى بدلة من الحديد ، خوفًا من لسانها السام ! .

أما سبب معرفتها لأشياء كثيرة فى الدولة ، فلأن زوجها يتحدث إليها ويستشيرها فى كل شيء .. ويطلب مساعدتها فى كتابة خطبه الرسمية . لقد كان يعاملها على أنها «وزيرة دولة» ـ وزيرة بلا وزارة . وكان الناس يعرفون ذلك ويتجهون إليها لحل مشاكلهم عند الرئيس . وأصبحت مادة للأغانى والمونولوجات والنكت . وكانوا يصفونها بأنها السيدة رئيسة السيد الرئيس ! .

ولم تحضر حفلة حلف اليمين لزوجها ، فقد كانت تجلس إلى جوار أمه المريضة ..

وكان من عادة أبجيل أن تنتقل بين الناس وبين البيوت وفى

الحفلات تجمع للرئيس أخبار العاصمة وماذا يقال عنها وعنه .. فكانت جهازًا كاملاً للمعلومات وكانت دقيقة فى معلوماتها .. فإذا سمعت قصة لم تصدقها ، بعثت بمن يتحقق منها . أما متعتها الحقيقية فهى كتابة الخطابات والرد عليها .. لقد بعثت بعشرات الألوف من الخطابات فى كل شىء ولكل واحد ..

أما البيت الأبيض أيام الرئيس جيفرسون الذى حكم فترتين (١٨٠٠ ـ ١٨٠٩) فقد كان فوضى .. لا نظام ولا أناقة . ولا يعرف هو ما الذى يمكن أن يعمله . فقد كان أرمل . وهو يسبق الناس إلى الاعتذار عن كل شىء : ماذا أفعل لا توجد سيدة فى البيت .. وفى الحفلات التى أقامها فى بيته ، كان يجلس هو فى أى مكان من القاعة . والناس يجلسون حيث يشاءون . وبذلك حطم القواعد السابقة فى الجلوس بالقرب من الرئيس حسب المركز والأهمية ..

وكان يترك بعض الحفلات إلى السيدة مولى ماديسون ، زوجة الرئيس المقبل . وعندما أصبح ماديسون وزيرًا للخارجية ، أصبح وجودها فى البيت الأبيض ضروريًا . وقد اعتاد الناس على ذلك . وكانت تقوم بهذا العمل بكفاءة ـ وعمرها ٣٢ عاما .

وكانت سيدة أنيقة رشيقة . تشترى فساتينها من باريس . أما نساء العاصمة الأمريكية فكن يتطلعن ، وقلوبهن موجوعة حقدًا عليها ..

والسيدة « دولى » أدامز ، كانت قد تزوجت قبل ذلك ـ مثل زوجة واشنطون وزوجة جيفرسون . أبوها بقال . تزوجها أحد المحامين

من أقاربها . وبعد سنوات من الزواج رزقا بطفل مات . فانفصلا .
وكان عليها وحدها أن تحفر طريقها إلى فوق . وكان لأمها فندق
صغير . وكان ماديسون من المقيمين فى هذا الفندق والمعجبين بابنتها
دولى . هو فى الأربعين من عمره وأشهر رجال السياسة فى ذلك
الوقت . وكان أقصر منها بشبر . ووصفته هى بأنه العظيم الضئيل !
واستمر الزواج أربعين عامًا تجرى فيها يمينًا وشمالاً متفانية فى خدمة
زوجها .

ويوم أصبح ماديسون رئيسًا لأمريكا أقامت «دولى» أولى
حفلاتها . فحشرت ثلاثمائة مدعو فى غرفة واحدة . كاد الناس يموتون
من شدة الحرارة . فحطموا إحدى النوافذ ليدخل الهواء . ووقفوا على
المقاعد ليروا السيدة الأولى ، ماذا ترتدى وماذا تقول ومن الذى
تصافحه ومن الذى تقبله ويقبلها .

وكانت حريصة على إرضاء كل الناس . وسمعها الناس تقول
بصوت مرتفع : ولم لا ؟! .

وكان ذلك ردًا على من طلب إليها قبلة من شفتيها .

كانت شعبيتها تستحق حسد عشرات من سيدات البيت
الأبيض ، قبل وبعد ذلك ! .

ورئاسة ماديسون كانت صعبة .. فلا يزال الإنجليز والفرنسيون
يعترضون السفن الأمريكية ولا تزال المشاكل مشتعلة مع الهنود

الحمر ، وكذلك مشاكل الحدود . وفى سنة ١٨١٢ أعلن ماديسون الحرب على بريطانيا ـ ولكن ظلت السيدة الأولى تحمل «علبة النشوق» تقدمها لكل الناس . والنشوق مثل العيش والملح دليلاً على الإخلاص . تمامًا كما تقول : أكلنا عيشًا وملحًا .. فهم يقولون : تنشقنا من علبة واحدة وعطسنا وقلنا معًا : يرحمكم الله !.

وهى أول من زار العائلات التى انتقلت حديثًا إلى العاصمة واشنطون . وكان ذلك دليلاً على تواضعها . ثم استضافتهم فى البيت الأبيض ..

وجاءت من بعدها السيدة اليزابيث مونرو . وقررت ألا تستغرقها الحفلات والزيارات . وأنها لن تغير من عاداتها فى الأكل والنوم والراحة ، لأى سبب . واليزابيث بنت رجل غنى ، وقد رأت الأغنياء من كل لون فى أمريكا وأوروبا . رأتهم جميعًا يعيشون حياة هادئة بلا زحام ولا ضوضاء . وقررت أن يكون البيت الأبيض ، بيتًا وليس سوقًا للخضار ..

وإذا كانت السيدة دولى شعبية ، فاليزابيث سيدة أرستقراطية . وسوف تبقى كذلك . وهى أيضًا أنيقة . وعندما ذهبت إلى باريس وصفوها : بالأمريكية الحسناء ..

وظلت جميلة فى الرابعة والخمسين عندما أصبح زوجها رئيسًا لأمريكا . وقد رسمها أحد الفنانين وفى الصورة يظهر عنقها وجانب

من الصدر . أما النظرة فجريئة وأما الشعر فقد تدلى ثلاث خصلات على جبينها . وكان الناس فى زمانها يرون ذلك نوعًا من التهتك تمامًا كما رأوا فى الأميرة ديانا عندما جعلت فتحة الرقبة عميقة ، وكذلك فتحة الظهر ..

أما فساتينها فقد انتقلت بعد ذلك إلى المتاحف ــ ولم تستطع أية أمريكية مهما كانت غنية أن تلحق بها فى مجالات الأناقة الباريسية .. وكانت ترتدى ملابس لا تناسب سنها ، ولم يكن أحد يدرى بالضبط إن كان شبابها بسبب الفساتين أو بسبب الأصباغ .. أو هى الرياسة !.

وعند زفاف إحدى بناتها توقع أهل العاصمة أنها سوف تطلب إلى سيدات المجتمع أن يحضرن ويتفرجن ويقدمن الهدايا . ولكنها جعلت الحفل عائليًا جدًا . ووقف وزير خارجية أمريكا على باب البيت الأبيض يرد الناس الذين جاءوا بلا دعوة . جاءوا بحسن نية . فعادت السيدات اللاتى ارتدين أحلى الفساتين وأغلى المجوهرات .. حتى اللاتى حملن معهن الهدايا تركنها على الباب . ثم عدن يسترجعنها . وكان موقف وزير الخارجية صعبًا . فالدبلوماسية التى حاول الاستعانة بها ارتدت إليه لعنات عليه وعلى ساكن البيت الأبيض وعلى اليوم الذى قررت فيه أمريكا أن تختار عربجيًا من الشعب ، لا ملكًا ابن ملك !

والسيدة اليزابيث مونرو كانت تقضى معظم الوقت بعيدة عن البيت الأبيض ـ مع بنتيها .

وكانت التقاليد تقضى بألا تدخل البيت الأبيض سيدة أو فتاة فى غياب السيدة الأولى !.

وانتشرت الشائعات عن خلافات حادة بين الرئيس والسيدة الأولى ، بسبب سفرها الكثير.. ولذلك كانت حفلات البيت الأبيض صمتًا طويلاً وانصرافًا مبكرًا ـ فلم يكن الرئيس مونرو يحسن الكلام والحوار أو يتذوق النكتة .

وكانت السيدة الأولى قد اتفقت مع وزير الخارجية على أن يشترى أثاث البيت الأبيض من باريس . ومات وزير الخارجية . ولم يجدوا عنده الأموال . وقرر الكونجرس التحقيق مع الرئيس مونرو . وأسفر التحقيق عن براءته ، فهو لم يتابع ما يجرى فى بيته ولكنه فضح نفسه .. إنه مثل فتاة شريفة وقفت عارية أمام الناس !.

أما السيدة «لويزة» زوجة الرئيس آدامز ، فكانت تضيق بالزيارات والحفلات ـ تقيمها أو تذهب إليها . وكانت تقول : لو سكت النساء بعض الوقت .. لاسترحت واسترحن جميعًا . ولكن نصف وجه المرأة لسانها ، ونصف حياتها كلامها ، وهو نصف متاعبها ، وكل متاعب زوجها !.

وفى إحدى الحفلات الرائعة فى البيت الأبيض، سقط المصباح من

السقف على كتفها ، فغرق عنقها وصدرها وفستانها فى الزيت .
وقالوا : إنها الآن ممسوحة بزيت البركة !.

وكانت تقول فى نهاية كل حفلة إننى أحرص على أن أودع الناس إلى ما بعد البيت الأبيض ، لكى أراه بوضوح وأبصق عليه !.

وكانت مارتا واشنطون تقول : أنا سجينة بيت الرئيس !.

ولويزة أدامز قد ولدت فى بريطانيا وإن كان أبوها أمريكيا . فهى غريبة النطق والعادات وعندما بلغت الشواطئ الأمريكية فى الرابعة والعشرين قالت : أعوذ بالله .. كانت أمريكا مثل سفينة نوح : فوضى وقذارة وضوضاء .

واكتشفت أن زوجها رجل عملى . ليس عنده أى إحساس مرهف . ولا تذوق للجمال . ولا رغبة فى الهدوء . وكانت تضيق بضوضاء المجتمع ، ويصمت زوجها . ولما قالت لزوجها : إنها سوف تصاب بالجنون أهداها فى اليوم التالى كتابًا عنوانه : مبادئ الأمراض العقلية !.

ولم تكن تقرأ كثيرًا . ولكن الذى تقرؤه تفهمه جيدًا . وتتحدث عنه كثيرًا ويذهب عميقًا فى نفسها وحياتها . فقد قرأت كتابًا عن ديانا عشيقة ملك فرنسا هنرى الثانى . تقول لويزة أدامز : رأيت فى هذا الكتاب صورة لحياتى . رأيت كيف أن القصر الملكى يفرض على الناس عادات وتقاليد من حديد . لا خروج عنها إلا بخروج الروح .

وعرفت مدى قسوة وفداحة أن يضغط الآخرون على حياتك ويشكلونها على هواهم . فرفضت أن أكون واحدة من هؤلاء الضحايا !.

وتقول : كلما حاولت أن أضيف شيئًا معقولاً اعترضونى قائلين : ولكن الدستور لا يسمح !.

* * *

وكانت زوجات الرؤساء فى السنوات الأولى للجمهورية شخصيات قوية وكن يشاركن فى إدارة شئون الدولة من وراء الأبواب ..

فالسيدة مارتا واشنطون عاكسها أحد الضيوف فى حفلة عامة ، فخرجت من الحفل وامتطت جوادها وعادت إلى بيتها ليلاً . وقبل أن تعود إلى البيت وقفت وراء إحدى الأشجار متوقعة أن يجيء وراءها أحد يعتذر لها ـ وفى هذه اللحظة قررت أن تنقض عليه بالكرباج !.

وكانت أبجيل أدامز تقول : أتمنى من الله ولا يكثر على الله : دورة مياه خاصة بى وحدى أدخلها وأخرج منها فى أى وقت أشاء .. لا تهمنى غرفة النوم فى الدرجة الأولى ، ولكن يهمنى جدًا أن أكون وحدى وعلى راحتى فى دورة المياه !.

ويوم هددت القوات البريطانية بدخول العاصمة ، وتلقت تحذيرات بضرورة الانتقال من البيت الأبيض إلى أى مكان آخر ،

كانت تقول : ليس قبل أن أكمل برواز صورة الرئيس واشنطون !.

أما السيدة اليزابيث مونرو فقد عين زوجها سفيرًا فى باريس سنة ١٧٩٤ . وعلم أن المركيز لافييت قد أودعوه السجن بعد أن هرب وأمسكوه عند فيينا . وكان لافييت صديقًا للثورة الأمريكية . وحبسوا زوجته مارى أدرين لافييت . وقررت اليزابيث مونرو الاتصال بالسيدة لافييت ومساعدتها بأى شكل . فاشترت عربة جديدة ذات ألوان صارخة ، وانطلقت فى شوارع باريس تسأل عن السجن .. والناس يلتفون حولها . وتعود تسأل والناس يتجمعون وراءها . وكانت الشوارع التى تمشى فيها من أولها تعود لتمشى فى آخرها .. وهكذا التف الناس حولها وعرفوا أنها زوجة السفير الأمريكى أرادت أن تساعد السيدة لافييت ..

وانفتح باب السجن وتعانقت السيدتان واهتزت مشاعر الجماهير وراحوا يهتفون للسيدة لافييت .. ويتظاهرون حتى اضطرت إدارة السجن للإفراج عنها !.

وكذلك كانت السيدة لويزا أدامز فعندما كان زوجها فى روسيا سنة ١٨١٤ استدعوه لمشاورته فى عقد معاهدة صلح بين روسيا وفرنسا . وبعث إلى زوجته بخطاب يطلب فيه أن تبيع كل أدوات البيت وأن تعود إلى باريس . وكان الشتاء جليديًا . ولابد أن تمر على مناطق مخربة محترقة ، بل لابد أن تمر بين صفوف القوات المتحاربة .

وكانت تخاف من الخدم المرافقين لها أن يسرقوا مجوهراتها . أو يقتلوها . فإذا تعطلت عربتها بسبب الجليد ، طلبت إلى الروس أن يساعدوها بوضع أغصان الأشجار تحت العجلات ويدفعوا الخيول إلى الأمام .

وكانت تقضى الليالى الطويلة دون نوم خوفًا من المرافقين لها ، ومن الروس .

وعندما دخلت الحدود الفرنسية | راح الناس يهتفون : يعيش نابليون .. تسقط روسيا !.

وكانت تخرج جواز السفر وتقدمه لهم فيهتفون : تعيش أمريكا !.

فترد هى : يعيش نابليون !.

وكان زوجها فى انتظارها . وعندما رآها ، لا مد يده ولا عانقها ولا سألها ماذا فعلت وماذا كان يمكن أن يحدث لها وإنما قال :

ياه .. أربعون يومًا كانت رحلتك .. أربعون ؟

ــ لا .. تسع وثلاثون وست ساعات !.

ثم عين زوجها سفيرًا لبلادها فى لندن . وكانت أتعس وأسوأ مهمة فى حياته . فالإنجليز لا يكادون يرونه حتى يتذكروا أن أمريكا استولت على ١٣ مستعمرة بريطانية !.

وفى نهاية إقامتها فى بريطانيا كانت تقول : بل مزرعة للدواجن

أحسن من القصر الملكى !

وكانت السيدة أبجيل أدامز ، لم تدخل مدرسة ولا عرفت النحو والصرف والإملاء وعلامات الترقيم ..

والسيدة دولى مايسون أمضت بضع سنوات فى المدرسة . والكتب التى قرأتها قليلة جدًا . وفى بعض الحفلات كانوا يجدون معها كتابًا . ويسألونها : ولماذا ؟.

تقول : كلما وجدت حوارًا سخيفًا حولى ، فتحت الكتاب ونظرت فيه ليتوقف الناس عن الكلام ، وأنا عن الغلط !

* * *

أحسن ما قيل هو الذى جاء على لسان السيدة مارتا واشنطون : طبيعى جدًا أن ينصف التاريخ زوجى . لقد اختاره التاريخ ليكون على رأس الأمريكان .. وإذا رأى الأمريكان أن رئيسهم نظيف الملابس فسوف يقولون : طبيعى أن يكون العظيم نظيفًا .. ولكنهم لن يذكروا إلا نادرًا من هى التى غسلت له ملابسه وقدميه !.

٢ - هي من النوع الثالث، تحدثك عن نفسك !

السيدة اليانورة روزفلت هي أقوى وأذكى وأخطر السيدات الأربعين اللاتي دخلن البيت الأبيض : ابتداء من مارتا واشنطن إلى نانسي ريجان . كل قياسات الرأي العام الشعبي والجامعي أجمعت على ذلك . ومن عباراتها الحكيمة : أن هناك ثلاثة أنواع من النساء : واحدة تحدثك عن كل الرجال والنساء : ثرثارة .. واحدة تحدثك عن نفسها : مملة .. وواحدة تحدثك عن نفسك : ذكية !.

وكانت اليانورة روزفلت أكثر الناس حديثًا عن الناس للناس . ومن خلال كلامها عن الناس تعرفها ، وتعرف بيتها وزوجها .. ولم يعرف التاريخ الأمريكي امرأة مثلها تفرغت تمامًا لأن تكون جيشًا يدافع عن زوجها ليلاً ونهارًا .. لم يعرف امرأة أنكرت ذاتها لتضخيم ذات زوجها ، ولم نعرف امرأة استطاعت باقتدار أن تؤكد لكل رجل أنه رجل زوجها المفضل ، وأن تقنع كل سيدة أنها المثل الأعلى الذي يتخيله زوجها . فأحبه كل الناس . وأسعدها ذلك !.

ولم يعرف الأمريكان ما الذي يفعلونه لأول رئيس لبلادهم : جورج واشنطون . يرونه كبيرًا عظيمًا . كأنه ملك . وإن لم يكن كذلك . وتحيروا في أسلوب الحديث إليه : سيادتك .. سعادتك ..

سموك .. جلالتك .. ولكنهم اكتفوا بلقب : سيادة الرئيس .

فقد كانت الصورة واضحة عن ملوك أوروبا التى جاء منها الشعب الأمريكى . وكانوا فى غاية الحنين لأبهة الملك . ولكن الديمقراطية والحرية والتسامح عند الشعب الأمريكى هو الذى جعلهم يرون فى «الرئيس» وشخصية الرئيس تعويضًا عظيمًا لكل الذين حرموا من حرية الرأى وحرية القرار .

ولم يعرفوا كيف يتعاملون مع زوجة الرئيس . وإذا خاطبوها فماذا يقولون . هل هى : السيدة حرم السيد الرئيس .. هل هى الرئيسة ..

ثم أى دور لها ؟ إن الدستور لم يحدد لها دورًا . إذن هى زوجة الرئيس . ومكانها البيت الأبيض وبعض الحفلات العامة إذا أرادت .

وظل هذا وضع زوجة الرئيس حتى القرن العشرين . وقبل ذلك لم يكن شكل الرئيس نفسه معروفًا للشعب : فلا صحف ولا تليفزيون . ولا كذلك صورة الزوجة . ربما كان الرئيس جونسون فى الستينيات هو أول من نشر صورة زوجته وأولاده وكلبه على الشعب الأمريكى . وكان الناس عندما يزورون البيت الأبيض حريصين على رؤية هذه الصورة على الحائط أو بعض أفراد الأسرة فى طرقات البيت الأبيض ..

ولم يظهر دور حقيقى تاريخى لزوجات رؤساء أمريكا إلا ابتداء من السبعينيات فى هذا القرن . وقبل ذلك كانت الزوجة هامشًا على حياة الرئيس ..

وكان رؤساء أمريكا قبل القرن العشرين يتفاخرون بأنهم فقراء . وأنهم من أبناء الفلاحين والعمال . فلا معنى إذن لأن يتباهوا بزوجاتهم أو يقدمونهن للناس .. لقد كان الحديث عن الأسرة والأولاد ، شيئًا لا يهم الناس ، ماداموا جميعًا متشابهين فى النشأة المتواضعة .

ولكن من الملاحظ أيضًا أن معظم زوجات رؤساء أمريكا كن من عائلات أفضل وأغنى .. وكثير من زوجات الرؤساء قد تزوجن رغم اعتراض الأسرة . وبين زوجات الرؤساء : العاقلة والمجنونة والمريضة والمدمرة ..

ولكن ولا واحدة من زوجات الرؤساء قد كتبت شيئًا عن الحياة فى البيت الأبيض . وإنما يتناقل الناس أصداء الحياة فى بيت الرئيس . ولم تظهر المذكرات إلا ابتداء من سنة ١٩٦٣ .. وبعدها عرفنا النساء اللاتى حكمن أمريكا من وراء أبواب ونوافذ البيت الأبيض ..

ويوم ذهبت جاكلين كيندى إلى باريس وهى فرنسية الأصل ، لكى تنقل الوجاهة والشياكة إلى أمريكا ، كانت قد سبقتها اليزابيث زوجة الرئيس مونرو بمائة وسبعين عاما .. ويوم ذهبت اليزابيث مونرو وصفتها الصحف الفرنسية بأنها : حسناء أمريكا .. وصحف أخرى وصفتها : رئيسة أمريكا ..

ونشرت مجلة كاريكاتورية صورة تقول الرجل الذى يحكم الرجل الذى يحكم أمريكا ! ولم تكن هذه النكتة صحيحة !.

وكانت هناك زوجات فى غاية الشجاعة . مثلاً السيدة لويزا زوجة الرئيس أدامز فقد أصرت على أن تسافر من مدينة بطرسبورج (ليننجراد) إلى باريس رغم الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون تجتاح روسيا وتشعل النار والدمار فى كل مكان ..

والسيدة « لو » زوجة الرئيس هوفر عاشت طويلاً فى الصين . ورأت المعارك والدماء والبارود أمام بيتها فى بكين ، وقررت ألا تترك البيت أو تبرح البلاد .. والسيدة « لو هوفر » هى أول زوجة لرئيس أمريكى تدافع عن حقوق المرأة فى أن تكون كالرجل فى حكم أمريكا .

أما لقب «السيدة الأولى» فقد اخترعته صحفية أمريكية اسمها مارى ايمز فى أواخر القرن التاسع عشر.. فقد كتبت مقالاً عن «لوسى» حرم الرئيس هيز .. وجدتها تمشى وراء الرئيس ثم إلى جواره .. وتشجعت فتقدمت الرئيس ، وسارت وراءها النساء ووراءهن الرئيس .. وضحك الرئيس هيز وقال : احترسوا .. إذا نحن تركنا المرأة تتقدمنا خطوة ، سبقتنا خطوات واحتلت الطريق واستدارت تحرمه علينا ! .

وفى عهد الرئيس بوكانان كانت ابنة أخيه هى التى تقوم بدور السيدة الأولى فى البيت الأبيض : تستقبل الضيوف وتختار مقاعدهم وتشرف على طعامهم وخلع ملابسهم .. وترتيب جلوسهم .

وكانت الصحف تصف ابنة أخ الرئيس بوكانان بأنها : ملكة

الحزب الديموقراطى ..

وبعدها كانت الصحف تصف جاكلين كيندى بأنها : أميرة موناكو !.

ولا تزال أبهة الملك والملكات مما يبهر الشعب الأمريكى . ولا يزال الأمريكان يحبون النظر إلى الملوك ويبالغون فى احترامهم .. ولا مانع عندهم من أن يكون للرئيس وللسيدة الأولى كل مظاهر الملك إلا أن يكونا ملوكًا !.

والدستور الأمريكى لم يجعل للسيدة الأولى وظيفة : ولكن زوجها هو الذى جعل لها هذه الوظيفة . وهيأها لهذا الدور استعدادها الشخصى .. ففى مؤتمر القمة سنة ١٩٨٥ تحدث الرئيس ريجان عن زوجته نانسى وقال : إنها كانت سفيرة لبلادنا فوق العادة . وإنها بذلت جهودًا عظيمة لتقوم بدور الوسيط ، مما تستحق تقديرنا وامتناننا لها . (تصفيق حاد) .

وليس فى الدستور الأمريكى تحديد لدور نائب رئيس الجمهورية وزوجته . مما جعل نائب الرئيس وزوجته موضوعًا مغريًا لصانعى النكت والرسوم الساخرة . فوظيفة نائب رئيس الجمهورية من الممكن أن يتولاها أى إنسان . ونائب رئيس الجمهورية يشبه المصاب بمرض «التخشب العصبى» : لا يستطيع أن يتكلم أو يتألم أو يتحرك ، وفى نفس الوقت يدرى بكل شىء حوله !.

واستطاعت نساء فى البيت الأبيض أن يقمن بدور نائب رئيس

الجمهورية ، ورئيس الجمهورية بمنتهى الكفاءة : مثلاً السيدة إديث زوجة الرئيس ويلسون . فعندما أصيب زوجها بأزمته القلبية الأولى سنة ١٩١٩ كانت هى التى تتولى إدارة شئون البيت الأبيض وتنظيم العلاقة بين البيت الأبيض والوزارات الأخرى . مثل شجرة الدر .. وكانت « بث » زوجة ترومان من أقوى نساء البيت الأبيض

أما «بتى» زوجة الرئيس فورد فكانت تقول : لا حل إلا المخدة !.

فقد كانت وهى إلى جوار زوجها فى السرير تحدثه عن كل ما تريد من القضايا . وتقنعه ويتخذ قراره .

وقد وصفت سياسة «بتى» فورد بأنها سياسة البلوزة الشفافة .. أنها سياسة الأظافر الطويلة تخربش فى صدر الرئيس !.

وكان نابليون يلاحظ أن زوجته تعرض عليه أمورًا هامة عندما يكون جالسًا .. وأنه عندما يكون مسترخيًا فمن السهل أن يوافق على ما تعرضه . ولذلك كان فى كل مرة تتحدث إليه فى أمور هامة ينهض واقفًا ويقول : لا ..

أرادت هى أن تغرى الزوج ، فوقف ليؤكد أنه الامبراطور أولاً !.

وكانت السيدة روزالين زوجة الرئيس كارتر تحضر اجتماعات مجلس الوزراء .. كما أن الرئيس كارتر قد أوفدها فى مهام سياسية لأمريكا اللاتينية ..

وأكدت استقصاءات الرأى العام : أن روزالين كارتر هى المرأة رقم ٢ بين كل سيدات البيت الأبيض .

وفى سنة ١٩٨٦ استطاعت السيدة نانسى ريجان أن تقفز من مجرد السيدة الأولى إلى «مساعد» الرئيس !.

ولم يكن مألوفًا أن تشترك المرأة الأمريكية فى الحملات الانتخابية لزوجها ، إلا فى القرن العشرين . عندما أراد المرشح للرياسة أن يكتسب «شعبية» لا مجرد موافقة الحزب على ترشيحه . هنا كان الدور المناسب للسيدة الأولى . وكان ظهورها دليلاً على أن المرأة يجب أن تساند الرجل ، وأن تسبقه إلى صناديق الانتخابات . وإذا كان الرئيس ممثلاً للرجل والنساء ، فإن السيدة الأولى تمثل المرأة التى تحلم بهذه المكانة وتحلم بأن تكون رئيسة لأمريكا أيضًا !.

فالسيدة روزالين كارتر انفردت بأربعة عشر شهرًا تدعو لزوجها فى كل الولايات المتحدة الأمريكية ــ قبل بدء المعركة الانتخابية ..

والسيدة ليدى بيرد زوجة الرئيس جونسون انفردت أيضًا بحملات انتخابية لزوجها . ولها فلسفة . هى أن أبناء الجنوب الأمريكى مثل فرسان العصور الوسطى الأوروبية أكثر احترامًا للمرأة . فإذا وعدوا فمن المستحيل أن يخلفوا . ووعدوها بتأييد زوجها . وصدقوا ما وعدوا به .

وفى سنة ١٩٦٤ كانت لها عبارة مشهورة : إن الحملات الانتخابية هى الفاتورة التى يجب أن تدفعها من أجل نجاح زوجها !.

وأثناء نقاهة الرئيس ريجان سنة ١٩٨٥ نشرت الصحف الأمريكية استقصاء للرأى العام يقول : إن أقوى ثلاثة فى البيت الأبيض : الرئيس وكبير مستشارى الرئيس وزوجته ..

والسيدة «دولى» زوجة الرئيس ماديسون لم تكن شعبيتها بسبب أنها أول من قدم الآيس كريم فى أمريكا وفى البيت الأبيض .. ولكن حرصها على مضاعفة أصدقاء زوجها بكل الوسائل المختلفة . ولها عبارة شهيرة : أن يكسب الرئيس عشرين صديقًا كل يوم ، هذا قليل جدًا !.

وبعد أن ترك زوجها البيت الأبيض ظلت تدرب موظفات البيت الأبيض على حسن استقبال الوفود ..

واشتهرت السيدة كارولين زوجة الرئيس هاريسون بأنها أحسن ست بيت ..

والسيدة «روز» أخت الرئيس كليفلاند ، لم تكن لمؤلفاتها أى رد فعل لا على الرئيس ولا على الشعب ، وإنما كانت فساتينها الأنيقة أبعد أثرًا ، وأكثر انعاشًا للصالونات فى العاصمة الأمريكية ..

واشتهرت زوجة لنكولن بالأبهة .

وزوجة تيلر بالخشونة .

وزوجة ماديسون بالسطحية .

وزوجة مونرو بالقنزحة .

وزوجة بيرس بالكآبة .

وزوجة تايلور بأنها وردة البيت الأبيض ..

وزوجة واشنطون بأنها : أمنا العجوز !.

وكانت زوجة الرئيس بيرس تصلى فى الكنيسة وتدعو الله ألا ينجح زوجها فى الانتخابات ، فهى تريده إلى جوارها لأن اليوم الأسود هو دخولها البيت الأبيض !.

وتتراوح أعمار السيدة الأولى الأمريكية ما بين عشرين سنة و ٦٥ سنة ..

وبعضهن متعلمات جدًا ، وبعضهن جاهلات .. وبعضهن بعد الزواج رحن يبحثن عن وظيفة ، كأن يعملن فى مزارع الأسرة ، أو يعملن سكرتيرات لبعض الشركات .. وبعضهن لا يدرين شيئًا مما يحدث أمام باب البيت الأبيض ، وبعضهن فى قمة الشراسة السياسية !.

* * *

أما السيدة الأولى فى بريطانيا . زوجة رئيس الوزراء ، وإن لم تحمل هذا اللقب الأمريكى ، فهى أشكال وألوان وقدرات ونكبات على الزوج وعلى البلاد .. ابتداء من زوجة روبرت بت . حتى السيدة مارجريت تاتشر التى هى السيدة الأولى والسيد الأول لبلادها أيضًا .

فالسيدة « مارى ـ أن » زوجة دزرائيلى قد أعطته ما لم تعطه زوجة . ساعدته اجتماعيًا وسددت ديونه . وجعلت فساتينها من

ألوان حزب المحافظين . وكانت تصف زوجها بقولها : دلوعتى السياسية ..

وكان يهرب من الدائنين ، فلا يخرج ليلاً .. أو يظهر فى الحفلات العامة . ولكن دزرائيلى كان يضيق بقبضتها الحديدية عليه .. إنها تراه إبنًا يجب ضربه من حين إلى حين .. وتراه « مشروعًا » استثماريًا ، وضعت فيه كل مالها ودمها ولذلك لا تريده أن يخسر .. وكانت ترى فى تهاون زوجها محاولة للقضاء على المشروع وتبديدًا لأموالها ..

ودزرائيلى أديب وروائى له عبارة مشهورة : من الضرورى أن يتزوج كل امرأة ، لا كل رجل !.

وكان من عادة زوجة دزرائيلى أن تظل ساهرة حتى يعود من مجلس العموم فيروى لها ما حدث وتقدم له طعامًا ساخنًا عند الفجر ، قبل أن ينام . وكان يقول : زوجتى أحسن ضابط بوليس ، إنها تريدنى أن أعتاد على طعامها فإذا وضعت لى السم أكلته ونمت هادئًا !.

أما السيدة اميلى زوجة بالمرستون فكان لها أعظم دور فى حياة زوجها وفى شئون الدولة . فقد ولدت فى أسرة سياسية . واعتادت على المشاكل وتحجيمها فى «الصالون» . ومن رأيها أن تسوية الخلافات ليست فى اجتماع مجلس الوزراء ولا مجلس العموم ولا أروقة الحزب ، وإنما على مائدة الطعام . وكان من رأيها : لو عرف

الناس كم يسهل حل المشاكل أثناء الطعام ، لأطالوا الجلوس إلى المائدة !.

وكانت تقوم بدور مديرة أعماله ، وشريكته فى ثروته ومسئولياته أيضًا .

ولكنها ضاقت بحياتها بعد ذلك وقالت فى مذكراتها : كنت أفضل أن يبقى زوجى وزيرًا للخارجية أو الداخلية . فمنذ أصبح رئيسًا للوزراء لم أعد أراه إلا أحمر العينين شاحب الوجه كل صباح !.

أما السيدة كاترين زوجة جلادستون فهى من أقوى ساكنات ١٠ شارع داوننج ، مقر رئيس الوزراء . لا شىء ينفخ فى صورتها وينهضها من أحلى نومة إلا صدور قرار سياسى . وعندما مرض زوجها ، قرر أن يستقيل . فكانت تقول له : أريد أن أمشى فى جنازة رئيس الوزراء ، لا رئيس وزراء سابقًا !.

والسيدة مارجوت زوجة أسكويت شخصيتها قوية . وكانت تفاجئ زوجها باختيار الكلمات الأولى فى خطابه أمام مجلس العموم . وكانت تقول له : لا تنس أن النواب سوف ينامون بعد قليل .. كن هادئًا فى أول الخطاب ، ثم أصرخ فى نهايته .. ليصرخوا بالتصفيق لك !.

والسيدة كلمنتين زوجة ونستون تشرشل كانت أشد الناس اهتمامًا بصحة زوجها . فهى تعرف أنه يعانى من مرضين : أمراضه الجسمية

ثم من الطبيب الذى يعالجه . وكان هو الطبيب الذى يتجاهل كل نصائح الأطباء !.

وفى الكتاب الذى ألفته ابنتها عنها تروى عشرات النوادر لتؤكد قوة وتفانى السيدة كلمنتين . فأثناء الحرب العالمية الثانية تقرر ترحيل الأطفال إلى أمريكا وكندا .. ومن بين هؤلاء الأطفال حفيدتها . وفجأة سقطت القنابل على إحدى المدارس فقتلت ٣٨ طفلاً .. هنا قرر تشرشل ألا تسافر حفيدته . وذهبت زوجة تشرشل وهى تبكى لرؤية حفيدتها ثم سرقت جواز سفر الحفيدة حتى لا تسافر !.

وتقول إن تشرشل عندما علم بأن اليابانيين قد هاجموا الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور نهض من المائدة رغم أنه كان جائعاً جدًا . وقال : الآن لا طعام ولا شرابٌ .. وإنما نوم عميق عميق .. ما أسعدنى لقد دخلت أمريكا الحرب !

ونام تشرشل كما لم ينم فى حياته : ١٢ ساعة !.

وتقول أيضًا إنه بعد انتصار الجيش الثامن فى معركة العلمين ضد ثعلب الصحراء روميل ، نهض تشرشل من فوق «القصرية» وكان من عادته أن يجلس عليها طويلاً ويقرأ ويصدر القرارات وقال : الآن سوف أنام فى غاية العمق والامتنان .. فقبل العلمين لم نعرف النصر ، وبعدها لن نعرف الهزيمة !.

ونام ١٢ ساعة دون حركة !.

وكان من عادتها إذا نام تشرشل أن تجلس على مقعد أمام باب

غرفته المغلقة حتى لا يقترب منه أحد. وتكون قد قرأت الصحف واستمعت إلى الإذاعة، وأعدت تلخيصًا سريعًا لكل ما حدث فى الدنيا أثناء نوم زوجها !.

* * *

ولا تزال المرأة بعيدة عن السياسة .. هى لا تحبها، والرجال لا يحبون لها ذلك .. مع أن السياسة ضرورية للمرأة والرجل .. هى تكذب على رجل واحد، والرجل يكذب على كل الناس !.

ولكن المرأة اتجهت إلى الاقتصاد. فمن بين النساء مديرات ورئيسات مجالس الشركات ..

ولكن المرأة تفوقت فى مجالات علم النفس والاجتماع والدراسات الإنسانية. فعلم النفس يهتم بالجنس، وعلم الاجتماع يهتم بالأسرة والطفل والدراسات الإنسانية مشغولة بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل أو عجزها عن ذلك ..

ولا تزال السياسة علمًا وفنًا وممارسة شاقة على المرأة. ولكن لابد أن يكون لها دور.

وفى التاريخ نساء نجحن فى أن يتقدمن الرجال بالقوة وفى القوة والذكاء ..

مثل حتشبسوت وكليوباترا وبلقيس وزنوبيا وسميراميس والخيزران أم هارون الرشيد. وشجرة الدر. رغم هذه المجتمعات الشرقية التى لا تستريح إلى أن تتقدم المرأة على الرجال.

وإن كان بعض الرجال يفضلون حكم النساء على الرجال . نكاية فى الرجل وسخرية منه ..

مثل ذلك الشاعر الساخر الذى قال :

لنا حاكم : حكمه ما مضى
وأحكام زوجته ماضية
فيا ليته لم يكن قاضيًا
ويا ليتها كانت القاضية !

تعال ندخل معًا هذين البيتين :

البيت الأبيض فى واشنطن .

والبيت رقم ١٠ شارع دواننج فى لندن ـ وسوف نرى العجب ! !.

٣ - نحيفة جداً وغنية جداً
صعب جداً جداً!

الصغيرات فى المقاعد الكبيرة ـ هذا هو العصر الجديد للبيت الأبيض. زوجات الرؤساء لم يكن سعيدات بهذه الحياة فى العاصمة : لا راحة .. لا حرية .. لا خصوصية .. وإنما من الواجب عليهن أن يوزعن الكذب بالعدل : يبتسمن لكل الناس ويعانقن ويقبلن ويدافعن عن كل تصرفات الرئيس وحكومته ..

واحدة لم تكد تسمع نبأ اختيار زوجها زئيسًا حتى انهارت تقول : بل أن أعمل بوابة لأى كنيسة أفضل من سيدة البيت الأبيض ..

وواحدة كانت تصلى لله أن يسقط زوجها فى الانتخابات ..

وفى سنة ١٨٢٩ حلف الرئيس جاكسون اليمين وقبل الإنجيل ـ وكانت زوجته قد ماتت قبل ذلك بشهور. وفى ذلك اليوم دخل الشعب بيت الشعب ، وكسروا المقاعد والمناضد وأكلوا الطعام وأخفوا الملاعق والسكاكين فى جيوبهم. ولم تكن هناك إجراءات أمن أو قواعد للدخول والخروج من بيت الرئيس ..

وقالها جاكسون بصوت منخفض : من قال إن الدكتاتور

وحش ، بل الشعب أكثر وحشية من أى دكتاتور !.

وبعد أن أصبح من حق كل أبيض أن ينتخب وأن يرشح نفسه ، دخل الفلاحون ورعاة الأبقار مجلس البرلمان . وكتب المؤرخون فى ذلك الوقت أن الواحد منهم كان يرتدى القبعة ولا يخلعها حتى إذا تكلم ؟! وكان بعضهم يبصق على الأرض .. وفى أكثر من مرة نبهوا الأعضاء ألا يتناولوا أى طعام أثناء الجلسات ..

وكان على الرؤساء أن يجدوا حلاً فى غياب الزوجة : فالرئيسان جاكسون وفان أرملان .. والرئيس جوكانان لم يتزوج ولذلك كان اعتمادهم على زوجات الوزراء أو على الأقارب .

أما السيدة راشيل زوجة الرئيس جاكسون فقد تركت لابنة أخيها الإشراف على شئون البيت الأبيض فى استقبال الضيوف والحفاوة بهم . ولذلك ذهبت ابنة أخيها إلى البيت الأبيض لإكمال هذه المهمة التى بدأتها من سنوات . فقد كانت السيدة راشيل مريضة دائمًا .. وراشيل هذه لها قصة طويلة فاضحة . كانت فتاة جريئة تركب الخيول وليفة ذكية تحسن الحديث مع الرجال والنساء . تزوجت أول مرة وهى فى الثامنة عشرة وعاشت مع حماتها . وكان زوجها غيورًا . وإذا سمع كلمة اطراء لزوجته ، كان نهارها أسود وليلها أيضًا . وأخذ يهدد بأنه سوف يشوه جمالها . أما كيف فقد اختار وسيلة حقيرة : أن يأتى بمخلفات الخيول ويضع فيها رأسها وعينيها حتى قبل الموت بقليل . وهربت راشيل إلى أمها .. وتقرر أن تنفصل عن زوجها .

وفى طريقها إلى أمها رافقها شابان أحدهما يسكن فى الفندق الذى تملكه أمها ، وكان معجبًا بها : أنه أندرو جاكسون الرئيس المقبل لأمريكا . وتزوجا سنة ١٧٩١ ـ بعد أن حصلت على الطلاق بتهمة الخيانة : أنها تعيش مع رجل آخر ! وظل الناس يتحدثون عنها ويتغامزون على زوجها حتى موتها .. وكان جاكسون يضع مسدسًا محشوًا فى جيبه يهدد كل من يشير إلى هذه القصة . وقد حدث أن انطلقت رصاصة أصابته فى كتفه ، قبل أن يطلق هو رصاصة على من تهامس على زوجته !.

وقد كان يردد دائمًا حكمة واحدة ، ولكنه لم يعد يفعل ذلك بعد أن أصبح رئيسًا . الحكمة تقول : خذ حقك بذراعك ، لا تنتظر القضاء إنه بطىء !.

وبعد عشرين عاما من زواجها ذهبت راشيل ترافق زوجها لمشاهدة الاحتفال به بطلاً لمعركة نيواورليانز . وكان فى استقبالها فاترًا بسبب طلاقها .

ولكن مصيبتها الأكبر أنها جاهلة تمامًا ..

وراشيل هى واحدة من أبناء القرى التى على الحدود حياتها مثل رعاة البقر . لا تهتم بالملابس ولا شعرها ولا العطور . ولا تركب العربات وإنما الخيول .. ولا تخرج من البيت إلا للكنيسة .. وفى الليل تتحدث وتدخن البايب .

وكانت إذا مشت على الأرض فإنها تدب ، ويخشون إذا سارت

فى الطابق العلوى أن يسقط بها . وهاجمتها إحدى صحف المعارضة وقالت : على نساء العاصمة الأمريكية أن يفكرن ألف مرة قبل اختيارها على رأس المجتمع النسائى !.

وماتت بأزمة قلبية فى ديسمبر سنة ١٨٢٨ . عن واحد وستين عاما ــ أكبر من أية سيدة أولى قبل ذلك .

أما ابنة أخيها «اميلى» والتى قامت بدور السيدة الأولى فقد توفيت فى سن صغيرة ــ ٢٨ عاما .

* * *

وبعدها ظهرت فتيات كثيرات فى البيت الأبيض : زوجة ابن الرئيس هاريسون .. وزوجة ابن الرئيس تيلر وزوجة ابن الرئيس تايلور وبنت أخت الرئيس بوكانان . وكانت سعادة العاصمة الأمريكية بهذا الجيل من الفتيات الصغيرات هائلة . فقد أشعن الأناقة والبهجة والحفلات الراقصة . وفى نفس الوقت كان الشعب الأمريكى قد أخذ يجدد اعتقاداته العميقة : الشباب والمغامرة والتفاخر بالبداية من الصفر والتسامح والحرية . حتى كبار السن راحوا يتصابون ، ويصبغون شعورهم ولم يعد أحد يرتدى الباروكة المعطرة بالبودرة حتى لا تعيش فيها الحشرات كما كان يفعل الرئيس واشنطون .. وصار من موضات العاصمة أن يقف الرجال والنساء عند سن ٢٩ ويحتفلون ببلوغها عدة مرات وأما الشيوخ فهم الذين يبلغون الأربعين ويموتون عندها أو بعدها بقليل !.

وظهرت البنطلونات تغطى الركب التى كانوا يلفون عليها الأحزمة .. واختفت الجاكتات البيضاوية المنفوخة وظهرت الجاكتات المحزقة ذات الأكتاف العريضة والوسط الضيق والأكمام الخانقة .. وكذلك الفساتين الملتصقة لكى تظهر الصدور والأرداف ـ لقد جاءت الموضة من فرنسا . وأهم معالم أزياء السيدات فى ذلك الوقت : الجوبات الدغرى وارتفاع خط الوسط للفساتين الأمبير (الامبراطورية) .

وكانت موضة القرن الثامن عشر للزوجة الأم .. وموضة القرن التاسع عشر للفتاة الصغيرة . بل إن كل ملابس المرأة كانت تتشبه بملابس الأطفال : الوسط مرتفع جدًا والأكتاف عريضة والأكمام قصيرة والشريط والوردة فى الشعر ، والخصلات على الجبهة وعلى الأذنين .. وكانت نساء العاصمة الأمريكية يتبارين فى الموضة الباريسية ..

وتروى الصحف المعاصرة أن أحد رجال الأعمال لم يكد يهبط من الباخرة فى نيويورك حتى وجد عددًا من بناته وزوجات أولاده قد خلعن ملابسهن ليجربن الفساتين التى أتى بها من باريس .. ثم عدن إلى البيت فى كارنفال أنيق !

* * *

والرئيس فان بورن طلب إلى إنجيلكا زوجة ابنه أن تتولى استقبال الضيوف فى البيت الأبيض . وكانت تظهر عليها كل ملامح الموضة

فى سلوكها الاجتماعى : أنها صغيرة الحجم .. خجول إذا أحد حدثها أحنت رأسها أو مالت جانبًا ، فالموضة هى طاعة الصغار للكبار . ولكن انجيلكا هذه كانت إذا انفردت بالرئيس قالت له : فلان قال عنك .. وفلان يسخر منك .. وفلان يحبك وفلانة تكرهك .. ولن أسمح بدخول زوجة فلان لأن عندها كلبًا أعطته اسمك ..

ولا أحد يعلم مدى صحة ما تقول . ولكن كان لها أثر كبير على قرارات الرئيس !

* * *

أما الرئيس بوكانان وهو الوحيد الذى لم يتزوج (١٨٥٧ ـ ١٨٦١) فقد استدعى بنت أخته هارييت (٢٧ سنة) وطلبت إليه أن تحمل عنه هذا العبء . وكانت كفاءتها ورقتها حديث العاصمة التى لا يعجبها أحد من الناس . وقد وصفتها الصحف بأنها ملكة الحزب الديمقراطى .. وهارييت هى أول من وضع الأقراط الكبيرة وجعلتها تتدلى وكذلك العقود والأحزمة العريضة حول الخصر .. وكانت هناك أغنية باسمها . تقول الأغنية : اسمع إلى البلبل آت ، اسمع إلى هارييت .. انتهز هذه الفرصة وعانق من تحب .. إن هارييت قادمة .. انتهز هذه الفرصة وأطلب من الله أن تكون لك هارييت حتى ولو لم يكن لك بيت أبيض !

وكانت تتلقى هدايا كثيرة . وقد حذرها الرئيس من ذلك . ولكنها لم تستطع أن تقاوم . وفى إحدى المرات تلقت عقدًا من الزمرد به

فصوص من الماس .. فما كان منها إلا أن قطعت خيط العقد فتكومت حباته فى كفها وسألت الرئيس أن كانت تقبل هذه الحجارة الملونة . فلم يمانع . وقالت ساخرة من سذاجة الرئيس : ولكنه لا يعرف أن الماس أيضًا من الحجارة !.

وقبل ذلك عندما كان الرئيس بوكانان سفيرًا لبلاده فى لندن ، أخذها معه .. وقدمها للملكة فكتوريا التى أعجبت بها تمامًا كما أعجب الملك ادوارد الثامن بزوجته الأمريكية دوقة وندسور .. أنها مرحة صريحة مباشرة تزيل الفوارق بينها وبين الملكة فى لحظة واحدة .. وكانت الملكة فكتوريا تقول : إنها مثل صقور جميلة جارحة تنقرك وتخربشك وأنت تحب ذلك !.

وقالت عن نفسها ، وكانت على حق : ليس لى أعداء فى هذه العاصمة ، التى ليس فيها أصدقاء !.

وإذا كانت هناك مشكلة عند أحد لجأ إليها . الهنود الحمر لجأوا إليها . فحلت لهم مشاكلهم فأطلقوا اسمها على كل البنات التى ولدت فى ذلك الوقت !.

وقالت شائعات : بل إنها هى رئيسة الرئيس !.

وقالوا : إنها مستودع أسراره العاطفية !.

وقالوا : هى القوة الخفية التى سيطرت على الرئيس !.

وكلها مبالغات فالرئيس كان قويًا يحسن الاستماع إليها وغيرها ولكنه هو صاحب القرار . وفى إحدى الليالى ظلت تبكى حتى

الصباح فقد قررت أن ترتدى فستانًا أحمر عاريًا . وعلم الرئيس بذلك فطلب أن تخلعه أمامه . ومزقه وداسه بقدميه قائلاً : لا تنس أن هذا بيت الشعب ، وليس حانة من الحانات !

* * *

وعرف البيت الأبيض زوجات مريضات فيما بين ١٨٤١ و ١٨٦٩ : مارتا واشنطون وايجبل آدامز ولويزة أدامز واليزابيث مونرو .

وقد أدى المرض إلى اختفائهن كثيرًا أو نهائيًا ولا توجد أية سجلات صحية لهن . ولذلك إما أن يكن مريضات فعلاً أو تمارضن هربًا من أعباء البيت الأبيض وملل العاصمة ..

والسيدة أنا هاريسون كانت مريضة ، ولكنها عاشت طويلاً .. وفى سنة ١٨٤١ لم تذهب لحضور حلف اليمين - وإنما أرسلت زوجة ابنها . ورغم جمالها وجاذبيتها ، فإنها لم تعط لنفسها فرصة واحدة لكى تؤكد مزاياها العقلية والنفسية والاجتماعية .

ومات الرئيس هاريسون فجأة ، ولم يعرف البرلمان ما الذى يمكن أن يفعله لأرملته . فهذا موقف جديد عليه تمامًا .

* * *

ولكن بسرعة انتقل الرئيس تيلر إلى البيت الأبيض ومعه أسرة كبيرة . وكان من المعروف أن الرئيس الجديد لا يتفق مع القديم حول أى موضوع .. ولم يمض وقت طويل حتى كان منعزلاً من الحزب . فكان رئيسًا بلا حزب .

أما زوجته ليتسيا فقد أصيبت بأزمة قلبية مرتين . ولذلك طلبت من زوجة ابنها بريسيلا ، وهى ممثلة معروفة ، أن تتولى عنها إدارة البيت . وقد برعت فى حفلاتها والترفيه عن الناس . ولكنها بعد ذلك فضلت أن تمضى فى التمثيل مع والدها متنقلة بين المدن الأمريكية .

وفى ذلك الوقت سخر أحد الدبلوماسيين الفرنسيين من هذا الوضع الشاذ : ممثلة ليلاً ، وملكة على عرش أمريكا نهارًا ؟ ! .

إنه لم يعش مائة وخمسين عامًا ليرى ممثلاً سينمائيًا إسمه رونالد ريجان رئيساً لأمريكا ليلاً ونهاراً ولثمانى سنوات ! .

وبعد عام ونصف من وفاة زوجته تزوج الرئيس فتاة إسمها جوليا تصغره بثلاثين عاما . وهى متحررة جداً ومنطلقة وكان والداها يبعثان بها إلى أوروبا . خوفًا من فضائحها . ولكن جوليا هذه هى التى ابتدعت أن تقف الفرق الموسيقية تعزف للرئيس وتغنى له نشيد مرحبًا بالرئيس . حفظ الله الرئيس .

وهى التى جعلت مقعدها أكبر وأعلى من مقاعد الضيوف . وهى التى وضعت فى قبعاتها ثلاث ريشات ، تميزًا لها عن كل السيدات . وهى التى انفردت بكل مشتقات اللون الأحمر لفساتينها بينما ترددت السيدات أن يفعلن ذلك .. ويقال إنها شخطت فى إحدى السيدات ألا تضع فستانًا أحمر على بشرتها الصفراء ! .

* * *

أما مرجريت زوجة الرئيس تايلور فقد عاشت مع زوجها الضابط

الكبير تنتقل من جبهة إلى جبهة ، وأنجبت له خمس بنات وولدًا . ولما انتهت الحرب بين أمريكا والمكسيك كانت تحلم بحياة هادئة بعيدة عن العسكرية .. ولكن الظروف هى التى طوحت بزوجها فى قلب الحياة السياسية . وكان يسخر قائلاً : أنا الذى لم أعط صوتى لأحد سوف أكون على رأس الجهاز السياسى والتنفيذى ؟!.

ورشحوه رئيسًا ونجح . وتفرغت هى تمامًا لحياة البيت الأبيض . ولها عبارة مشهورة : هناك نوعان من السجون : السجن الذى يندم فيه الإنسان كل يوم على ما ارتكب من جرائم ، والبيت الأبيض الذى لا يتسع وقتك فيه لكى تندم على أى شيء !.

وعاشت السيدة مرجريت تايلور مجهولة من عدد كبير من الناس . بل إن قليلين هم الذين رأوها . ولما سارت فى جنازة زوجها نشرت الصحف : أن أرملة الجنرال تايلور كانت أشد الناس تماسكًا ـ ولم يعرفوا اسمها بالكامل !.

* * *

وكذلك إيجبيل زوجة الرئيس فيلمور فقد سارت على أسلوب مارجريت تايلور فى استقبال عدد قليل من الناس فى البيت الأبيض .. ثم إنها تركت أعباء الضيافة لابنتها مارى (١٨ سنة) .. أما هى فكانت تحب القراءة والاستماع إلى الموسيقى . وكان الرئيس يأتى لها بالكتب الجديدة من كل مكان . وهى صاحبة الفضل الأول فى تزويد البيت الأبيض بأول مكتبة شاملة . واستطاعت أن تعلم

نفسها اللغة الفرنسية .. ودخل البيانو البيت الأبيض ، فقد تعلمت العزف عليه وعلى آلات موسيقية أخرى .

ولأنها كانت قليلة الحركة أوجعتها ركبتاها . وكانت تتساند على الجدران حين تمشى . ولذلك كانت تفضل الجلسات الهادئة والحوار . ولم يحدث أن دعاها أحد لزيارته فى أية مناسبة .

* * *

وأخذت أعباء سيدة البيت الأبيض تتضاءل فى القرن العشرين ، فقد ظهر كثيرون يساعدون السيدة الأولى .

ومع الفتيات الصغيرات فى البيت الأبيض وموضة الشباب فى كل شيء ظهرت موضة النحافة ـ فقد اتجهت الفتيات الصغيرات إلى أن تكون نحيفة جدًا حتى المرض . بل إن المرض نفسه أصبح موضة . لأنه دليل على الرقة وعلى الأنوثة الشديدة . كما أن الإغماء والانهيار كان دليلاً على شدة الرقة والضعف . فالمرأة تحب أن تبدو ضعيفة ، لكى يظهر لها الفتى الشهم الذى ينقلها من الأرض إلى حضنه إلى الوقوف وراءها وحولها . وقد عرفت أوروبا هذه الظواهر فى مرحلة «الرومانسية» فى الأدب والفن . فكان الفنانون فى غاية النحافة وكانوا ينزفون دمًا ويبصقون على الأرض .. ومع المرض والحساسية والامتناع عن الطعام والراحة ، انتشر مرض السل الرئوى الذى كان توأم الرومانسية الأوروبية . .

وقد علقت مؤرخة أمريكية على ما أصاب المرأة فى أواخر القرن

التاسع عشر : بأن المرأة لو استغنت عن الحزام الذى يقسمها نصفين والذى تشده حولها بعنف ، لاستراحت معدتها وأمعاؤها وكبدها واتسع صدرها وأصبحت قادرة على التنفس . ولكن المرأة تريد أن يكون خصرها نحيلاً ولو أدى ذلك إلى موتها .. وقد مات كثير لهذا السبب ! !.

وكانت هذه النحافة من العيوب التى وجهها المجتمع الإنجليزى لدوقة وندسور الأمريكية . وللأميرة ديانا زوجة ولى العهد الإنجليزى . فعندما اتخذت ريجيمًا قاسيًا فزع الإنجليز من أن تصاب ملكة المستقبل بما أصيبت به دوقة وندسور !.

وفى ذلك الوقت قيل : نحيفة جدًا : صعب وغنية جدًا : صعب .

ولكن فتيات البيت الأبيض استطعن ذلك وبمنتهى السهولة . وجاءت الفساتين من فرنسا تزيدهن جمالاً !.

ولم يكن الطب قد تقدم فى ذلك الوقت فقد كان هناك دائمًا نوعان من الأطباء : واحد للرجال وواحد للنساء . وأطباء النساء اتجهوا إلى علاج المرأة بسبب الحمل والولادة ، أو رغبتها فى ذلك فتركوا المرأة تموت دون أن يعرفوا أن هناك أمراضاً أخرى .

* * *

ولم يعرف البيت الأبيض سيدة بصقت على بابه والطريق إليه كالسيدة جين بيرس . فقد رأت ابنها يموت تحت عجلات القطار

وهى فى طريقها إلى واشنطون وآمنت أن الرياسة الأمريكية لا تساوى هذه الخسارة الفادحة. ومنذ اللحظة الأولى وهى تكره البيت الأبيض. وقد بلغ التأثر من زوجها أنه نعى ابنه إلى الشعب الأمريكى. وقد غضب الشعب من إدخال موت ابنه فى خطاب رسمى. وقالوا : وإيه يعنى مات ابنك أو عشرة من أولادك... فهناك مئات من الأبناء يموتون فى الحرب من أجل الوطن.

وإيه يعنى مات إبنك تحت عجلات القطار، فكم عدد الذين ماتوا من أجل أن يكون هناك قطار وله عجلات ؟! إن الرئيس يجب أن يكون أقوى من ذلك... وألا يستعير عينى زوجته ويبكى على ولده !!.

وأصبح البيت الأبيض كئيبًا وكذلك ليالى العاصمة الأمريكية : فالرئيس حزين والسيدة الأولى أكثر حزنًا. والفتيات الصغيرات اللاتى يدرن البيت الأبيض حزينات وأطلقوا عليه : البيت الأسود الشهير. بالبيت الأبيض !.

* * *

ثم أغتيل الرئيس إبراهام لتكولين فى أحد المسارح. ومن العجيب أنه قد روى لأصدقائه قبلها بأسبوعين أنه سوف يموت قتيلاً فقد رأى حلمًا واحدًا مرتين. الحلم : أنه كان نائمًا وسمع صراخًا فى البيت الأبيض وأناسًا يبكون واندهش وراح يجرى فى غرف البيت، يبحث عن مصدر البكاء.. ودخل غرفته ووجد شخصًا نائمًا فى

سريره فلما كشف وجه النائم : كان وجهه هو ملطخًا بالدم !.

* * *

وقد حدث أيام حرب نابليون مع روسيا أن رأت زوجة الجنرال الروسى توتشكوفا حلمًا . وفى الحلم سمعت من يقول لها : سوف يموت فى برودينو !.

وروت هذا الحلم لزوجها . وأمسك الاثنان الخريطة يبحثان عن هذا المكان فلم يجداه وقد تولاها الفزع لدرجة أنها رافقت زوجها فى معاركه الحربية ، فكانت تنزل فى الفنادق القريبة من الجبهة وكان نابليون يزحف على روسيا واستطاع زوجها أن يوقف الزحف بعيدًا عن موسكو.

ولما ذهبت الزوجة لأحد الفنادق وجدت غرفتها فى الفندق هى بالضبط التى رأتها فى المنام . ولم تكد تفتح حقائبها وتعلق ملابسها حتى جاء من يقول لها : زوجك مات فى برودينو ! !.

وكان برودينو هو أحد روافد الأنهار فى تلك المنطقة !.

وحدث ذلك للشاعر الإنجليزى شيلى فقد رأى فى نومه أن صديقه قد غرق وأن السمك أكله ولم يترك منه إلا أصابع يديه ورجليه . وفزع الشاعر . ولكن زوجته قالت : لأنك شربت كثيرًا أمس !.

وخرج الشاعر شيلى وأحد أصدقائه إلى البحر فى سفينة . وهبت العاصفة وأخذت السفينة القريبة منه تنصحه بأن يلملم الشراع حتى

لا يمتلئ بالهواء وتغرق السفينة ولكنه لم يأخذ بالنصيحة فغرق الاثنان . وبعد عشرة أيام قذف البحر بالجثتين إلى الشاطئ !.

ويقال إن الخديو إسماعيل بعث برقية عاجلة لصديقه عالم الآثار الألمانى هينريش بروجشى يستدعيه فوراً لأمر هام . وكان العالم الألمانى فى طريقه إلى بلاده ..

فترك السفينة واستقل واحدة أخرى تعود به إلى إيطاليا ثم إلى مصر. وفى إيطاليا سمع أن الباخرة التى كانت ستنقله إلى بلاده قد غرقت ومات كل من عليها . ولما وصل القاهرة قابله الخديو وقال له : استدعيتك فقد رأيت فى نومى أنك إن لم تعد إلى مصر بسرعة ، فسوف تموت !.

* * *

وبوفاة لنكولين جاء نائبه أندرو جونسون وأسرته الكبيرة إلى البيت الأبيض . وكان الناس لا يحبون جونسون لأنه يوم حلف يمين الرئيس لنكولين كان مخموراً يترنح . ولكن الرئيس لنكولين نفى عنه هذه التهمة وقال : بل اشتد عليه البرد ، فشرب القليل الذى يدفئه !.

ولم تحضر زوجته أليزة حلف اليمين . فقد كانت مريضة بالسل . وأنابت عنها بناتها فى الحفاوة بالشعب . وكانت حياة الرئيس جونسون شاقة . فهو رجل علم نفسه وبنى نفسه . كان ترزيًا ، ثم شق طريقًا صعبًا إلى القمة ـ عضوًا فى مجلس النواب وعضوًا فى الشيوخ .

ولذلك كان امتنانه لزوجته قليلاً ، وللناس قليلاً جدًا . ولكن زوجته اليزة هذه كان لها دور كبير فهى التى تقرأ الصحف وتلخصها وتنقل إليه الأخبار السارة فورًا والأخبار السيئة تؤجلها إلى الغد .

وكان أهل العاصمة إذا لاحظوا أن بنات الرئيس لا يفهمن فى الذوق والأتيكيت ، كان رد بنات الرئيس جاهزًا : نحن أناس بسطاء جئنا إلى البيت الأبيض بعد كارثة كبرى فلا تتوقعوا منا المعجزات ! .

وفجأة ظهرت بقرتان فى حديقة البيت الأبيض ـ لكى يحصل الرئيس على لبن طازج ! والرئيس هو الذى أمر بألا تدخل البيت الأبيض دجاجة واحدة .

فقد حدث أن هربت من الأقفاص دجاجة ، فطاردها رجال البيت الأبيض فى شوارع العاصمة ! .

والرئيس أندرو جونسون هو أول رئيس يحاكمه الكونجرس . فقد أدت سياسته فى الحرب إلى ارتباك القوات الأمريكية . وكانت العاصمة تشترى التذاكر فى السوق السوداء لتتفرج على الرئيس ولم تذهب بناته إلى الكونجرس ـ وتماسكت الأسرة حتى مرت هذه المحنة عندما جاء التصويت ببراءة الرئيس ـ بأغلبية صوت واحد ! .

وقد عرفت الأسرة حقيقة الناس ولذلك كانت السيدة اليزة جونسون تطلب من بناتها أن يحملنها إلى خارج البيت لتبصق عليه ! .

وتوالت السيدات المريضات على البيت الأبيض : هيلين تافت

ماتت بأزمة قلبية سنة ١٩٠٩ ، وخلفتها فى البيت الأبيض ابنتها وأختها .

ولوريس هاردنج كانت مصابة بأمراض عديدة وكان زوجها على علاقة بسيدات كثيرات . فقد أحب كارى فيلبس وكتب لها مائة خطاب سوف يتم الإفراج عنها ليراها الجمهور عند نهاية القرن .

وكذلك السيدة «لو» هوفر كانت مريضة طول فترة رئاسة زوجها ، ولم تتوقف لحظة واحدة عن العمل والدعاية له ..

والسيدة بتى فورد (١٩٧٤ ــ ١٩٧٧) أجريت لها عمليات لاستئصال السرطان من صدرها . ولم تتأخر يومًا واحدًا عن أداء الواجبات الاجتماعية فى البيت الأبيض وخارجه .

* * *

وكان من الممكن أن تكون مارى جونسون كبرى بنات الرئيس أديبة لو أرادت أو لو تفرغت للابداع الأدبى فقد كانت تمارس رسم سيدات المجتمع فى صورة كاركاتورية بالخط وبالكلمة . ولم تصلنا لوحاتها الفنية وإنما بعض عباراتها اللاذعة . مثلاً :

إنها امرأة فاضلة لأن الظروف لم تساعدها على أن تكون غير ذلك !.

* * *

لو كان عقلها مثل وجهها الجميل ، لحكمت الدنيا !.

المرأة تفضل الكذب الذى يرضى كبرياءها ، على الصدق الذى ينقذها من الغرق !.

لا أعرف لماذا تزوجها هذا الرجل : لا وجه ولا عينان ولا شفتان ولا ساقان ولا أذنان .. إنها مجموعة كبيرة من «لا شيء» !.

* * *

صوتها جميل جدًا لدرجة أنك لا تهتم بأن تفهم كلمة واحدة مما تقول !.

عرفت لماذا هى تثير الناس : إنها تنظر إليك كأنها تخلع ملابسها !.

المرأة ؟ المرأة ليست إلا غلطة من غلطات التطور !.

* * *

إنها حريصة على تزييف نفسها يومًا بعد يوم ، حتى لم تعد تعرف من هى !.

امرأة تشترى عطرها بنفسها : أتعس امرأة !.

* * *

إننى أقدم نفسى للناس على أننى موسوعة من الأخطاء . ولم لا ؟ لقد أمضيت عمرى كله أؤلفها !.

* * *

شىء عجيب : المرأة لا شىء ... ولكن لا شىء فى الدنيا له معنى أو طعم من غيرها !.

سلاح الرجل : شجاعته .. سلاح المرأة : لسانها !.

* * *

أنا غزال يعيش باحتقار فى حديقة البيت الأبيض ! نصيحة : كونى مهذبة مع أية فتاة صغيرة ، فأنت لا تعرفين من سيكون زوجها فى المستقبل !.

* * *

إنها سيدة لا تعرف الخجل ، ولذلك فهى متسولة موهوبة !.

* * *

فعلاً ما كنت أحب لأبى هذا الهوان .. ولكنى لم اختره إنها غلطة أمى .

٤ - المـــرأة تـكـره نفسـهَا عنـــدَمـا لا يحبـهـا أحَــــدا!

ثلاث نوعيات من النساء . ولكنهن متعلمات دخلن البيت الأبيض بعد الأربعين ..

سارة زوجة الرئيس بولك : المرأة التى عاشت مرآة تعكس صورة لزوجها ، أكبر من حجمه عشرات المرات !.

ومارى زوجة الرئيس لنكولن : أتعس من دخلت وخرجت من البيت الأبيض . كانت تكره نفسها ، لأن أحدًا لا يحبها !.

وجوليا زوجة الرئيس جرانت : أنت تحتاج معها إلى لحظة واحدة لكى تعرف كل رذائلها ، وإلى العمر كله لتعرف بعض فضائلها !.

سارة بولك أبوها غنى . مزارع عنده أرض وأبقار وأموال . أتى بالمدرسين ليعلموا أولاده وبناته . لم يعلمهم أشياء كثيرة . ولكن القليل الذى نادى به كان واضحًا : إما أن تكون البنت ست بيت . وإما أن تكون رجلاً تقف وراء الرجل الذى هو زوجها . واختارت سارة أن تكون ست بيت وراء زوجها .

وكانت تقول لكل ضيوفها : إذا احترق البيت يمكن شراء واحد

جديد ، وربما أحسن .. ولكن إذا ضاع الزوج ، فالنسيان صعب ، ثم الزواج من رجل لا أحبه ، صعب جدًا .

ولم تنجب أولادًا . ولذلك كان لديها متسع من الوقت وكانت تحشر أنفها فى كل شىء فى البيت وحوله . وكانت تتلقى ضربة على أنفها من حين إلى حين من يد الرئيس ومن عصاه أيضًا .

وإذا سافرت بعيدًا عن العاصمة ، تبعث لزوجها بالخطابات تقول : ماذا يرى الناس . وما الذى يضايقهم وما الذى يتوقعونه من الرئيس .

وأيام ترشيحه للرياسة ، لم يكن مألوفًا أن تشترك المرأة مع زوجها فى الحملات الانتخابية . ولكنها كانت تظهر وتدعو وتؤيد وتدافع . وهى أول من قال للرئيس إنه سوف ينجح . فقد قامت بأول استفتاء شخصى عرفته أمريكا . فقد اختارت خمسين بيتًا وسألت الناس . فاختارته الأغلبية .

وفى أحد البيوت قالوا لها : ولكننا لن نختارك ، فأنت لا تعرفين كيف تصنعين طبقًا من العجة بالطماطم ! .

وكان ردها : وليس ذلك ضروريًا وإذا أقمت فى البيت الأبيض فسوف أحرص دائمًا على ألا يدخله البيض أو الطماطم ! .

وهذا يدل على جرأتها . فلم تستطع السيدة جيرالدين فرارو المرشحة لنائب رئيس الجمهورية سنة ١٩٨٤ أن تقول إنها لا تعرف طهى أو كى الملابس أو تنظيف حظيرة الأبقار ! .

ولما جاءت الأنباء بفوز الرئيس فى الانتخابات ، همس موظفو البيت الأبيض بأنه لا داعى لدخول المهنئين خوفًا على السجاجيد واللوحات والأطباق والملاعق والشموع .. ولكنها أصرت على فتح الأبواب ليدخل الشعب بيت الشعب . وحدث ما توقعه الموظفون . ولكن سارة قالت : وإيه يعنى .. أنهم تركوا وراءهم امتناننا لهم ، وحبهم للرئيس العظيم !.

ولم تستطع سارة أن تواجه وفود المهنئين . وفى إحدى المرات أصرت على أن يدخلوا عليها غرفة نومها وهى مريضة . وكانوا يطلبون الوقوف والجلوس والحديث . ولما سئلت عن إصرارهم على دخول المهنئين رغم مرضها كانت تقول : إذا كانوا يروننى مريضة ولا يصدقون عيونهم ، أو لايرحموننى ، فكيف يكون رد الفعل عندهم إذا لم أقابلهم !.

وكانت سارة لطيفة ظريفة . لها ابتسامة جميلة .

وكانت شديدة التدين . فقد حرمت على نفسها المسرح والرقص والموسيقى . وخاصة يوم الأحد . ولذلك كان ترددها على الكنيسة منتظمًا !.

وكانت تعطى أذنيها لصديقاتها كثيرًا . فإذا سمعت أن واحدة قد سخرت منها ، أو أن واحدًا قد سخر من الرئيس ، حذفت اسمه فورًا من قائمة ضيوف البيت الأبيض ـ حتى لو اعتذر ألف مرة بعد ذلك !.

وعلى الرغم من أنها متعلمة وتؤمن بالمرأة وكرامة المرأة وحرية المرأة ، وضرورة مساواتها بالرجل ، فإنها لم تشارك فى أية دعوة لذلك . ولا ساعدت زوجها أو توسطت لديه ، فى إعطاء المرأة مزيدًا من الحقوق . بل كانت ترى أن المرأة «الفارغة» هى التى تشغل نفسها بما لا ينفع زوجها وأولادها .. وأن «العانس» فقط هى التى تتمرد على الأنوثة والرجولة معًا . وأن المرأة التى تتطلب المساواة بالرجل هى دجاجة تحاول أن تصيح !!.

وكانت الصحف تصف سارة بأنها المرأة المحبوبة أو الملكة كما يجب أن تكون ..

أما الرئيس بولك فكان رجلاً معتدلاً : لا يشرب الخمر ولا يدخن . ولكنه مريض دائمًا . ويشكو من الاضطرابات المعوية . وسبب ذلك أنه لم يكن يعرف الراحة . ولا يعرف الترفيه . فهو لا ينشغل لحظة واحدة عن أداء ما هو واجب . فلم يعرف الإجازة الأسبوعية أو السنوية .. ولا الحفلات فى البيت الأبيض ولا يتذوق النكتة ولا يشجع عليها ..

قد أصيب بإسهال مزمن ــ فمات بالجفاف ، بعد خروجه من البيت الأبيض بثلاثة شهور عن ٥٣ عامًا !.

* * *

ثم صارت لها علاقة واضحة بالرئيس الأعزب بوكانان . ذلك الرجل المهذب ــ ولكن الرجل المهذب ليس إلا ذئبًا صبورًا !.

وأصبحت سارة عنيفة وعدوانية ، لا تكاد ترى حزامًا حتى تضرب تحته وبعنف وكان الرئيس بوكانان يشجعها على ذلك .

وكانوا يتساءلون : كيف تفعل المرأة المتدينة كل ذلك ؟ وكان ردها قاطعًا : من زواج بلا حب ، يولد حبًا بلا زواج !.

وعاشت سارة ٤٢ عامًا بعد وفاة زوجها !.

وكانت لها مذكرات . وكلها تدل على طعم الحياة فى ظل رجل تفانى فى عمله . وانشغل بالبيت الأبيض عن كل أبيض وأسود فى هذه الدنيا .. وكانت تقول أحب حماس زوجى ، ولكن لا أحب هذه النهاية !.

* * *

أما مارى لنكولن فلم تعرف الأمان فى حياتها .. فقد ماتت أمها فى السادسة من عمرها تاركة سبعة من الأولاد .. وبعد سنة من وفاتها تزوج أبوها وأنجبت له الزوجة الثانية ثمانية من الأولاد .

وأحست مارى أنها يجب أن تكون أحسن .. أفضل .. أقوى .. فتفوقت فى ركوب الخيل وفى الطهى والخياطة .. وكانت الأولى فى المدرسة أيضًا . عندها طموح ومرارة . وسيئة الظن بالناس . فأبوها كان عصبيًا جدًا وكلماته وأفعاله لا يمكن التنبؤ بها . فقد يضحك عندما كانت تتوقعه أن يشخط ، وكان يشخط وهى تحاول أن تداعبه ..

وحتى عندما طلبها لنكولن للزواج كان خشنًا قال لها : ولماذا لا يكون اللعب شرعيًا ؟ ! .

وتزوجت سنة ١٨٤٢ وأنجبت أربعة أولاد . مات أولهم وهو فى الرابعة من عمره . فارتدت ملابس الحداد طويلاً . وتساءل الناس أن كانت حقًا حزينة أو أنها تمثل دور المرأة الحزينة ! وكانت تستعير الفساتين السوداء من صديقاتها . كأنها تريد أن تنفرد وحدها بالحداد . وإذا عرفت أن واحدة اشترت فستانًا أسود ، حاولت أن تستولى عليه .. أو تشتريه منها ..

وكانت تنفق الكثير من أموالها على الفساتين والأحذية ..

وعلى الرغم من حزنها الطويل واكتئابها العميق ، فقد رفضت أن تظهر أية امرأة أخرى فى البيت الأبيض . وعندما جاء الأمير نابليون إلى العاصمة ، فكر وزير الخارجية أن يستضيفه . فرفضت . واستضافته هى . لكى تتحدث إليه باللغة الفرنسية ، التى لم يكن يتحدث بها إلا القليلون فى ذلك الوقت ! .

وليس معروفًا ما تركت من أثر على زوجها .. والشعب الأمريكى يلومها كثيراً على أنها كانت السبب فى اغتيال زوجها يوم أكرهته على الذهاب إلى المسرح . وجلست وراءه . . ولكن مارى كانت ترى أن زوجها مرهق وأنه فى حاجة إلى شىء من الترفيه ــ والزوج قد رفض فى أول الأمر لأنه كان يعلم أن كثيرين غاضبون عليه .. وأنه لا يستبعد أن يتسلل أحدهم ويغتاله .. فكان ما توقعه ..

ولم تشترك فى جنازته . وإنما أوفدت أحد أولادها .

وبعد أسابيع خرجت من البيت الأبيض ، لتبدأ رحلة العذاب الطويل .. وكان ابنها الثانى قد مات .

أما الثالث فهو صغير. صورة من أبيه فيما عدا أنه عاجز عن الكلام والحركة . وقررت أن تسافر إلى ألمانيا ، فالحياة فيها أرخص والعلاج أحسن . وأدخلته المستشفى . وهناك سبب آخر لسفرها المفاجئ وهى أنها أعلنت إذا نجح ذلك السفاح فى الانتخابات ـ تقصد الرئيس جرانت ـ فسوف تترك البلاد. وقد نجح .

ولم يكن الكونجرس قد قرر لها معاشًا بعد . فالقانون يعطى لأرملة الرئيس مكافأة تعادل مرتب سنة . ولكنها أرملة وزوجة شهيد . وظل الكونجرس يناقش سنوات طويلة ما الذى يعطيه لها . وكانت هى تبالغ فى فقرها واحتياجاتها . فباعت كل ما لديها من مجوهرات وهدايا وملابس .

ومات ابنها الصغير. وتكامل حزنها . وعادت إلى أمريكا على نفس الباخرة التى ركبتها الممثلة المعروفة سارة برنار التى أنقذتها من السقوط أكثر من مرة .. ثم ندمت على ذلك . فقد كانت مارى لنكولن فى حالة من الاكتئاب الهستيرى . ولذلك قالت سارة برنار : غلطة أننى لم أتركها تسقط حتى الموت !.

وكان الكونجرس قد قرر لها معاشًا . ولكن إبنها الأكبر قد رفع أمرها إلى القضاء يطلب الحجر عليها . وذهبت إلى المحكمة . وجلست

تسمع ما يقوله الأصدقاء والأقارب وابنها عن جنونها . وكانت فى غاية الهدوء . وقد اختفت كل مجوهراتها فى ملابسها . وأدخلت المستشفى . وفى المستشفى عكفت على كتابة مئات الرسائل إلى أصدقائها وأعضاء الكونجرس وإلى رجال الأعمال . وأفلحت فى إقناعهم جميعًا بأنها عاقلة . ونجحت فى أن تصنع رأيًا عامًا . وحكمت المحكمة بخروجها من المستشفى .

ونشرت الصحف حديثًا لأحد أصدقاء زوجها الذى منعته من دخول البيت الأبيض قال عنها هى المسئولة عن اغتياله .. وأنه سينتحر إذا لم يقتله أحد . فالحياة معها مستحيلة : هم فى غم فى قرف فى يأس !.

وفى نفس الوقت عادت الصحف ونشرت قصة مروعة . ولم تكن حالتها النفسية والعقلية تقوى على تحمل هذه الصدمة الجديدة بعد أن مات ثلاثة من ابنائها ومات زوجها . وابنها الرابع فى المحكمة كان كأنه مات فى قلبها ..

نشرت الصحف أن الرئيس لنكولن لم يحبها . وإنما كان يحب فتاة أخرى عمرها ١٨ سنة . وتقدم لخطبتها . ولكنها ماتت قبل أن يعرف زوجته هذه . وأنه ظل مضربًا عن الطعام شهورًا وعن النوم وكان يمشى الليل بطوله .. ورفض أن يذهب للعمل . واعتقد أصدقاؤه أنه على حافة الجنون . وكانوا يخشون عليه من الانتحار ..

ولما عرف مارى هذه ، كانت هى التى تقدمت لخطبته . والتى

دفعته لأن يتزوج منها . وفى يوم الزفاف هرب العريس واختفى تمامًا .
أما السبب فهو خوفه من التجربة .. ولذلك تأجل الزواج سنة ،
حاول الأصدقاء تطبيع العلاقات بينها وبين زوجها . وبعد أن تأكدوا
أنها أصبحت طبيعية تقرر عقد الزواج عليها .. وبعد الزواج ظل
لنكولن ينام فى غرفة منفصلة . حتى شكت لأصدقائه . فما كان من
الأصدقاء إلا أن أقفلوا غرف البيت وسرقوا المفاتيح . فلم يبق عندهما
إلا غرفة واحدة .. وجاء الأولاد .. وراحوا !.

وكان الرئيس لنكولن أكثر اكتئابًا وقرفًا من الحياة . وكان عاجزًا
عن اتخاذ القرار . لأنه كثيرًا ما ينسى الأسباب التى تدعو إلى اتخاذ
هذا القرار . ويقول الأطباء إنه سقط من فوق حصانه وهو طفل .
ولم يكن علاجه صحيحًا . فهناك شىء ما أصابه فى مخه . ثم توالت
الأحداث الأليمة فى حياته هو ، وفى حياته الزوجية ، ثم هموم الحكم
وسجن البيت الأبيض وشبح الموت داخلاً خارجًا !.

وكثيرًا ما شكا الناس من عنف زوجته فكان يقول : ولكن
القدر كان أكثر عنفًا !.

وفى إحدى المرات جاءت زوجة أحد الوزراء تروى للرئيس أن
زوجته قد ضربت خادمًا حتى سال دمه .. وكان الرئيس لا يرفع
رأسه .. ولكن عندما رأى السيدة ومعها ولداها قال : كيف يكون
حالك لو فقدت هذين الطفلين الجميلين ؟!.

وعندما قيل للرئيس لنكولن أن زوجته تنهض من فراشها وتمشى

عارية تمامًا فى البيت الأبيض كان يقول : لم يعد هناك شىء يستطيع أن يحزننى .. بل عندى مشكلة لو ماتت زوجتى ، فلن أجد دمعة واحدة أذرفها عليها !.

آخر مرة خرجت مع الرئيس لنكولن فى إحدى جولاته التفتيشية كان بين القوات المسلحة . وبينما القواد وكبار الضباط يلتفون حول الرئيس سمع الجميع صراخًا وعويلاً . لقد هجمت زوجة الرئيس على زوجة أحد الجنرالات ومزقت ملابسها وشدتها من شعرها إلى الأرض وراحت تضربها وتقول : يا خطافة الرجالة .. تريدين أن تخطفى زوجى .. ألا يكفى ما فعله الموت بنا ؟!.

وكان المؤرخون أقسى على مارى لنكولن من القدر . فظهرت قصص ومسرحيات تتحدث عن هذه الشخصية المأساوية التى ولدت لتكون بطلة فى تراجيديا إغريقية قديمة .. فقد وقعت وحدها فى مواجهة القدر . وسلبها القدر عقلها حتى لا تعرف كيف كانت وفاة ابنها الرابع !.

ولما توفيت مارى لنكولن وجدوها قد ارتدت عشر فساتين معًا . وقد أخفت مجوهراتها فى هذه الفساتين .. ووجدوا خطابات كتبتها لزوجها توضع معها فى قبرها .

وتركت وصية ألا يفتح أحد هذه الخطابات . وتشاوروا وتركوا الخطابات مغلقة كما أوصت بذلك ..

ووجدوا خطابًا إلى الفتاة الأولى التى أحبها لنكولن . تقول فى

خطابها : أظن بعد أن عرفت ما أصابنا فأنت لست نادمة على أنك لم تصبحي السيدة الأولى .. بل أنت السيدة الأولى التي أحبها واختارها . ولكن الموت سبقه واختارك وأراحك من موت الأولاد واغتيال الزوج .. إنني أحسدك يا ابنتي على حظك السعيد .. وإن كنت لا أقوى على الحسد .. بل لم أعد أقوى على أى شيء .. ولا أقوى حتى على إكمال هذه الرسالة إليك . ففي رأسي دقات .. مثل دقات ألف خادم على غرفة نومي يطالبونني أن أخرج لأن البيت الأبيض يحترق والرئيس غارق فى نومه !.

جوليا جرانت زوجة الرئيس جرانت الذى كان إنسانًا عاديا جدًا . وكان من الممكن أن يعيش ويموت دون أن يدرى به أحد . وإذا ذكره التاريخ فلأنه كان مخمورًا دائمًا . كان جنديا شجاعًا وضابطًا ودائم الترنح والتلعثم ، حتى هرب منه كل أصدقائه وأقاربه .. فلا أحد يستطيع أن يتحدث إليه ، أو يفهم ما يقول . أو يجد لذة واحترامًا لنفسه إذا جلس إليه .

طبيعي أن يطردوه من الخدمة العسكرية .. فاتجه إلى زراعة الأرض . يعمل ويسكر طول الوقت .

هذا الرجل صار رئيسًا لأمريكا فترتين (١٨٦٩ ــ ١٨٧٧) . لماذا ؟؟.

فعندما نشبت الحرب الأهلية فى أمريكا ، تقدم متطوعاً ليقاتل أعطوه كتيبة فى موقع صعب جدًا .. صمد واسترد الموقع وقتل من

الأعداء مئات وبمنتهى العنف . وانطلق صاروخًا على السلم العسكرى حتى صار قائدًا للجيوش الأمريكية . وقد أطلقوا عليه لقب السفاح لأنه عندما هزم القوات المكسيكية طلب التسليم بلا قيد ولا شرط . وأن يجىء القادة منكسى الرءوس وأيديهم وراء ظهورهم . يمشون على جثث ضحاياهم من أبناء وطنهم . واستسلمت القوات بلا شروط !.

ولم يجد الشعب الأمريكى من هو أكثر شهرة منه ليرشحوه رئيسًا للبلاد . ونجح مرتين . أما زوجته جوليا ، فهى من أسرة غنية وكانت أحب الأبناء إلى والدها وقد أوصى لها من تركته بنصيب أكبر من نصيب أخوتها : لذكائها ومرحها وشخصيتها القوية . وكان أبوها يقول : لو كانت جوليا رجلاً ، لاستطاعت أن تنوب عنى فى كل أعمالى .. أنها أكثر رجولة من أخوتها وأعمامها وأخوالها

وكان أبوها يداعبها قائلاً : ولدى الجميل !.

وكانت ترد عليه : لا شىء يخجلنى من أنوثتى بل إننى أعتز بها . وأرى أنه لا فرق بين رجل وإمرأة .

ويوم حلف اليمين ودخول البيت الأبيض قررت جوليا أن تجعل هذا اليوم تاريخيًا . طلبت من زوجها أن يصافح كل خصومه . وأن يدعوهم إلى وليمة خاصة . وقد أعدت له الكلمة التى يمكن أن يلقيها كتبت له هذه العبارة . أصدقائى اليوم وغدًا .. فليس معقولاً أن نعمل نحن وحدنا من أجل بلادنا . إننى لأدعوكم للتعاون معى . فلا أحد يدعو أحدًا لأداء الواجب بل إننى أستأذنكم فى أن أعمل معكم

من أجل الوطن !.

وشرب الجميع نخب الصداقة والمودة !.

فى ذلك اليوم شرب الرئيس كثيرًا جدًا . وفى الصباح وجد نفسه نائمًا على الأرض فى بعض ملابسه . ولما غضب من زوجته لأنها تركته هكذا ، قالت : إنما أردت أن أجعلك ترى ما الذى يمكن أن تفعله بنفسك وأنت سكران .. ولو تركتك لمت من البرد .. فقد شربت كثيرًا جدًا وقررت أن تنام عاريًا أمام البيت الأبيض .. تصور الفضيحة التى لا تستحقها ولا يستحقها منك الشعب الأمريكى !.

ووعد ألا يشرب . وتمسك بهذا الوعد يومًا أو بعض يوم . وعاد إلى الشراب .

وفى يوم أصرت جوليا أن تعرف من زوجها كيف أنه عاجز عن اتخاذ قرار بعدم الشرب ، مرة واحدة وإلى الأبد . فكان من رأيه أنه لا يستطيع وأنه لا يجد لذلك داعيًا . فهو فى حاجة إلى تهدئة أعصابه يوميًا ثم أنه لا يجد لذة فى أى شىء آخر .

وكانت تستبعد كل الأصدقاء الذين يساعدون الرئيس فى الإسراف فى الشراب واحدًا بعد واحد . وفى يوم طلب الرئيس أن يتناول عشاء خاصًا . وحدد لزوجته عددًا من أصدقائه وفوجئ الرئيس بأنهم قد اعتذروا وأدهشه ذلك . فقررت الزوجة أن تذهب إليهم وأن تعرف السبب . أما السبب فقد توقفوا جميعًا عن الشراب . ولا يريدون أن يضايقوا الرئيس بأن يتركوه يشرب وحده .

فاستدعاهم الرئيس وأمضى معهم ليلة جميلة هادئة بلا شراب ـ لا هم شربوا ولا هو. وكانت سعادة جوليا بامتناع زوجها عن الشراب لا حد لها . وانزوت فى إحدى الغرف تصلى لله شكرًا . ولما عادت إلى الضيوف وجدتهم يشربون الشامبانيا وتطلعت إلى زوجها فقال لها ضاحكًا . إنما أردنا أن نحتفل بهذه المناسبة السعيدة .

وكانت الصحف تنشر كل ما يحدث فى البيت الأبيض . وكان الرئيس يندهش لذلك . ولا يعرف من هو مصدر كل هذه الحكايات الغريبة . ولم تعرف جوليا أيضًا . وفجأة انكشف السر . أنه الابن الأصغر للرئيس . طفل لا يكاد يسأله أحد عن أى شىء حتى يروى بالضبط وبالتفصيل كل المناقشات بين جده وجدته . ماذا قال الاثنان وماذا قال الرئيس وماذا قالت أمه . وكيف أن الخناقات تبدأ عادة عند منتصف الليل وكيف أن جده يرتدى ملابسه كل ليلة ويجمع ملابسه فى حقيبة ثم أنهم يمنعونه من الخروج وقد حاول أن يكسر دماغ جدته بزجاجة من النبيذ . ولما سمع الرئيس هذا الشجار ، أمسك الزجاجة وشرب نصفها ، وأفرغ النصف الباقى فى كوب . ثم أعطى والده الزجاجة الفارغة واتجه إلى غرفة نومه !

ولما عاتبته جوليا فى الصباح قال لها الرئيس إنها قلة ذوق فهذه زجاجة من النبيذ المعتق هدية من السفير الفرنسى ولا يصح إهانة الهدية !.

أما حفلات جوليا فحديث العاصمة . لأيام كثيرة بعدها .

وكانت تقدم لضيوفها عشرين صنفًا من الطعام وخمسة أنواع من النبيذ الفرنسى .

أما فساتينها فكانت أنيقة مستوردة من فرنسا . وهى تحب الألوان السادة ليلاً والمشجرة نهارًا . وألوانها المفضلة الأسود والأبيض والأخضر . أما مشيتها فعسكرية . وفجأة عدلت عن هذه المشية وراحت تتلوى وتتثنى وتتكسر . وقبل أن يسألها أحد عن ذلك كانت تقول : لقد عاش زوجى طول عمره جنديًا ، ويكره الآن من يذكره بذلك !.

ثم تضحك جوليا وتقول : ورغم أن زوجى لا يدرى بما أفعل طول الوقت ، ولكنى أحاول معه .. لعل وعسى !.

ولما تزوجت إحدى بناتها فى البيت الأبيض . قررت أن تجعل ذلك اليوم حدثًا قوميًا . فدعت كل الفتيات الصغيرات وكل الشبان .. وجمعتهم معًا فى مكان منفصل عن الأكبر سنًا . وكانت إذا رأت فتيات قد ارتدين فساتين متشابهة تطلب من كل واحدة أن تفعل شيئًا يجعلها تختلف عن غيرها . كأن تضع شريطًا فى رأسها أو تلف عقدًا حول يدها .. أو تغير تسريحة شعرها .

ولاحظت جوليا بذكائها أن إحدى الفتيات الجميلات قد جلست بعيدًا وحدها فسألتها عن السبب .. وقالت الفتاة وهى تبكى : ولكنى لا أعرف ما الذى أفعله لكى أكون مختلفة عن الفتيات ..

وبسرعة نظرت جوليا إلى شعرها وفستانها ومجوهراتها . وطلبت إليها أن تقف وأن تدور حول نفسها . وغابت لحظة . ثم عادت ومعها مقص . وفتحت فستانها الأسود من الجانب . وظهر القميص الحرير الأبيض تحت الفستان الأسود . ثم شقت الفستان من الجانب الآخر ـ ولم تتحدث واشنطون إلا عن هذه الحادثة ـ وأصبح شق الفستان من الجانبين موضة فى ذلك الوقت !.

وكانت تنفق كثيرًا جدًا على الملابس والمجوهرات وهى أول من رفع ذيل الفستان من الأمام لكى تبدو الأحذية الباريسية الجميلة !.

وتنافست نساء العاصمة الأمريكية فى فخامة الحفلات وأناقة الفساتين وضخامة المجوهرات وأطلقوا على عهد الرئيس جرانت العصر الذهبى !.

ولما انتهت الفترة الرئاسية الثانية للرئيس جرانت ، ذهب إلى نيويورك يكتب مذكراته . وكان حريصًا على الفراغ منها بسرعة . فقد كان فى سباق مع الموت أصابه السرطان فى حنجرته .

وكسب من المذكرات نصف مليون دولار .

وعكفت هى أيضًا على كتابة مذكراتها ولكن أحدًا لم يلتفت إلى ما كتبته جوليا جرانت إلا فى سنة ١٩٧٥ عندما نشروها لأول مرة .

وقد وصفتها الصحف فى ذلك الوقت بأنها السيدة الأولى للبلاد جمالاً وأناقة وإخلاصًا ودفاعًا دائمًا عن زوجها الذى تقول عنه أنه إنسان طيب حسن النية .. وإذا كانت لها أخطاء فغير مقصودة !.

ولكن ما الذى جعل الجنرال جرانت يصل إلى قمة السلم رئيساً للبلاد ثمانى سنوات ؟.

والجواب : أنه تفوق فى العسكرية وسبب تفوقه فى العسكرية أنه صاحب موهبة فذة فى علم الحساب ، وأحسن وأشجع من ركب الخيول بلا سرج ولا لجام !.

وليس صحيحًا ما قيل من أن جوليا كانت «سلبية» أمام زوجها . بالعكس كانت تنتقده بشدة إذا أخطأ ولكن أحدًا لم يسمعها تقول ذلك أمام الناس . وإنما وراء أبواب مغلقة

وإذا فوجئت بقرار له مخالف لما اتفقا عليه ، فإنها تدافع عنه فورًا ـ هكذا قالت فى مذكراتها ..

وعندما سافرت مع زوجها حول العالم ، كانت سعيدة لاستقبال الناس له استقبال الملوك . وكانوا يحملونه بالهدايا الأثرية .. ولم يكن من السهل الاعتذار عنها . وقد أهدوه فيلاً ولم يعرف كيف ينقله إلى أمريكا ولكن الفيل هاج وسط البحر عندما هبت العواصف فحطم الأبواب وقفز إلى المحيط !.

وعلى الرغم من أنه كان مشهورًا بالعنف فى الحرب ، فإن حياته فى البيت الأبيض امتازت بالرقة والمجاملة . فعندما علم أن زوجته حزمت أمتعتها لتعالج عينيها فى نيويورك قال لها : ولماذا تعالجين عينيك مادمت أستطيع أن أراك فى أى وقت وأن أحبك ثم أننى لست رجلاً وسيمًا . فالحال من بعضه !.

فعيناها تنظران إلى الداخل ، وكانت إذا أرادت أن ترى أحدًا أمامها بوضوح ، فإنها تتطلع إليه بجانب من الوجه .

ولذلك فإن الصور التى التقطت لها كانت «بروفيلاً» أى من منظرها الجانبى حتى لايرى أحد عينيها اللتين تنقلبان إلى الداخل ! .

* * *

هؤلاء السيدات الثلاث لهن طريقة واحدة فى معاملة الزوج : وراء الأبواب المغلقة أو على المخدة . فقد كانت لديهن حساسية شديدة لعيون الناس وآذانهم وكان لديهن إيمان عميق بأن كل امرأة تزور البيت الأبيض هى فى حالة تربص دائم للقفز فى فراش السيد الرئيس .. وكذلك كل الرجال ، لا فى فراشه ، ولكن فى مقعده ! .

هؤلاء الرؤساء الثلاثة يصفون زوجاتهم بأنهن قويات رغم كل الظروف النفسية الصعبة والأعباء الثقيلة .

فالرئيس بولك كان يقول لزوجته : تعالى نتكلم رجلاً مع رجل ! .

وكان يأخذ برأيها أحيانًا .

والرئيس لنكولن كان يقول لزوجته : الآن نحن وجدنا هل أخطأنا اليوم . وكانت تبادره قائلة : نعم أنت أخطأت ولو كنت فى مكانك لألقيت بالوزير من النافذة إذ كيف يفعل ذلك دون الرجوع إليك ، ثم تضطر إلى الدفاع عنه .. على كل حال غداً يجىء معتذراً إليك ! .

ويسألها : وهل تحدثت إليه ؟.

تجيب : طبعًا. كيف أنام دون أن أريح أعصابى وأحطم أعصاب الوزير وزوجته المغرورة المنفوخة بلا منافسة !.

أما الجنرال جرانت فكانت له شكوى دائمة : مع الأسف يا جوليا أنت صاحية جداً ، وأنا كما تعرفين. ولا أعرف كيف تكونين مثلى لنتفاهم ، أو أكون مثلك نتخانق ولكن تأكدى أن القليل الذى نتفق عليه يكفى لإدارة شئون أمريكا !.

٥ - فى الظل والذل
من أجل البيت الأبيض

الصحف الأمريكية نشرت هذه النكتة : أحد أساتذة الجامعة يكد يرى السيدة الأولى فى إحدى الحفلات حتى قال لها : سيدتى والله أحبك !.

فقالت له السيدة الأولى : أنت تستطيع ذلك . أما أنا فاعطنى بعض الوقت لكى أفكر !.

ولم تعرف السيدة الأولى «لوسى هيز» أنها بهذه العبارة قد فتحت بابًا واسعًا للمرأة أن يكون لها رأى .. وأن تكون حرة وألا تهتم بما يمكن أن يقوله الناس . وأنها إن كانت السيدة فهذا اللقب يدل فقط على الرجل الذى تشاركه الفراش الواحد . أما قلبها فملك خاص ولذلك لا تجد حرجًا أن تعلن ذلك . وأنها لا تستطيع أن تمنع أحدًا أن يحبها ، ولا يستطيع أحد أن يمنعها أن تحب هى الأخرى .

وأنه من الممكن أن يكون الحب على هذا المستوى دون أمل فى أن يتقدم أحدهما خطوة . وأن هذا الحب مكتوب عليه أن يكبر وأن يموت فى صمت . فيكون الحب هو السجين البرىء . هو النبيل الذى تدينه كل الظروف كأنه أسوأ أنواع اللصوص .. وأن يكون الحب من

بعيد هو التتويج الخفى للملك الذى يحكم كل الملوك ..

وكان الأستاذ الجامعى يلقى السيدة الأولى فى مناسبات عديدة وفى يده وردة ويقول : أنا نفس الشخصية ولكن هذه وردة أخرى !.

وكانت تقول له بلطف : أعرف ولكنى لم أعد نفس المرأة . أننى أيضًا أتغير لأقترب منك أكثر ..

«أنت تحب ، أنت مسكين .. أنت تحب ملكة ، أنت أتعس رعاياها !» .

صحيح هذه العبارة التى كانت ترددها السيدة الأولى لوسى هيز : الله أعطانا أقاربنا ، ولكننا اخترنا أصدقاءنا وأعداءنا أيضًا .

ولا تنسى السيدة لوسى هيز عبارة قالها أحد القساوسة عندما وجدها تبكى ، وقد بكت كثيرًا : أقسى من اغترابك عن الناس ، أن تكونى غريبة عن نفسك !.

وفى نهاية القرن التاسع عشر فى أمريكا تغيرت أشياء كثيرة . وفجأة أحس الناس أنهم مسافرون . وأنهم غرباء .. وأهم معالم التغيير فى أمريكا : ظهور المرأة الجديدة .. أو حرص المرأة على أن تكون جديدة . فقد دخلت الجامعات والمعاهد . دون أن يكون للتعليم هدف عملى . أنها تريد أن تخرج من البيت ، وأن تخرج على الذين فى البيت . وأن يكون لها رأى وموقف . وأن تقيم حفلات مستمرة لكلمة جبارة ظهرت فى كل شىء اسمها : لا .. لا .. لا لكل ما اعتادت أن تعمله وتقوله قبل ذلك .

وأمام الضغط الجديد والرغبة فى فتح الأبواب للمرأة ، وقفت المرأة تترافع أمام القضاء وأمام المحكمة العليا !.

وانطلقت المرأة الأمريكية إلى أوروبا ، وحدها . وذهبت تدرس وتحصل على مؤهلات علمية أكبر . أى أنها رأت أن أوروبا أفضل من أمريكا ، ولذلك يجب أن تسافر وحدها . وأن تعيش هناك . وأن تدرس وأن تعود تدعو إلى مزيد من الحرية ..

ثم جاءت الحرب الأهلية فى أمريكا .. هذه الحرب أحرقت القديم وأبادت التقاليد الجامدة . أما الرجال فذهبوا القتال وكان على النساء أن يملأن الفراغ . وأن يتقاضين الثمن . أما الثمن : فهو المساواة والحرية .

خرجت المرأة . ولم تعد . ولن تعود . وتساوت مع الرجل فى العلم وفى العمل . وتشكلت جمعيات كثيرة لحماية مكاسب المرأة ودفعها إلى جوار الرجل . وبعض الجمعيات أعلنت عن أهدافها فى الجمع بين الرجل والمرأة ، وكان ذلك على استحياء . مثلاً قالت : أنشأنا هذه الجمعية من أجل علاقات مفيدة بين الأعضاء ليكونوا أكثر نفعًا للوطن .

وقد حدث أن جاء الأديب الإنجليزى تشارلز ديكنز يلقى محاضرة فى نادى الصحافة فى نيويورك . وحاولت إحدى السيدات أن تذهب لسماع المحاضرة . ورفض النادى دخول أية امرأة .. واحتجت النساء وتظاهرن أمام النادى . فاجتمعت إدارة النادى وقررت السماح لهن

بشرط أن يجلسن وراء ستار فلا يراهن أحد ! !.

وفى سنة ١٨٧٢ رشحت مواطنة نفسها لتكون رئيسة للجمهورية . ولم يكن لديها أمل فى النجاح . ولكنها أرادت أن تطبق الدستور . ولم تنشر صحيفة واحدة مقالاً أو رسمًا كاريكاتوريًا للسخرية من هذه المواطنة . وإنما قال الناس : فعلاً أنها تطبق الدستور ..

أما المرأة الجديدة فى البيت الأبيض فهى من هذا الطراز : جامعية .. تؤمن بالمساواة وحق المرأة فى الانتخاب . وأن تقف وراء حقها مهما أدى ذلك إلى السخرية منها .. بل المرأة الجديدة ترى أنه إذا كان العنف هو الذى سوف يساويها بالرجل ، فلن تتردد ولو ضحت بالرجل والأسرة والأولاد !

* * *

السيدة لوسى زوجة الرئيس هيز هادئة . ملامحها حلوة . وتسريحتها وقورة . وعيناها صافيتان كأنها السيدة العذراء . وهى سيدة متدينة . وأسرتها انشغلت كثيرًا وطويلاً بالإصلاح الاجتماعى . وقد ورثت لوسى أن طريق الخير فى الدنيا والآخرة يمر بالكنيسة .

أبوها مات فى سن مبكرة فقد كان فى طريقه إلى السوق يبيع بعض ما اشترى من العبيد . مات بالأنفلونزا .

وبرزت أمها نموذجًا للسيدة المتطورة التى اعتمدت على نفسها . ولها هدف واحد : تربية ولديها .. وابنتها العزيزة لوسى .. أما

الولدان فدخلا المدرسة . وأما لوسى فأصرت أن تدخل نفس المدرسة . ولم يكن مسموحًا بالتعليم المشترك . ورفضت المدرسة قبولها فتظاهر الناس ضد المدرسة . ودخلت . وكانت أول فتاة تتعلم فى مدرسة البنين .

ولما تزوجت لوسى رذفوردهيز ارتبطت به تمامًا . سارت وراءه فى كل سبل الحياة فى الجيش وبعيدًا عنه وفى السياسة وحتى البيت الأبيض . وكان زوجها يشجعها على العمل الوطنى وعلى تحرير المرأة . وكان يقول لها : هناك عذر واحد مقبول إذا لم أجد طعامى فى الصباح ، أن يكون لديك اجتماع تلعنين فيه الرجال ! .

وفى يناير سنة ١٨٧٧ حضرت اجتماعًا نسائيًا كبيرًا ولم يجد زوجها إفطارًا أو غداء أو عشاء . وكلما سأل عنها قيل له : إنها ماتزال تخطب ! .

ولما عادت إلى البيت بادرته بقولها : أسفة يا حبيبى لقد كان لابد أن تلعن كل سيدة زوجها مع ذكر الأسباب لذلك .. وكان عددهن كبيرًا ! .

فقال لها : وهل لعنت زوجك ! .

قالت : لم يعطنى أحد هذه الفرصة .. لقد قامت النساء بذلك ..

قال : فماذا قلن ؟.

قالت : كل واحدة لعنتك لأنك لم تكن زوجها ! ! .

وكان للوسى دور كبير فى الحملات الانتخابية لزوجها وهى التى شجعت غيرها من النساء على المشاركة فى الانتخابات والدعاية .

وقد رزقت لوسى بثمانية أطفال فى عشرين عامًا . وكانت تترك أطفالها الصغار وراءها وتجرى هى وراء زوجها . وكانت تساعد الجنود والضباط .. وفى إحدى المرات دق بابها أحد الجنود يطلب منها تركيب زرار فى قميصه . وأخرجت الإبرة بسرعة . وعندما علم الجندى أنها زوجة الكولونيل هيز اعتذر لها .

وعندما زارها أحد المحاربين القدماء فى البيت الأبيض طلب إليها أن توقع بالقلم على قميصه . ولكنها أخرجت الإبرة وكتبت إسمها : السيدة الأولى لوسى هيز ..

وفى الحرب عندما بلغها أن زوجها قد جرح بالقرب من واشنطن . تركت أولادها الصغار وذهبت تبحث عنه . وأهتدت إليه بعد خمسة أيام ! .

وعندما رشح زوجها للرياسة ، كانت أسبق إلى الدعاية الانتخابية وزيارة المواطنين فى بيوتهم . ووصفتها الصحف بأنها أجمل وأكثر شبابًا من كل سيدات البيت الأبيض .

وبالغت الصحف فى وصفها فقالت : إنها شديدة الذكاء وإنها تخصصت فى الدراسات السياسية من أجل زوجها ! .

وفى «يوم الشكر» قدمت للكثير من أصدقائها هدايا رمزية .

وقررت لوسى إدخال تعديلات أساسية على البيت الأبيض .

فهدمت جدرانًا وفتحت غرفًا بعضها على بعض .. وأضافت الأشجار والأسوار .. واعترض الكونجرس على هذه الأموال الكثيرة . فقامت لوسى بعرض أثاث البيت الأبيض للمزاد العلنى . واشترت بثمنه الباهظ أدوات جديدة . وأصبحت لوسى نموذجًا للزوجة الصالحة . بالضبط كما جاء فى القاموس : الزوجة الصالحة هى التى تطيع زوجها وترعى أطفالها وتحب جارها ولا تقسو على خادمها .

ولكنها فى غاية القسوة على نفسها . فهى تعمل ليلاً ونهارًا فى البيت الأبيض . وترى أن هذا العمل المتواصل ، هو أداء متواصل للواجب ، وإثبات لحق المرأة فى المشاركة ولو كان بلا مقابل ! فحب الناس هو أعظم مكافأة !..

ونشرت الصحف والمجلات صورها حتى أصبحت أشهر وجه فى أمريكا . وراحت شركات الإعلان تضع صورها مع السلع والمنتجات الجديدة ـ ولم تعترض على ذلك .

ووصفتها الصحف بأن لوسى هى أقوى سيدة أولى عرفتها أمريكا ـ فهى تعمل كثيرًا وتتوسط لدى الرئيس . وتحل المشاكل الاجتماعية والادارية بعلم وإذن الرئيس ..

وكانوا يقولون : إن الرئيس لا يستحق شيئين : الرياسة وهذه الزوجة !.

ولولاها ما نظر الناس إلى وجهه . فلم يكن بالرجل القوى . ولا بالقادر على اتخاذ القرار .

وكانت لوسى طويلة اللسان . وتجد متعة فى تقليد الشخصيات المعروفة . وكان أهل واشنطن يحبون فيها هذه الروح الساخرة .. ولكن السلك الدبلوماسى يكره ذلك . ويرى أن السيدة الأولى يجب أن تكون أكثر انضباطًا وتحفظًا .

والسيدة لوسى وزوجها لا يشربان الخمر. ولا يشجعان على ذلك . مرة واحدة هى التى قدمت فيها الخمر ، عندما أقامت عشاء لأحد النبلاء الروس . وبعد ذلك لم تظهر الخمر فى البيت الأبيض .

صحيح ليس معروفًا بالضبط كيف كان أثرها على الرئيس . ولكن بعض الأحداث تدل على أنها قوية .. وإن كان الواضح من جانبها الايجابى : هو نشاطها الاجتماعى ..

وكان أهل زمانها يصفونها بأنها السيدة الأولى .. الأولى ! .

* * *

وأختها لوكيريشيا أصبحت السيدة الأولى بعدها مباشرة . عندما اختير جارفيلد رئيسًا لأمريكا . وهو رجل عصامى ، وآخر رئيس لأمريكا يولد فى كوخ خشبى ! .

جاءت لوكيريشيا إلى البيت الأبيض سنة ١٨٨١ . وهى شخصية كريهة . وضعت طموحها السياسى فى سلة واحدة مع زوجها . وكتبت مذكراتها . ولم تكملها . أما مذكرات زوجها فكاملة . وقد عرفنا الكثير عن حياة لوكيريشيا مما كتبه زوجها ـ وكان قاسيًا نذلاً . وكان من الممكن أن تكون لوكيريشيا هذه زوجة سمسار أو رجل أعمال

جلف ، وتنجح . فهى وصولية انتهازية تقيم علاقتها بين الناس على المصلحة وعلى كم يدخل جيبها وكم يخرج منه .. ولكنها – مع الأسف – ظهرت فى عصر الملكة فيكتوريا .. أو العصر الفيكتورى الذى اشتهر بالتشدد والتعصب والقوالب الجامدة التى يجب أن يدخلها الإنسان ولا يخرج منها – فإذا كانت بنات الصين القديمة يضعن القوالب الحديدية فى أقدامهن ، لأن القدم الصغيرة جدًا من معالم الجمال . فكذلك فى عصر الملكة فيكتوريا : وضع الرأس فى قوالب من حديد ضرورة لأن ضيق الأفق والجمود من دلائل الأخلاق الكريمة . وفى ذلك العصر كانت السخرية بالغة من حرية المرأة وحقوقها ومطالبها بالمساواة والوقوف مع وضد الرجل ..

أما الرئيس جارفيلد فكان رجلاً وسيمًا لفت عيون النساء فى كل حياته . ولم يقاوم كثيرًا وأعجبته لوكيريشيا . وكانت له قبل ذلك قصة غرام فاشلة . ولكن إعجابه بلوكيريشيا كان عظيماً . هذا واضح فى مذكراته . أعجبه منها : طلاقتها وشجاعتها وأنها «دوغرى» فى كل شىء تقول للأعور : إنت أعور ، وإذا تضايق من ذلك تقول له : وأستطيع أن أجعلك أعمى أيضًا !.

تزوجها فى سنة ١٨٥٨ دون أن يعرف مشاعرها الحقيقية . ولكنها قدمت له مذكراتها فاكتشف أنها تحبه وإن لم تحسن التعبير عن هذا الحب . أو أنها اتخذت الحب مرحلة ، ويجب أن تتجاوزها إلى علاقة أخرى ..

تقول فى مذكراتها عن زوجها جيمس جارفيلد : إن قلبى لم يتم ترويضه لكى يكون مطيعًا لمن يحب . ولكنى سوف أجعله كما أريد .. وسوف أمزقه ألف قطعة إذا تحول إلى عابد عاشق لتمثال بارد جامد إسمه : الواجبات الزوجية !.

وفى السنوات الأولى من زواجها ظلت تعمل مدرسة . أما الزوج فبعيد عنها بسبب الحرب الأهلية .

وفى الاحتفال الرابع لزواجهما صارحها بقوله : اعترف لك بأن زواجنا فاشل ، ولكن لماذا لا نحاول من جديد ..

ثم اكتشفت الزوجة أنه على علاقة بأرملة فى نيويورك . وأنه يسافر لها من حين إلى حين ! واكتشفت أيضًا أنهما فى السنوات الخمس التى مضت ، لم يعيشا معًا إلا خمسة شهور .

وفى إحدى المرات سافرت سرًا إلى نيويورك لترى العاشقين وعادت سرًا وفى إحدى الليالى رآها فى غاية الأناقة والشياكة . فأدهشه ذلك .. فقالت : كل ما يعجبك تراه الآن أمامك .. ولكن شيئًا واحدًا لا أستطيعه هو أن أنظر إليك بعين واحدة !.

تشير بذلك إلى أن عشيقته فى نيويورك بعين واحدة !.

وتوالى موت الأولاد .. اثنان بينهما أسبوع .. ومات الثالث .

وكانت حريصة على أن تعلم أولادها اللغات الأوروبية الحديثة واليونانية واللاتينية أيضًا . وعندما انتقلا إلى البيت الأبيض ، وعرفها الناس ، قيل فى ذلك الوقت : فلاح تزوج فلاحة يعيشان فى البيت

الأبيض يحاولان نسيان ذلك !.

ولم يبق الزوج فى البيت الأبيض إلا بضعة أسابيع عندما أطلق الرصاص عليه فى ٢ يوليو سنة ١٨٨١ . وظلت لوكيريشيا إلى جوار زوجها . لم تبرحه ليلاً ونهارًا . وامتلأت كتب التاريخ باسمها وحياتها ووصف دقيق لكل ما قالت وفعلت فى الشهور الثلاثة التى سبقت الوفاة !.

لقد أصابته رصاصة فى عموده الفقرى ـ فكان ثانى رئيس يموت قتيلاً فى عشرين عاما .

وظهرت صورة لوسى ودموعها ، وصور أولادها ودموعهم ، وتقطع قلب أمريكا حزنًا على الأرملة الطيبة والأطفال الأبرياء . وتبرع لها الناس بربع مليون دولار ـ ما يعادل مرتب الرئيس فى سبع سنوات .

وكانت أول سيدة تشترك فى جنازة زوجها . وعندما سافرت بالقطار أصرت على أن ترفع الستار ليراها الناس . أن جاكلين كنيدى بعد ذلك بثمانين عاما تركت بقع الدم على فستانها حتى يرى الناس ما الذى فعلوه برئيسهم !.

مات الرئيس جارفيلد عن خمسين عاما ، وعاشت بعده ٣٦ عاما .

ومضت المرأة تتغير فى عينى الرجل .. فهو فى ذلك الوقت يفضل المرأة الممتلئة .. القوية الجريئة .. يفضل ذات الفساتين المشجرة صارخة الألوان . بارزة النهدين والردفين .. المرأة الأنثى . وهو يدل

على أن الرجل «رجل» ويحب المرأة الأنثى ..

وفى ستينيات القرن العشرين كتبت الأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار عن إعجاب الرجال بممثلة الإغراء بريجيت باردو . وقالت إن هذا دليل على شذوذ الرجال .. فهم يفضلون المرأة التى تشبه الولد .. تشبه الغلام .. فهى نحيفة صغيرة النهدين والردفين : لقد فضح الرجال أنفسهم .. كنا نظنهم رجالاً فإذا بهم غلمان !.

وعندما ذهب توت عنخ أمون إلى باريس استأنفت الأديبة الوجودية حكمها على الرجال فقالت : أنت لا تستطيع أن تفرق بين توت عنخ أمون والذين يتفرجون عليه .. أنهم غلمان أيضًا .. رجال صغار .. وأذواقهم مريضة .. شاذة .. فالرجل ليس رجلاً ولا المرأة أنثى .. إنهم الجنس «الثالث» ـ الذى هو أحط من الجنسين الأول والثانى !.

وبعد ذلك توالت فتيات يدرن البيت الأبيض : أشجع وأجرأ وأكثر حرية .. فبعد اغتيال جارفيلد جاء شيستر أرثر رئيسًا لأمريكا . وهو رجل أرمل وله ابنة صغيرة لا تستطيع أن تدير البيت الأبيض .

وأكمل الرئيس أرثر تجديد البيت الأبيض .. وباع ما تبقى فيه من كراكيب . وكان يقول : إننى أحاول تحويل البيت من ثكنة إدارية إلى بيت لا يخاف منه السكان ! .

واستدعى أخته مارى لتقوم بدور السيدة الأولى . وكانت موظفة . فتفرغت لخدمة أخيها وهى إبنة قسيس وزوجها قسيس .

وأدخلت النظام والوقار والكآبة أيضًا فى البيت الأبيض . فكان الناس يدخلون من كل زوجين اثنين ، كما كانت الحيوانات تدخل سفينة نوح !.

ولما أصبح جروفنر كيفلاند رئيسًا لأمريكا استدعى أخته لتدير البيت الأبيض وأخته أكبر مثقفة دخلت البيت الأبيض . وكانت فصيحة بليغة خفيفة الدم .. خطيبة . تتكلم عدة لغات أوروبية . ولها معرفة واسعة بالأدب والفن . وكانت تندهش كثيرًا جدًا كيف أن الناس يتثاءبون عندما تبدأ فى الكلام عن شعراء الإنجليزية والفرنسية والروسية .. أو عندما تتحدث عن أشهر اللوحات والسيمفونيات . وكانت تعتقد أول الأمر أن السبب هو أن صوتها غليظ . ولكن معاصريها يؤكدون أن صوتها هو الأنوثة الكاملة .. ولكن السبب الحقيق أنها أعلى مستوى من ضيوفها . ولم تكن الصحف تنشر شيئًا عن ذلك . وإنما الذى تنشره الصحف هو ألوان الفساتين والاشاربات التى تستوردها من فرنسا وأسبانيا . وكيف تتزاوج الألوان فى عينها والاشارب والحزام والورود فى طرقات البيت الأبيض .. وكيف أنها أفلحت فى نشر الأبيض والأسود فى ليالى واشنطون . فهى ترتدى الفساتين الحرير الأبيض والحزام الوردى .. أو الفستان الحرير الأسود والإشارب الأبيض ..

ولما فاتحها أخوها بأنه سوف يتزوج تركت الأبيض فورًا .. ولم تعد .

وقد أصدرت مجلة أدبية فى شيكاغو وظلت تدرس التاريخ فى الجامعة . وتوفيت سنة ١٩١٨ وهى تشرف على مرضى الانفلونزا فى أحد المستشفيات !.

وتزوج الرئيس كليفلاند فتاة عمرها ٢١ سنة ـ أصغر منه بسبعة وعشرين عاما . اسمها فرانسيس . وكان الناس يتوقعون أن يتزوج أمها . وكانت المفاجأة . وقال هو فى تفسير ذلك : بل وجدت فيها كل جمال وذكاء أمها !.

وفرنسيس قرأت كثيرًا وطويلاً وعميقًا ولما دخلت البيت الأبيض ، أعلنت بعد شهور أنها تفضل حياتها الأولى ألف مرة ..

وقد لاحظت فرنسيس أن تسريحة شعرها هى أهم مايلفت نظر الرجال .. حتى زوجها كان يقول لها : إن خصلة شعرك تتدلى هنا أو هناك تغير ملامح وجهك وتزيدك جمالاً ..

وقد اختارت فرانسيس لفساتينها اللون الأبيض .. فكانت تبدو ملاكًا . أما مصممات الأزياء فكن يتفنن فى تفصيل الفساتين البيضاء . وكانت تقول : أحب أن أظل عروسًا أطول فترة ممكنة !.

وهى أيضًا لا تشرب الخمر . ولا تفرض ذلك على أحد !.

أما زوجها فكان يشرب كثيرًا . ويصبح عصبيًا عنيفًا غليظًا بعد ذلك .. وانتشرت الشائعات فى واشنطون . يقولون : إن زوجها يغنى ويرقص عاريًا فى البيت الأبيض بعد أن يسرف فى الشراب .. وكانت ترد على ذلك بقولها : بل إنه رجل هادئ ينام كالطفل .

وأنها تتمنى لكل النساء مثل سعادتها !.

وبعد أربع سنوات عاد للمرة الثانية للبيت الأبيض . وفى الفترة الرئاسية الثانية ولدت أول بنت فى البيت الأبيض .

وتوفى الرئيس كليفلاند سنة ١٩٠٨ عن واحد وسبعين عاما .

وكانت فرانسيس أول من تزوجت فى البيت الأبيض .. وأول من أقامت فى البيت الأبيض فترتين رئاسيتين غير متصلتين . وأول من ولدت فى البيت الأبيض .. وأول أرملة رئيس تتزوج .. .

وقد دخلت فرانسيس التاريخ لأسباب أخرى : أنها كسيدة أولى كانت نموذجًا للبساطة والتواضع رغم أنها كانت فى العشرينيات .

وهى أول سيدة أولى تقول : إن زوجى له مزايا عظيمة جعلته رئيسًا على بلاده ، ولكن مزاياى كلها فى عينى زوجى فقط .. ولذلك لست إلا السيدة الأولى ، ولم أكن السيدة الأولى !.

* * *

وجاءت كارولين زوجة الرئيس هارلسون إلى البيت الأبيض (١٨٨٩ – ١٨٩٢) وكانت اهتماماتها فنية . فقد تفوقت فى الفنون والموسيقى ولم يتوقع لها أحد أن تكون السيدة الأولى .. وإنما المدرسة الأولى .. العازفة الأولى .

ولكن مواهبها الفنية هذه وضعتها مع أحذية الشتاء أمام البيت الأبيض . وتفرغت للبيت الأبيض . وكانت أحسن مدبرة للبيت الأبيض وأحسن ست بيت . والذين كتبوا عن حياتها نقلوا عنها أنها

قالت : إن دورى التاريخى هو أن أكون إلى جوار زوجى .. فى ظله .. ومهما حاولت ، فسوف أبقى زوجة الرئيس . وليس هذا بالمكان التاريخى المتواضع !.

وأصبح تعديل البيت الأبيض من الداخل والخارج من أهم أهداف السيدة الأولى .. فقد أضافت كارولين جناحًا للبيت الأبيض . وأدخلت الكهرباء وحفرت الجدران والسقف .. وكانت أول من علقت المصباح فى حديقة البيت الأبيض ..

وانتشرت المهاجرات فى المدن الأمريكية . وكن يعملن فى البيوت أكثرهن من الإيطاليات واليهوديات .

وتعالت الصيحات بأن تعمل المرأة المتعلمة . فقد كانت تتعلم وتنتظر العريس يدق بابها أما فى ذلك الوقت فكان العلم من أجل العمل شعارًا لكل امرأة !.

والمرأة العاملة هى النموذج ..

وست البيت أيضًا .

أصيبت كارولين بالسل وماتت قبل انتخابات الرئاسة فى سنة ١٨٩٢ .

وسوف يذكرها التاريخ على أنها أول من اشترى «الأطقم الصينية» للبيت الأبيض .. وجعلتها أشكالاً وألوانًا وحديث العاصمة الأمريكية ..

وسوف يذكرها التاريخ على أنها جمعت التبرعات لبناء معهد

طبي ، تتعلم فيه المرأة والرجل معًا .. واهتمت العاصمة الأمريكية بالسفرة : الأطباق الصينية ـ لابد أن تكون صينية ـ والملاعق والسكاكين الفرنسية ..

وعاد الرئيس كيفلاند إلى البيت الأبيض مرة أخرى . ولكنه فى هذه المرة كان ينتقل بالقطار مع زوجته إلى جميع جوانب الولايات الأمريكية ..

وظهر الذوق العام واضحًا فى الحياة الاجتماعية فى العاصمة فالرجال يفضلون المرأة رقيقة ست بيت ، ويكرهونها مسترجلة تطالب بالمساواة وتخطف الحقوق من أنياب الرجال ، ثم تركله من فوق السرير ! .

* * *

ودخلت البيت الأبيض السيدة الأولى ايدا ماكنلى . كانت قوية الشخصية . ولكن بسرعة هائلة تدهورت صحتها . فقد ماتت أمها ومات اثنان من أولادها ولم تسترد صحتها بعد ذلك . أصابها الاكتئاب حتى الموت .. بل تعقدت صحتها العقلية وأصيبت بالصرع . ثم أصيبت بالتهاب وريدى . وكانت عاجزة عن الحركة ..

أبوها رجل غنى جدًا يملك بنكًا .. وعندما تزوجت أهداها هى وزوجها قصرًا بحديقة واسعة فكان زواجها خرافى الضيوف والموسيقى والغناء والرقص والهدايا ..

ورغم مرضها المبكر . فإنها لم تتوقف لحظة عن آداء واجبها

كسيدة أولى . وكانت ترفض أن يساعدها أحد . وإذا أصابتها نوبة الصرع ، فإن زوجها قد أعد فوطة إلى جواره ليضعها على وجهها عندما تصطك أسنانها .. وبعد لحظات يرفع الفوطة عن وجهها ..

وقد أكسبته هذه العناية بزوجته صفة الرجل القديس - أى الرجل الذى تحمل هذا الغم والاكتئاب والصرع دون أن يشكو أو يلعب بذيله - وإن كانت الشائعات تؤكد أن ذيله يلعب فى بيوت كثيرة !.

وكانت زوجته لا تشرب ولا تحب رائحة الدخان . فكان إذا أراد أن يدخن أشعل سيجارة بعيدًا .. وكذلك الضيوف ..

ولم تسلم أبدًا من ألسنة طويلة جارحة .. فوصفتها إحدى سليطات المجتمع بأنها : إذا جلست وضعت المخدات وراء ظهرها ، وتضع عطورًا خانقة فى ملابسها ، أما يدها فإنها لا تقوى على حمل خواتمها الماسية الثقيلة ولذلك إذا صافحت أحدًا فإنها ترمى يدها فى يده ثم لا تنطق بكلمة كأنها ماتت !.

* * *

وعلى طريقة الصحف الأمريكية فى البحث دائمًا عن فضيحة .. أو كارثة نشرت بعض الأوراق الخاصة للسيدة ايدا ماكنلى - وأعلنت أنها على استعداد لأن تعرض هذه الأوراق على أى قاض أو محام إذا تشكك أحد فى صحتها .

تقول ايدا ماكنلى :

ليس أسخف من أن نتزوج بسبب الحب ، الا الطلاق بسبب الكراهية .. فالزواج ليس إلا التقاء مصلحتين !.

* * *

الزوجة لا تعرف قيمة الرجل إلا بعد الطلاق منه !.

* * *

والمرأة تتزوج عادة لأنها لا تريد أن تعمل !.

* * *

نصيحة : لا تثق فى الزوج إذا ابتعد ، وفى الأعزب إذا اقترب !.

* * *

منتهى الصراحة : الزوج هو آخر ما تبقى من الرجل بعد أن فقد أعصابه !.

* * *

الحب : ملعب .

الزواج : مقلب !.

الطلاق : مطلب !.

* * *

وفى الترجمة الفرنسية لهذه المعادلة :

الحب : بداية !.

الزواج : نهاية !.

الطلاق : غاية !.

أما النكتة التى أضحكت العاصمة الأمريكية فهى أن الصحيفة قد كشفت للقراء أن هذه الكلمات وغيرها قد كتبها الرئيس وأعطاها هدية للطاهى الأول فى البيت الأبيض .. واقترح عليه أن يبيعها بعد وفاته !.

٦- المؤرخون يبحثون عن السكاكين والأطباق التى اختفت من البيت الأبيض

بدخولنا القرن العشرين أصبحت السيدة الأولى مثل موظفة الاستقبال فى فندق كبير جدًا .. فندق له باب مفتوح على العالم والباب الثانى على حديقة البيت الأبيض .. فندق لا ينام فيه أحد ، ولا ينام أحد إذا لم يدخله ويصافح السيدة الأولى ويلتقط ابتسامة عابرة من صاحب البيت . فأمريكا دخلت فى معارك مع العالم كله معارك من أجل السلام ومعارك من أجل أن ترث بريطانيا والدول الاستعمارية القديمة . ولذلك كانت أعباء السيدة الأولى كثيرة جدًا . وكان عليها أن تعرف نوعيات من كل الناس ومن كل الأذواق . وأن تصافح وتعانق وأن تقول كلمة حلوة حتى لا يغضب أحد من السيد الرئيس .

فى يوم من الأيام وقف الرئيس تافت يصافح الضيوف فى عيد الشكر ، فبلغ العدد سبعة آلاف . أما زوجته هيلين فكانت أكثر ذكاء فقد أمسكت باقة من الورد فى يديها ، وكلما اقتربت منها واحدة أو واحد ابتسمت وانحنت ولكنها لم تصافح !.

أما أقسى درجات العذاب للسيدة الأولى فى ذلك الوقت فهو

لقاؤها مع زوجات الوزراء . تقول هيلين تافت فى مذكراتها : الموت ولا مقابلة زوجات الوزراء معًا .. أعوذ بالله من الكذب ومن الحقد ومن الغيرة . فلا واحدة تطيق الأخرى ، ولا واحدة لا تحقد على زوج الأخرى .. زوجة وزير البحرية تقول : ومن التى تسافر كزوجة وزير الخارجية .. كل يوم فى بلد كل يوم حفلة كل يوم هدية .

وتقول زوجة وزير البحرية : أنا لا أطيق البحر ولا تكاد البارجة تهتز حتى يغمى عليّ .. فسعادتى فى أن أكون بعيدة طول الوقت عن زوجى .. وتقول زوجة وزير الزراعة : ما هى السعادة فى أن تسمعى زوجك يتحدث عن القمح وعن العجول والطماطم والسوس والكلاب والجراد .. زوجة رئيس المحكمة العليا ترى أن اليوم الذى سيقف فيه كل الوزراء أمام زوجها قريب جدًا !.

تقول السيدة الأولى هيلين تافت فى مذكراتها : كان من أمالى أن ألغى هذا اللقاء الذى هو عذاب فى قرف فى كذب فى نفاق .. إن الرجال إذا التقوا معًا فهم يبعثون على الاحترام والاعجاب والاشفاق عليهم من أعمالهم ومن زوجاتهم !.

بظهور السيدة هيلين تافت ظهرت الحكومة التى يصفها المؤرخون بأنها حكومة «البلوزات» ـ أى أثر السيدة الأولى فى حكم أمريكا عن طريق سيطرتها على زوجها .

لقد عرفنا كيف كان البيت الأبيض يدار ، من خلال مذكراتها . فهى مثقفة جدًا طوية اللسان . كتبت صفحات مسلية

عن اختفاء عدد من الأطباق الصينى والملاعق والسكاكين من البيت الأبيض ـ ضاعت أيام الرئيس ماكنلى. ولا أحد يتهمه لا هو ولا زوجته .. ولا أحد فى البيت الأبيض. ولكنها عادة من عادة الضيوف أن يضعوا شيئًا من البيت الأبيض فى جيوبهم .. وقد تعب المؤرخون فى البحث عن مسار هذه الأدوات .. ومن عشرين عامًا فقط عثروا على طبق صينى فى مدينة سيدنى باستراليا معروض فى مزاد علنى. قال صاحب الطبق إنه اشتراه من هاواى !.

* * *

ثم جاءت إلى البيت الأبيض السيدة أديث روزفلت. كانت قد رفضت الزواج منه عدة مرات. كانت صغيرة وهو أيضًا. وقد تنقل فى وظائف كثيرة فى البوليس والبحرية وعمل محافظًا لنيويورك فعرف الرئيس وعرفت هى أيضًا عددًا كبيرًا من الناس. وكانت حريصة على ألا يبدد حياته فى «العطاء» ـ أى فى أن يعطى نفسه للناس .. فالناس لا يستحقون كل هذه التضحية. لقد سمعتهم يشتمون الرئيس من وراء ظهره، فإذا رأوه انحنوا على يديه .. ولو أعطاهم الفرصة لقبلوا جزمته .. فأيقنت أديث أن الناس كلاب. وكانت على الرئيس حراسة شديدة. كانت تضايقه. ولكنها أصرت على أن تتلقى قوات الأمن التعليمات منها وحدها .. وكانوا يسخرون منها ويقولون إن تحت سريرها عددًا من رجال الأمن، ليربطوا الرئيس إذا حاول أن يخرج

دون إذن وفى إحدى المرات ـ كما تقول فى مذكراتها ـ دار الحوار بينهما :

ـ الناس يحبوننى !.

ـ لا أحد يحب أحدًا !.

ـ من أين لك هذا الكلام ؟.

ـ ومن أين لك أنت ؟.

ـ أنتِ سيئة الظن بالناس !.

ـ وأنتَ لا تفهم الناس .. الناس اختاروك لأنهم يفهمون من الذى يستطيع أن يموت من أجلهم . فهم يفهمون مصلحتهم ، وأنت لا تفهم ذلك !.

ـ أنت أحق منى بأن تكونى رئيسة للجمهورية !.

ـ وأنتَ لا تصلح سيدة أولى !.

وكان عندها ستة من الأولاد . وهذه هى مشكلتها الثانية . أما المشكلة الأولى فهى الإنفاق على البيت الأبيض . فالمرتب صغير . والمظاهر مكلفة جدًا . والأولاد لا يشبعون . ولم تتمكن من ضبط وربط الأولاد فهم يلعبون الكرة ويطاردون القطط والكلاب فى البيت الأبيض ويتزحلقون على الدربزين . وفى أحيان كثيرة تسمع الرئيس يصرخ : يا ولد .. أنت وهو .. سكتوا الأولاد حتى نتمكن من بحث مشكلة روسيا واليابان ..

وفى إحدى المرات كان الرئيس يتناول الغداء مع صحفى عالمى

فقال له : كنت أريدك أن ترى الكانجرو الصغير الذى عندنا ..

فما كان من أحد أولاده إلا أن أخرجه من جيبه .. وتركه يقفز فى غرف البيت الأبيض !.

وكانت السيدة أديث تملك ثلاثة فساتين. ولكن كانت تطلب من الصحفيين أن يقولوا إن لديها عشرة !.

وكانت هى التى تذكر ألوان الفساتين لكى تنتشر أخبارها فى الصحف والمجلات . وهى التى قالت إنها تضيع فلوسها على الفساتين . فقد أنفقت فى أحد الأعوام ٣٠٠ دولار على فساتينها المستوردة من باريس !.

ونشرت الصحف صورها وأخبار أولادها وأسرتها وزوجها ـ وفى ذلك الوقت لم تكن تنشر الصحف صورة المرأة إلا فى مناسبات ثلاث : عندما تولد أو تتزوج أو تموت .. ولكن استطاعت أديث روزفلت أن تكون حديث الشعب الأمريكى .

وكانت بذكائها وخبثها معًا تريد أن تعرف ما لدى زوجات الوزراء من مجوهرات وفساتين . فكانت تطلب من كل واحدة أن تكون ملكة جمال يومًا ، فتأتى بكل ما لديها من مجوهرات واكسسوارات لتراها زميلاتها ، ولتعرف هى ما الذى يأتى به الوزراء لزوجاتهم ..

والسيدة أديث روزفلت لها ذوق فنى رفيع . وقد شاركت فى كثير من المشاكل القومية وكان لها رأى . وكانت تطلب من زوجها أن

يساهم بالحل . ولها عبارة مشهورة : السيدة الأولى ليست هى السيدة الأولى فى كل مكان .. فى بيتها ليست كذلك .. وفى كثير من الأحيان تقبل قدمى الرئيس لكى يسمعها ، ويسمعها أحيانًا !.

تقول أديث روزفلت : اعطنى مليون رجل أتحدث إليهم ولا تعطنى مائة امرأة .. إعطنى مائة امرأة أجلس إليهن ، ولا تعطنى اثنتين من زوجات الوزراء ــ ولا دقيقة واحدة !.

مات الرئيس تيودور روزفلت سنة ١٩١٩ وعاشت هى بعده ثلاثين عامًا ..

* * *

كان الرئيس تافت يصف زوجته هيلين بأنها أذكى وأعقل امرأة عرفها فى حياته . وكان قبل أن يتزوجها يبعث إليها بالورود وهو يقول لها بالألمانية : أحبك ــ بكل لغة !.

وعندما تقدم للزواج منها ، رفضته .. ثم تقدم مرة أخرى ، فأكدت الرفض . وكانت تقول : أحب الرجل الطموح ولكن لا أحب الرجل الذى يتزوج الطموح ثم يطلقنى !.

وهى من أسرة من البرلمانيين والقضاة . وهى تحب الظهور . وتحب العلاقات العامة . وأن تكون ملتقى أناس كثيرين . أما هو فعكس ذلك تمامًا . يحب أن ينظر من بعيد . أن يتفرج . أن يتأمل . أن يستمع .

عندما زارت البيت الأبيض وهى فى السادسة عشر من عمرها

قالت : سوف أكون السيدة الأولى عندى هذا الشعور ولا أعرف كيف يمكن تحقيقه . وسوف أضيف جناحًا هنا . وحديقة هناك . وسوف أجعل الرجال الذين يعملون فى البيت أكثر أدبًا فلا ينظرون إلى المرأة فى عينيها . أنا على يقين من ذلك !.

وعندما دعاه رئيس الجمهورية ليعمل فى الفلبين . تردد . ولكنها قفزت من فراشها وهى تقول : هذه فرصتك لكى ترى العالم .. هذا نداء القدر لك . انهض . لتذهب فورًا .

وبقى فى الفلبين أربع سنوات حتى صار حاكمًا عامًا . وقد تدرب هو وتدربت هى على إدارة شئون الحكم ، وعلى مواجهة الناس .

وكانت تقول له : بعد نجاحك فى الفلبين ، ليس من الصعب أن تحكم أمريكا !.

وكانت إذا تعبت سافرت إلى أوروبا وحدها . شهرًا وشهرين . وتعود ومعها الفساتين والمجوهرات وأخبار المجتمعات الأوروبية ـ أنها فرصة لتبدو مختلفة عن نساء العاصمة الأمريكية . وأصبح تافت وزيرًا للدفاع .

واختير ليكون رئيسًا للمحكمة العليا . اعترضت أمه . وكذلك زوجته .. ومن الأسرار التاريخية التى لا نعرفها أن زوجته ذهبت للقاء الرئيس روزفلت . ودام اللقاء نصف ساعة . بعدها أعلن الرئيس : لقد أقنعتنى هيلين تافت !.

ثم رشحوه لرياسة أمريكا .. نجح . وبعثت فساتينها إلى الفلبين ليجعلوها « مشغولة » تناسب يوم حلف اليمين والانتقال إلى البيت الأبيض . وجاء مع الفساتين عدد من الفتيات الصغيرات يرتدين الفساتين المشغولة أيضًا . وتساءل الناس : من هؤلاء ؟ وكانت تقول : ضيوف من آسيا . ولما تساءل الناس : عبيد ؟! فكانت تقول : بل أمراء من الفلبين جاءوا يشهدون تتويج زوجها ملكًا على الأمريكان !.

وأول خروج لها على التقاليد أنها ركبت السيارة إلى جوار زوجها إلى البيت الأبيض . ورفعت يدها بالتحية .

أما الرئيس تيودور روزفلت ، فلم يكن فى انتظار الرئيس الجديد ، ولا حتى رافقه إلى السيارة . وكان الناس ينتظرون الرئيس الجديد ، فلاحظوا من أول دقيقة أنه مختلف ، وأن زوجته أكثر اختلافًا عن السيدة الأولى التى خرجت من البيت الأبيض .

أول ملحوظة : أن السيدة هيلين تافت قالت لكبار الخدم : زراير الجاكتة ليست من شكل واحد .. ولا الخيوط من لون واحد . لا تعد إلى البيت الأبيض قبل أن تحترم قدرة السيدة الأولى على ملاحظة أصغر الأشياء فى بيتها !.

ولم يكن الرئيس تافت سعيدًا بالوظيفة الجديدة . فهو يتحرك كثيرًا . ثم أن حالته العصبية جعلت وزنه يزداد . وكان طويلاً ، فأقاموا له حمامًا أكبر وأطول .

وبسرعة توالت المشاكل على السيدة الأولى . فقد أصيبت بجلطة بعد شهرين من دخولها البيت الأبيض . فعجزت عن الكلام . فاعتمدت على أخواتها وزميلاتها فى الدراسة لادارة البيت الأبيض . وقد سببت مشاكل كثيرة للرئيس ، فقد اختفت وانزوت . ولم يعد أحدا قادراً على عمل شىء فى البيت الأبيض . ولم يجد أحداً يتحدث إليه . وتحسنت صحتها بعد وقت طويل . ولما عرضوا عليه أن يرشح نفسه للرئاسة مرة ثانية رفضت هى . وقاومت . وقالت : الآن يصح لك أن تتقاعد وأن تعيش هادئاً ، فقد عملت كل ما تستطيع وكل ما يريح ضميرك . وليس بعد ذلك شىء إلا أن يقتلوك أو يصيبوك بالشلل !.

ولما احتفلت بالعيد الفضى لزواجهما تكدست الهدايا الفضية من كل لون ووزن . قالت هيلين تافت : لم أكن أعرف أن فى الدنيا مثل هذه الكميات من الفضة .. ثم أننى لا أعترض على سخاء الناس !.

ما رأى الرئيس تافت فى زوجته أنها أحسن ناقد وأقسى ناقد أيضًا . ولكن المشكلة معها دائمًا : أنه لا يفرق بين نقدها الجيد ونقدها العنيف ، فهى فى حالة غضب دائمًا !.

ويقول : ولكنها لم تكن كذلك عندما كنت أقبلها فى بداية حياتنا الزوجية .. كانت عنيفة ثم صديقة .. وهى الآن ملاكم لا يقتنع بما دون الضربة القاضية للرئيس قبل أن يفعل ذلك بقية الشعب الأمريكى !.

وتحررت المرأة الأمريكية . وراحت تطالب بمزيد من التحرر من قيود الرجل . وسبقتها إلى ذلك المرأة الأوروبية . ولم يعد أحد يناقش إن كان من حق المرأة أن تعمل ، وإذا عملت أن تستقل بحياتها . لقد أصبحت هذه حقيقة مؤكدة . وأصبح من معالم اهتمام المرأة أن تتظاهر ضد الرجل وضد الحكومة . وأن تحتشد النساء حول البيت الأبيض .

وانتقل إلى البيت الأبيض الرئيس وودرو ويلسون . أستاذ جامعى وعميد إحدى الكليات . وهو أول رئيس حاصل على الدكتوراة . وهو رجل يحب النظام والقراءة والبحث والتأمل . ويكره السياسة والحياة العملية . ويكره المرأة أيضًا . أو لا يحترمها . ويرى أن المجتمع العلمى والسياسى من الممكن أن يكون أفضل بغيرها . وهو لم يستمع إلى امرأة قط تتكلم ، ولا ناقش واحدة ـ ولا أحس أن هناك سببًا معقولاً لذلك .

ولما عرف زوجته ألين كتب لها خطابات من روائع الأدب . هذه الخطابات مزيج من الأحاديث الغرامية والأبحاث العلمية . ولكنه كان صادق الحب . وتزوج . وأنجب ثلاث بنات . وكانت زوجته تترجم له الكتب الألمانية والصحف . وتساعده كثيرًا . ولكن أهم ما يشغل زوجته هو رسم اللوحات وصناعة التماثيل . وقد قرأت كثيراً فى الفن . وأقامت المعارض للوحاتها . وباعت هذه اللوحات وحولت ثمنها إلى الجمعيات الخيرية .

ولها رأى : أن الفنانة لا يصح أن تتزوج ــ لأن الفن يستغرقها . وأعمال البيت وتربية الأولاد تبتز حيويتها .. أما الرجل الفنان فمن الواجب أن يتزوج ليتفرغ لعمله ولتطوير نفسه ، ويترك الأعمال الأخرى لزوجته !.

ولهذا السبب كانت تتعذب فى البيت الأبيض . فهى حريصة على أن ترسم ، وحريصة على أن تكون السيدة الأولى . وكانت تهرب من الفن إلى إدارة البيت : ومن إدارة أعمال الرئيس إلى لوحاتها .. ومن البيت الأبيض واللوحات ، تحطمت أعصابها .

إحدى بنات الرئيس أَلَّفَت كتاباً عنه فقالت : إن أبى لم يكن كئيبًا . بل كان يحب الضحك والمرح ويروى الشعر العريان ويضحك له . وكان ينظم الشعر الفارغ المضحك . وكان يدعى أنه قرأ ذلك فى كتب قديمة . والحقيقة أن هذا الشعر «الحلمنتيشى» من نظم الرئيس ! ولكن أمى لم تفلح فى أن تدخل البهجة على حياة الرئيس . ولما انتقلت ألين ويلسون إلى البيت الأبيض كانت بناتها قد كبرن . وكل واحدة استقلت بحياتها . واحدة مطربة أوبرا . والثانية تعمل مع زوجها فى أوروبا . والصغرى أقربهن شبهًا بالأم ، وأكثرهن حبًا للفن . ولذلك اتجهت إلى العمل فى تصميم الاعلانات التجارية .

ورفضن جميعهن أن ينتقلن إلى الضوضاء فى بيت الرئيس !.

وكان الشاغل الأول للسيدة الأولى ألين ويلسون هو تحسين حال الزنوج الأمريكان . وقد نجحت كثيرًا . وكذلك ساعدت المرضى

والمعوقين والعميان ـ أى الانشغال بالجانب المظلم من أمريكا .

وماتت ألين سنة ١٩١٤ بعد أن حققت هدفها : أن يعيش الرئيس حياة أهدأ . وأن يظل شجاعًا .

وعندما عرض عليها الرئيس فى إحدى المرات أنه سوف يتحدث إلى الكونجرس مباشرة ـ وكان ذلك خروجًا على التقاليد ، قالت له : ولا يهمك أننى أدخر لك مفاجأة غير تقليدية .. سوف أجلس بين الأعضاء وسوف أقف وأصفق عند دخولك المجلس !.

وبعد وفاتها كان ما يزال أمامه ثلاث سنوات فى البيت الأبيض . ولم يجد أحدًا يدير له حياته الاجتماعية . فبناته بعيدات وحريصات على البقاء بعيدًا . فطلب من إحدى قريباته أن تبحث له عن عروسة . وجدتها . سيدة غنية تملك محلات لبيع الماس والذهب . فى غاية الشياكة والأناقة تستورد فساتينها من باريس . وعندها سيارة تقودها فيتوقف المرور ليتفرج عليها الناس فكانت تخرج يدًا ارتدت قفازًا مشغولاً بالترتر تحيى الواقفين على جانبى الطريق .

وهى تقف على الجانب الآخر المقابل والمختلف عن السيد الرئيس . ليست لها اهتمامات سياسية . ولا يهمها ما الذى يلقاه السود والصفر فى بلادها . عاشوا أو ماتوا ـ لا يهم . هذا قدرهم . ثم انها محدودة التعليم تمامًا . نصف متعلمة . ولكن عقلها كبير . وذكاؤها حاد . والذى تفهمه فى دقيقة يحتاج الرئيس إلى ساعة ليستوعبه . وكان إذا عرض عليها مشكلة سياسية كان رأيها هو الأصح . وكان

الرئيس يمسك رأسها ويقول : لو انتقل عقلك إلى رأسى ، لحللت مشاكل أمريكا وأوروبا معًا . ولكن كل منا فى غير موضعه !.

وكان الرئيس يلتقى بها سرًا قبل الزواج والناس يتهامسون . والصحف تهمز وتلمز . وكان المستشارون يقولون له : إن زواجك من هذه السيدة بسرعة ، يؤكد أنك كنت على علاقة بها قبل أن تموت زوجتك .. وهذا سوف يجعل فرصة نجاحك لفترة ثانية أمرًا «مستحيلاً» !.

وقد نقل الرئيس إلى «أديت» ـ الفتاة التى سوف يتزوجها ـ ما يتردد فى العاصمة . فقالت له : وما رأيك أنت ؟.

قال : أريد أن أسمع رأيك !.

قالت : إن رجلاً لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ، كيف يدافع عن الشعب الأمريكى . أريد أن أعرف رأيك !.

قال : سوف أتزوجك .

قالت : وأنا أيضًا ، حتى إذا لم أكن أحبك .. ولكنى لن أضيع عليك هذه الفرصة لكى تؤكد إرادتك وشجاعتك فى دفاعك عن نفسك !.

وتزوجها فى ديسمبر سنة ١٩١٥ ..

وجاء فستان الزفاف من باريس ، حديثًا للعاصمة ولأمريكا كلها .. وتوالت مظاهرات المرأة فى كل مكان . المرأة تطلب بحقها الكامل فى الانتخابات فى كل الولايات الأمريكية . والرئيس لا يريد

ولا يحب المرأة . وقد اعتدى البوليس على المرأة .

وأشاروا على الرئيس أن يدعو عددًا من قيادات المرأة إلى فنجان شاى . ولما عرفت زوجته قالت له : لو كنت واحدة منهن لرفضت فورًا . إنها فرصة لتثبت المرأة أنها أقوى .. فليست مصافحة الرئيس ولا شرب الشاى هو الحل !.

وكانت المفاجأة : لقد رفضت قيادات المرأة دعوة الرئيس !.

وألقى القبض عليهن . وأدخلهن السجن .

وكانت المفاجأة . لقد ذهبت السيدة الأولى إليهن فى السجن . وحتى لا يعتدين عليها أبلغتهن أنها جاءت لزيارتهن كامرأة ، وليست كالسيدة الأولى ، وجلست إليهن . ومدت يدها تأكل طعامهن . وروت لهن متاعب البيت الأبيض . وتعاسة الحياة فى هذا السجن الرقيع .. وأنها كانت سعيدة بمحلات المجوهرات التى تملكها وتديرها .. فتأثرت إحداهن لدرجة البكاء ؟!.

ثم اقترحت ضم عدد من الرجال إليهن ـ وخاصة رجال الدين .

وانتهت الحرب العالمية الأولى :

وقامت المرأة بكل أعمال الرجل فى الحقول والمصانع والمؤسسات . وكانت فى غاية الأقتدار والكفاءة والصبر.

ولذلك كان لابد أن تنال المرأة حقوقها ـ مكافأة على دورها فى غياب الرجل فى القتال .

أما ابنته الكبرى فعملت فى الصليب الأحمر.. وأما ابنته الثانية

فأصبحت زوجة لوزير الخزانة تشارك فى مساعدة الفقراء .. وابنته الثالثة عملت فى الصليب الأحمر وساعدت على نقل الجرحى واطعام المرضى ، وشغل التريكو.

وكانت السيدة أديث ويلسون أول من اعترفت بأنها من الهنود الحمر .. وفى كل مرة كانت تدشن سفينة حربية كانت تختار لها اسمًا هنديًا .

وعندما جفت الدماء فى أوروبا وتلاشى الدخان قرر الرئيس ويلسون أن يساهم فى بناء السلام فى أوروبا . ورافقته زوجته . وفى إحدى هذه الرحلات أصيب بشلل أعجزه عن الحركة والنطق . وكانت إلى جواره هى التى تدير البيت الأبيض وأمريكا أيضًا ـ إنها شجرة الدر الأمريكية ! أما القرارات فكانوا يعرضونها عليها ثم تعرضها هى على الرئيس وتجعله يوقع أو هى التى كانت توقع عليها ..

ولما جاءه وفد من الكونجرس ليرى خطورة حالته الصحية ، خوفًا على البلاد . فلم ينص الدستور على ما الذى يمكن عمله إذا عجز الرئيس عن الحكم .. ذهبوا ليتأكدوا من ذلك ـ فغضبت السيدة الأولى أديث ويلسون . ورأت فى ذلك شماتة واستعجالاً لنهايته . فأدخلتهم عليه . فوجدوه جالسًا . وقد أسند ذراعه إلى عدد من المخدات . واستطاع أن يتحدث وأن يداعبهم . فقالوا له : سيادة الرئيس : نحن نصلى من أجلك !.

فكان رده أعنف : تصلون من أجلى أو من أجل الذى بعدى؟!.

ولما حاول آخرون أن يدخلوا عليه ، منعتهم . وقالت : لا تنسوا أن هذا بيتى وأنه زوجى قبل أن يكون رئيسًا لأمريكا . وواجبى يبدأ عند باب هذه الغرفة !.

وظلت حماية أمن الزوج وراحته هى الهدف الأوحد لكل زوجات الرؤساء .

فزوجة الرئيس ريجان كانت تقول : إن زوجى يشبه رجلاً يبيع العربات القديمة ، ومن واجبى أن أمسحها من الداخل !. .

وكما أن السيدة أديث ويلسون لم يكن لها أى دور سياسى فى حياته ، امتنعت عن أن يكون لها دور بعد وفاته ـ فقد عاشت بعده ٣٨ عامًا . حتى عندما طلبوا إليها أن تساهم فى الحفلات الدعائية من أجل المرأة رفضت . وهى تقول : كنت سيدة غير عادية ولم أنجز شيئًا ، فكيف أنجح وأنا امرأة عادية مثل مئات الملايين . انتهى دورى !.

ولم تنفصل السيدة أديث ويلسون عن عملها الأصلى . ولا انشغلت عنه لحظة واحدة . وفى بعض الأحيان كانت تقول لزوجات الوزراء إذا وجدتِ فى أصبع واحدة خاتماً من الماس : أربعة قراريط ونصف ؟!.

فيكون الرد : بالضبط ..

ـ مائة دولار ؟.

ـ بالضبط .

ولكن عندى يباع بتسعة وثمانين فقط ..

وفى إحدى المرات زارتها زوجة أحد السفراء وقد ارتدت عقدًا فخمًا جميلاً لفت العيون إليه . ولكنها تقدمت ببرودة تاجر سمسار . ولمسته بأصابعها . وهو حول عنقها . لتقول : ضحكوا عليك .. إنه من ثلاثة أنواع من الماس .. ليس عقدًا واحدًا .

وتصرخ زوجة السفير : بالضبط يا سيدتى !.

وتقول السيدة الأولى : ولكنك تتعاملين معه كأنه مجموعة من الزجاج .. إنك تتركينه للعرق .. وللماء يجب تنظيفه بعناية خاصة ..

ثم تخرج من جيبها قطعة من القطيفة وتقدمها لها : هذه نظافة حبات العقد !.

ثم تجلس وتضع ساقًا على ساق : من أجل هذا كنت السيدة الأولى .. فأنا صناعتى شراء وبيع الأحجار الكريمة ولذلك كنت حارسة أكبر ماسة فى التاج الأمريكى : زوجى !.

٧- اضبـــــط..
الـرؤسَـــاء يحبُــون أيضـًـا!

ف يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١٧١٥ استدعى الملك لويس الرابع ملك فرنسا حفيدة . ليراه لآخر مرة . طلب منه أن يقترب .. وأن يقترب أكثر.. وأخذ الملك لويس الرابع عشر يتحسس ذراعى حفيده .. ثم يضغط على ساقيه .. وعلى صدره وأن يقترب منه أكثر ليسمعه أوضح . قال لحفيده الذى صار لويس الخامس عشر : سوف تكون ملكًا على دولة عظيمة . وحاول أن تسالم جيرانك جميعًا . لا تفعل مثلى . فأنا قد أحببت الحرب ، وابهة القتال . حاول أن تريح أعصاب شعبك .. سوف يحبونك .. فإذا أحبوك غفروا لك خطاياك مهما كانت كبيرة .. ولم يتسع وقتى للحب .. فلا تجعل كل وقتك للحب . بعض الحب يشفيك من السياسة : التى هى فن الكراهية !.

ولكن الشعب الإنجليزى لم يغفر للملك إدوارد الثامن أن يحب .. وفى يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٦ أذاع الملك إدوارد الثامن على شعبه وعلى العالم : لقد وجدت من المستحيل أن أنهض بأعباء الحكم ومسئولياته الضخمة ، دون مساعدة من المرأة التى أحببتها !.

والرئيس كنيدى هو الذى قال : يجب على الرئيس أن يشجع الناس على كل شىء ، دون أن يساهم فى ذلك .. أن يكون طباخ السم والسفرجى أيضًا ، بشرط ألا يذوق شيئًا مما استباحه الشعب لنفسه !.

وكان كنيدى كاذبًا . فقد استباح حرمات البيت الأبيض ، كما لم يفعل كثيرون من الرؤساء قبله .

ولم يكن صحيحًا أن البيت الأبيض هو السجن الأسود للرئيس . صحيح كان سجنًا . ولكن حدث فى هذا السجن ما يحدث فى السجون الأخرى : تهريب الطعام والشراب والفتيات وتهريب السجين نفسه ..

ومن أمتع الكتب التى قرأتها أخيرًا كتاب بعنوان « والرؤساء يحبون أيضًا » للكاتبة لينى جولدشتين ..

فالرئيس ولسون ــ مثلاً ــ تزوج للمرة الثانية . رغم الشائعات التى تقول إنه كان يعرف زوجته الثانية ، عندما كانت زوجته الأولى مريضة .

وقال لأحد أطبائه : إنما أردت أن أثبت لنفسى أننى رجل . لقد كان كل شىء بينى وبين زوجتى الأولى على ما يرام .. إلا أن اقترب منها . شىء ما حدث بيننا .. سقطت المسافة التى بين سريرى وسريرها .. أصبح العبور إلى سريرها نوعًا من الانتحار . لا هى تريد ولا أنا أريد . حتى أحسست فى بعض الأحيان أننى أصبحت عاجزا

تماماً . ولكن هذه الفتاة أكدت لى خطأ زوجتى وخطئى أيضاً .

وفى هذا الكتاب أن رؤساء أمريكا جميعًا أسوياء ـ حياتهم الجنسية والعاطفية عادية . وإن كان من بينهم فحول مشهورون وذئاب وعيون زائغة ..

ايزنهاور الذى كان نموذجًا للرئيس الكفء .. والأب لكل الشعب الأمريكى ، ابتعد عن ذلك بالاتفاق معها . قال لها : تعذبت فى الحرب كثيرًا وعانيت وأنت أصبحت مثل أختى وأمى أحيانًا . وفى نفسى وفى جسمى رغبات تموت عند النظر إليك أعذرينى !.

وعذرته . ولكنها لم تتصور أنه يتمنى الزواج من فتاة إنجليزية كانت تعمل سائقة لسيارته أثناء الحرب العالمية الثانية !.

والبيت الأبيض يتندر بما حدث فى إحدى الليالى . إنها مجرد صدفة . كان ذلك فى عيد الشكر . وقد نام الرئيس ترومان وزوجته مبكرين . وفجأة سمعا دويًا . لقد سقط السرير بالرئيس وزوجته !.

وتضاحكا والعاصمة الأمريكية كلها على «فحولة» السيد الرئيس !.

* * *

والرئيس بوكانان عاش ومات أعزب . وهو الرئيس الأمريكى الوحيد الذى لم يتزوج . ولكن إضرابه عن الزواج مأساة . لقد فكر الرئيس فى الزواج من فتاة أحبها . تقدم لها . خطبها . اعترض

أهلها ، فالرئيس من أصل متواضع جدًا . وهى بنت الأكابر الأغنياء . وأرغموها على أن تعيد له الدبلة . وإعادتها . ووضعها الرئيس فى إصبعه مع الدبلة الأخرى . توفيت هذه الفتاة . ورفض أهلها أن يمشى فى جنازتها . ولما حاول ، هددوه بالضرب ولكنها لم تمت فى قلبه . وكانت حركاته اليومية نوعًا من المشى فى جنازتها . .

وكان سبب الرفض أيضًا أنهم أشاعوا أنه رجل ذئب . وأنه يعرف ويعايش عشرات من النساء ـ ولم يكن ذلك صحيحًا .

وبعد ٣٧ عامًا من وفاتها نشرت الصحف أنه كان ذئبًا . وأنه غير مستقر عاطفيًا . ولذلك لا يصح للشعب الأمريكى أن يختاره رئيسًا . وقالوا إنه حاول الانتحار : أنظروا إلى ندبه فى رأسه .. وإلى أنه يميل إلى الجانب الأيسر إذا سار .. وإنه حاول الانتحار بحبل مشدود إلى شجرة وأنقذوه فى آخر لحظة ولكن الحبل ترك هذا الأثر فى عنقه . .

والحقيقة أن هذه الندبة وهذا الذى أصاب عنقه وكذلك ضعف بصره كان بسبب ولادة عسرة . كادت تؤدى إلى وفاة أمه !.

* * *

والرئيس ماكنلى كان جنديًا وضابطًا شجاعًا . ولم يرتكب حماقة قط . ولا عرف شيئًا يغضب الله . فتزوج الفتاة التى أحبها وأنجبت له ولدين . ولكن جاءت ولادتها فى المرة الأخيرة أليمة . فخرجت من المستشفى وقد تحطم جهازها العصبى . فعاشت مريضة . وتحطم أيضًا كل أمل له فى شفائها .

وحاول بعض خصومه تشويه سمعته باختراع علاقات مع عدد من النساء فما كان من الرئيس إلا أن استدعى الصحفى الذى كتب القصص الكاذبة وجمعه بكل النساء اللاتى ذكرهن . وقال لهن : دافعن عن شرفكن .

وبسرعة خلعت السيدات أحذيتهن . وأنهلن ضربًا على الصحفى . ثم التفت إليه يقول : لا تؤاخذنى يا ولدى .. فأنا أعرف أنهن لو كتبن يدافعن عن شرفهن ، فإنك لن تنشر ذلك . وهذه أسرع وأخصر طريقة للرد عليك والانتقام منك !.

وكان من عادة الرئيس بوكانان أن يصطحب زوجته إلى الحفلات العامة . وكان ذلك مصدر تعاسة له ولها أيضًا . ولكنه كان يرى أن وجودها بين الناس أرحم من بقائها وحدها .. وأن يجد له الناس عذرًا فى أنه عصبى حاد المزاج حزين ..

ولم يكن زائغ العينين مثل الرئيسين لنكولن وبرسى ـ فقد عاش مخلصًا لها .

وله عبارة شهيرة : زوجتى ليست أذكى ولا أجمل امرأة فى العالم . ولكن من المؤكد أنها أخلصهن وأصلح !.

* * *

أما الرئيس تافت فكان من المستحيل أن يفكر فى أى شىء ثالث . أما الشيئان فهما : العمل والنوم . إذا صحا عمل . وإذا عمل استغرق فى النوم .

وكان عذابه فى اجتماعات الوزراء .. لكن كان فى حاجة إلى من يزغده فى جنبه أو يضغط على قدمه لكى يصحو.. وفى إحدى المرات صحا منزعجًا وهو يقول : اتفقا على شىء واحد ! ولم يفهم الوزراء ..

ولكن الرئيس تافت كان قد طلب إلى وزير الداخلية أن يزغده فى جنبه وإلى وزير الخارجية أن يزغده فى ظهره . فلما وجداه قد سقط فى النوم زغداه فى الجنب والظهر !.

وكان من عاداته الغريبة أن يطلب إلى زوجته ألا تجعله يرى السرير فى أى وقت . فلا يكاد يراه حتى يقفز إليه وفى ثانية واحدة ينام . ولذلك كان يقضى كل ساعاته السعيدة مع زوجته على أرض الصالون ؟!.

وكان الرئيس واشنطن «بصباصًا» شهيرًا . وكان يقول : لم أرزق أولادًا فى الحلال ، فمن يدرى ربما كانت لى أولاد فى الحرام . أى أسمى المشاعر لابد أن يدخل فيها شىء من السفالة !.

أما الرئيس جونسون فكانت له علاقة بأخت زوجته .

أما الرئيس تيلر فلا يصح أن نعلق بكلمة واحدة على حياته .. فما الذى يمكن أن نقوله عن رجل أنجب ١٤ طفلاً من زوجتين . وظل فى صحة جيدة ؟!.

أما الرئيس هيز ، فهو نموذج يدرسه علماء النفس . فقد تولت تربيته أمه وأخته وخالته . وكانت أخته هى التى تساعده على ارتداء

ملابسه . وهى التى تضع الطعام فى فمه . وهى التى تلعب معه وهو طفل . وقد ارتبط بها تمامًا فى طفولته وشبابه ورجولته . وعندما اضطرته الظروف أن يعمل بعيدًا عنها ، راح يبكى . وعمل المستحيل من أجل أن يكون قريبًا منها ، لكى يأكل ويشرب معها .

وعندما تزوج رافقته أخته فى كل شهر العسل . ونزلت فى غرفة ملاصقة له . وكانت تضع أذنها على الجدار بينهما . وكان الرئيس هيز يطلب إلى عروسه ألا تنطق بكلمة واحدة : فالحيطان لها آذان !.

ولما تزوجت أخته كانت حزينة وقالت لزوجها : لقد كان أخى هو فتى أحلامى !.

وماتت فى الثلاثين من عمرها وهى تلد توأمين . فكانت وفاتها حزنه الأكبر . وحين يتحدث عنها . كان حديث عاشق ولهان تخلت عنه محبوبته ، ولم تكتف بأن تظل بعيدة وإنما ابتعدت إلى الأبد .. وكان يرى فى ذلك عقابًا له على أنه تركها وتزوج !.

وفى يوم قال لزوجته : بعد أن ماتت أختى .. يجب أن نكون معًا ، كما كنت مع أختى !.

فنام الأثنان فى غرفتين منفصلتين حتى الموت !.

* * *

أما الرئيس كليفلاند فقد كان على صلة بفتاة أنجب منها طفلاً . وانتشرت الشائعات . وتحدثت الفتاة نفسها . وجاءه مدير الدعاية الانتخابية يسأله : ماذا أقول للناس ؟.

قال له كليفلاند : قل الحقيقة !.

أما خصومه السياسيون فقد أتوا بهذه السيدة وجعلوها تحكى للناس ما حدث . ونظمت المعارضة أغنية تقول :

ماما .. يا ماما .

فين بابا يا ماما ؟.

بابا فى البيت !.

أى بيت يا ماما ..؟.

فى البيت الأبيض !

وأعلن الرئيس كليفلاند : إن ما تقوله هذه الأغنية صحيح . وإننى مسئول عن حياة وتربية هذا الطفل !.

وقال الناس : بل هو رجل أمين .. رجل شهم .. لم يتنكر .. ولم ينكر . واعترف بغلطته وسوف يصلحها !.

ولكن أم الطفل لم تكن على يقين من أنه ابن الرئيس كليفلاند .. فلم تستبعد أن يكون ابن عشيقها .. ولذلك أعطت للطفل اسم الرئيس واسم العشيق معًا !.

ومن العجيب أن الرئيس كليفلاند أحب أخت هذا العشيق وتزوجها وأنجب منها خمسة أولاد !.

* * *

وقد اشتهر الرئيس كنيدى بأنه ذئب الذئاب ـ وكان يقول ذلك

عن نفسه . ولكن من الصعب تصديق ما يقوله الرئيس كنيدى . فقد كان مصابًا فى عموده الفقرى . وكان لابد أن يتعاطى كمية كبيرة من المهدئات والمنومات .. وكلها لا تساعده على أن يكون ذئبًا .. وإنما أن يكون ثعلبًا يدور حول الفتيات دون أن يذهب إلى أبعد من ذلك . كما سنرى فيما بعد !.

* * *

أما الرجل الذى كان أجرأ الرؤساء وأقلهم أحقية فى دخول البيت الأبيض لأسباب أخلاقية فهو الرئيس هاردنج . فقد عرف طالبة جميلة . ورافق هذه الطالبة عشر سنوات . وكان يسافر معها ويدعى أنها إبنة أخيه .. فإذا نزلا فى فندق ، جاءت غرفتها ملاصقة لغرفته وقد أعطاها اسماً مستعاراً .

وعندما انتقل إلى البيت الأبيض انتقلت إلى الغرفة المجاورة لقاعة اجتماع مجلس الوزراء .

ويتسلل إلى هذه الغرفة حيث تكون الفتاة فى انتظاره .

ويحدث ذلك كل يوم ، وعدة مرات فى اليوم الواحد .

ولم تشك زوجته لحظة واحدة فى سلوكه . ولا تصورت أن فى الامكان أن يخونها .

ولكن أحدًا لم يتنبه إلا أخيرًا جدًا إلى العذاب الذى يقاسيه الرئيس هاردنج . فقد كان يبكى ويصرخ .. كان الرئيس مصابًا بحالة «تهيج عصبى» شديد .. فلم تكن هذه اللقاءات تحل له مشكلة

الهياج العصبي الحزين .. وإنما تضاعف آلامه .

وقد نصحه الأطباء بأن يسافر بعض الوقت إلى الأماكن الجليدية .. وأن يتعرض للجليد عاريًا . وذهب وتعرض . وزادت آلامه .

وهذه الحالة الشاذة كانت هى السبب الحقيقى لآلام المعدة وتقلصات المصران الغليظ والامساك والصداع النصفى .

ولكن هذا الرئيس كان من أقدر رؤساء أمريكا وأحبهم للناس جميعًا .

وفى إحدى المرات عرفت زوجته ما يفعله فى الغرفة المجاورة لمجلس الوزراء . وحاولت اقتحام الغرفة ولكن الحرس منعوها لأن التعليمات ألا يضايقه أحد .. فظلت الزوجة جالسة مع الوزراء حتى خرج الرئيس وقد أحمر وجهه وسال عرقه . ونظرت إليه الزوجة . وهزت رأسها بمعنى أنها فهمت ما الذى كان يعمله . وإنها شديدة الاحتقار له وللوزراء وللحراس .

وكان الرئيس يقول : إنها لا تفهم ولا أنا !.

وكانت فلورنس زوجة الرئيس هاردنج فى الستين من عمرها . متصابية . صارخة الألوان . متعددة الجوانتيات ذات اللؤلؤ .

ولما رأت هذه الفتاة راحت تقلب فيها كأنها جزار قبل أن تذبحها بسكين .

سألتها : هلى تحبين الرئيس ؟.

ـ نعم .
ـ هل يحبك الرئيس ؟.
ـ لا .
ـ لماذا ؟.
ـ لأنه يرانى كتلة من اللحم الساخن فى بعض الأوقات وينسانى !.
ـ ألم يعدك بالزواج ؟.
ـ وهل وعدك أنت بالطلاق ؟.
ـ لا .
ـ ولا وعدنى !.

وحاولت بعد ذلك أن تقلد ملابس هذه الفتاة . فكان يقول لها الرئيس : نجحت فى تقليد كل الذى لا أريده فى الفتاة الصغيرة !.

ـ أما هذه الفتاة فقد كتبت قصتها مع الرئيس هاردنج .
كما كتبت جوديت اكسنر عن علاقتها بالرئيس كنيدى .
وسمرسى كتبت عن علاقتها بالرئيس ايزنهاور .

* * *

ومما قالته عشيقة ايزنهاور البريطانية : إن الرئيس كان يزداد شبابًا كلما استحكمت الأزمات حوله .. هنا فقط أجد لى دورًا حيويًا .. أشعر بأننى أعظم امرأة وأم وأخت وابنة فى الدنيا .. وأن الذى أقوم

به ليس متعة شخصية .. وإنما عمل قومى .. أستحق عليه تقبيل
الأيدى والأرجل أيضًا .. وكان ايزنهاور سخيًا فى امتنانه !.

٨-امـــــــــرأة
أخـــرى فى البَـيت الأبيض!

لا تزال وظيفة السيدة الأولى فى البيت الأبيض غير واضحة . والسيدة الأولى لا تدرى بالضبط ما هو المطلوب منها ـ إن كان أحد قد طلب منها شيئًا . أما الزوج الرئيس فهو يطلب بعض المساعدات . ولكن أين تقف الزوجة وإلى أى حد تشارك لم يكن ذلك محددًا فى أى وقت . حتى السيدة اليانورة زوجة الرئيس فرانكلين روزفلت ، رأت أن تظل فى وظيفتها مدرسة . وأن تسافر إلى عملها ثلاثة أيام فى الأسبوع . وأن تكسب كثيرًا من مجهودها . ولما تهامس الناس وقالوا : إنها تكسب الكثير لأنها السيدة الأولى فقط ، فقررت اليانورة أن تتبرع بأموالها للفقراء !.

وعندما جاءت إلى البيت الأبيض فى سنة ١٩٣٣ ، كانت أمريكا تعانى من كل أنواع الكساد . كان زمن الكساد العظيم : السلع النادرة والسلع التى يرمونها فى البحر .. زمن يجمع فيه الأطفال طعامهم من صناديق الزبالة .. وتدور العرائس على البيوت تطلب الكراكيب لتعمل منها أثاث الحياة الزوجية !.

واليانورة كانت لها طفولة تعيسة . ماتت أمها ، فكفلتها جدتها

هى وأخاها . فألحقوها بمدرسة داخلية . وكانت حياتها جافة خشنة باردة .. وظهر كل ذلك على وجهها وسلوكها فى الحياة .

ولما عرفها فرانكلين وتقدم لها وافقت . أعجبه منها أنها جادة وأنها خشنة . كان يريد المرأة التى تمسك الكرباج وتضرب . والتى تفرمل حياة اللهو والعبث التى غرق فيها . واعتقد أنها قادرة على ذلك . وفى كل مرة يسمعها تشخط وتنطر يقول : فى بيتنا رجل ! .

ولم تكن لها أية اهتمامات بالسياسة أو الاقتصاد . ولذلك لا تجد متعة فى الجلوس مع الرئيس وأصدقائه .

وأثناء الحرب العالمية الأولى قامت المرأة الأمريكية بكثير من مهام الرجل . هى إدارة أحد المطاعم ، وكذلك فعلت زوجات الوزراء .

ولكن حياتها الهادئة البعيدة عن السياسة ظهر فيها لغم عائم . حقل ألغام . قنبلة موقوته . ظهر خطاب بعث به الرئيس إلى واحدة مجهولة . فتحت الخطاب وجدت الرئيس غارقًا فى حب سكرتيرتها السابقة . طلبت الطلاق . رفض ولكنها قررت أن تطلقه من طرف واحد . وبعد هذا الخطاب لم تكن لها علاقة من أى نوع إلا المعايشة والسكنى فى بيت واحد ، وليس تحت سقف واحد . وفى السادسة والثلاثين من عمره أصيب بشلل الأطفال . وجلس على مقعد له عجلات حتى مات ..

وهو أول رئيس أمريكى ينتخبه الشعب رئيسًا للمرة الرابعة ، ليموت بعدها بثمانين يومًا ..

وهى معجبة بالرئيس جدًا . وترى أنها ليست غلطته . وإنما هى براعة سكرتيرتها . أما الرئيس فليس عنده وقت لكى يفكر ويدبر فى الحيل المضادة التى تنصبها امرأة تفرغت للايقاع به . وهذه هى جوهر مشكلة الرجل والمرأة : إنه يحبها بعض الوقت ، وهى تحبه كل الوقت .. إنه ينشغل بها ، ولكنها تتخصص فيه .. وعندما يفكر الرجل فى الحب ، فهو يترك هذه المهمة إلى قلبه .. أما المرأة فإذا أحبت ، فكل أعضائها تعمل ليلاً ونهارًا من أجل ذلك ..

فالفشل فى الحب يعنى عند الرجل «وجع القلب» ولكنه عند المرأة وجع القلب وصداع العقل وقلق الجسم وظلام الدنيا كلها ..

ورأت اليانورة بذكاء شديد إنه هو الضحية . ولكن لا يمكن أن يكون ضحية دون رغبة منه أو تشجيع لها أو استعداد لأن يكمل ما يطلبه الحب !.

ثم إنها وجدت له عذرًا : فحياة الرؤساء مملة . والناس الذين يلتقى بهم الرئيس متشابهون : كذابون جميعًا . والحب ـ للرجل ـ كالعمل للمرأة : نوع من الهرب والبحث عن تعويض فى أماكن أخرى !.

والسيدة اليانورة قررت أن تكون شخصًا لا شخصية ..

أى أن تعيش حياتها هى . لا الحياة التى يريدها البيت الأبيض وسكان العواصم والوزراء وأعضاء البرلمان . هى تريد أن تظل الشخص ، الإنسان ، المرأة الأنثى ، الزوجة .. لا السيدة الأولى زوجة الرئيس .

تريد أن تكون السيدة ، ولا يهم الترتيب .. الأولى .. الثانية .. المائة .. المهم أن تكون سيدة ..

ثم أنها ذهبت إلى أبعد من ذلك فطالبت للزنوج بنفس حقوق البيض فى الوظائف الكبرى والقيادية ـ وإلا فلا معنى للحرية والمساواة دون تفرقة فى اللون أو الدين أو المذهب أو الجنس .

ومن أعجب مواقف الصحافة الأمريكية أنها ـ دون اتفاق مكتوب بينها ـ لم تتعرض لمرض الرئيس روزفلت . ولم تشر لا من قريب ولا من بعيد ، إلى أثر هذا المرض على سياسة أمريكا ومكانتها فى العالم . ولكن الذين يرون الرئيس يتألمون لذلك كثيرًا .. فهو جالس على مقعد له عجلات . الشكل مؤلم . ويؤلم أكثر أن يروا المساعدين يحملونه لكى يجلس على مقعد آخر ولا كلمة فى الصحف عن هذا المرض ..

ولما سئلت اليانورة إن كان لهذا المرض أثر على قرار الرئيس ؟.

قالت : طبعًا إن هذا الألم الذى يعانيه الرئيس يجعله يشعر بعذاب الآخرين !.

ولقد عاش الرئيس روزفلت مريضًا طول حياته بالبرد من كل نوع ودرجة .. عاش مزكومًا ومات مزكومًا أيضًا .. وفى آخر أيامه ظهرت عليه أعراض الشيخوخة وتصلب الشرايين . وكان تشرشل ، السياسى الداهية ، ينبه الرئيس روزفلت إلى ألاعيب ستالين الذى يحاول أن يوقع بينهما وأن يمزق الصداقة الأمريكية البريطانية .. ولكن

روزفلت لم يكن يدرى ذلك بوضوح حتى أقنعه تشرشل ..

مات فرانكلين روزفلت يوم ١٢ أبريل سنة ١٩٤٠ وعاشت زوجته بعده ١٨ عامًا . وكان لها دور بارز فى الأمم المتحدة . فكانت رئيسة لجمعية حقوق الإنسان . وقد أدهشت الشرق والغرب بموقفها القوى . حتى الأمم المتحدة صفقت لها أكثر من مرة . كما أن واحدًا من خصومها أعلن : إننى أسحب كل كلمة قلتها ضد هذه السيدة العظيمة . والذى قلته كان كثيرًا !.

وأطلقت عليها الصحف : السيدة الأولى للعالم كله ..

* * *

وبعد روزفلت جاء الرئيس هارى ترومان (٤٥ ـ١٩٥٣) لم يكن متعلمًا . أبوه تاجر حمير. ولكنه كان رجلاً ذكيًا ، يتعلم بسرعة . وعندما تقدم لخطبة زوجته «بس» رفضوه لأنه فلاح جلف إذا تحدث إلى المرأة وضع يديه فى جيوبه . وتوقف عن الكلام ليمسح أنفه كثيرًا وطويلاً . رفضوه وطلبوا إليه أن يصلح من نفسه وجسمه وجيبه . وقالوا له : تعال فى فرصة أخرى !.

وطالت الفرصة الأخرى أكثر من عشر سنوات . وجاء يتقدم لها . فوافقت هى .. ولكن أهلها رفضوه وكانت حجتهم فى ذلك أنه تقدم اجتماعيًا ، ولكنه ما يزال متخلفًا شخصيًا : انظرى إلى منديله .. انظرى إلى التراب على جزمته .. ثم ما معنى أن يغمز بعينه معظم الوقت !.

ولكنها قالت : هذه العيوب كلها أحببته وسوف أتزوجه !.

وتزوجته . أنجبت له بنتًا . كانت فى الجامعة عندما انتقلوا إلى البيت الأبيض . وكانوا يسمونهم : الفرسان الثلاثة ــ فهى الأسرة الوحيدة الأكثر تماسكًا فى البيت الأبيض منذ إنشائه !.

وكانت «بس» هى الأخرى حريصة . فجعلت علاقتها بالصحافة محدودة جدًا لقد تعلمت من السيدات اللاتى سبقنها فى البيت الأبيض . وكانت تتضايق كلما نشروا خبرًا عن حياتها مع زوجها !.

وكان ترومان يقول كثيرًا : ناقشت هذا الموضوع مع زوجتى !.

وكان يقول : لقد تجادلنا كثيرًا فى القنبلة الذرية والحرب الكورية وكان رأيها هو الأصوب .

وكانوا يسألونها عن مشاركتها للرئيس فكانت تقول : ولا حاجة .. أكتب له الخطب وأسمعه وهو يتدرب على إلقائها .. ليس شيئًا هامًا .. لقد أصبحت عادة !.

وفى إحدى المرات طلبوا إلى السيدة بس ترومان أن تقوم «بتدشين» بعض الطائرات . وكان لابد من أن تكسر زجاجة شمبانيا لتأخذ الشر وتروح .. وقد حاولت ذلك ثمانى مرات . ولم تنكسر الزجاجات . فطلبت إلى أحد الجنود أن يكسرها نيابة عنها . ثم أوعزت إلى الصحف ألا تنشر هذه الواقعة .

وكانوا يسألونها عن تفسير ذلك فتقول : إننى أخاف على الزجاجة أن تنكسر !!.

وقد تعلمت اللغة الأسبانية وتتكلمها بطلاقة . ولكن عندما سافرت إلى بعض الدول اللاتينية لم تنطق بكلمة أسبانية واحدة ـ خوفًا من أن يؤدى الخطأ اللغوى إلى مشكلة سياسية .

ولما سألها الرئيس ترومان كيف تعجز عن تحطيم زجاجات الشمبانيا وأين ذهبت ذراعها القوية التى جعلتها من أمهر لاعبى التنس فى العاصمة قالت : لسبب بسيط « فقد اعتدت » أن أكسرها على رأسك فقط ! .

وفى إحدى المرات دخل عليها الرئيس ترومان وهى تحرق بعض الخطابات . قال : تحرقين خطاباتك لى ! ـ نعم .

ـ إن بها ذكرياتنا .

ـ أعرف . ولكن عندما قرأتها وجدت إنها تستحق الحرق ! .

وأنقذ بعض خطاباته إليها ، ونشرها فيما بعد تحت عنوان : « حبيبتى بس » وقد نشرت إحدى الصحف أنها لا تفيق من الخمر ! .

والحقيقة أنها لا تشرب ولا تدخن ـ ليس عن إيمان ـ وإنما عن كراهية لمذاقها ورائحتها ! .

ولما هاجم أحد الصحفيين ابنة الرئيس ترومان بأنها لا تصلح للغناء ، ثار الرئيس وكتب بخط يده خطابًا عنيفًا جدًا لهذا الناقد .. يقول فيه : ومن الذى جعلك حاكمًا مطلقًا على الفنانين فتعطى حق الحياة لهذا ، والموت لذلك .. ألا ترى أنك خلعت على نفسك مسوح القداسة المطلقة ـ مع أنك كما تعرف وأعرف أنا ، لا قداسة

لقلمك ولا احترام لك عند أحد من الناس !.

ولم يدرك الرئيس ترومان أن أى خطاب بخط يده وثيقة تاريخية لن يتردد أحد لحظة واحدة فى نشرها. وقد نشر الناقد خطاب الرئيس فكان حديث أمريكا كلها !.

أما بس ترومان فكانت تصف نفسها دائمًا : أنا السيدة الأولى لزوجى : ولا يهمنى ترتيبى فى العالم : وأنا لا أطيق أن أرى حائطًا بلا نافذة . أحب النوافذ والأبواب والأضواء .. وعلى استعداد دائمًا لأن أحطم أنف الصحفيين إذا أدخلوه فيما لا يعنيهم .. وحياتنا الخاصة لا تصح أن تعنيهم !.

أما ترومان فقد وصف نفسه قائلاً : صحيح أننى لست من العظماء الذين حكموا أمريكا . ولكنى حاولت !.

مات سنة ١٩٧٢ عن ٩٨ عاما .

* * *

أما الرجل الذى قاد جيوش الحلفاء إلى النصر فى أوروبا وأفريقيا وأسيا فهو إيزنهاور . صار رئيسًا لأمريكا (٥٣ ـ ١٩٦١) .

عندما دخلت زوجة إيزنهاور البيت الأبيض وجدت زوجة ترومان فى انتظارها .

لاحظت زوجة إيزنهاور بأن له بيجامة من هذا اللون . ولم يكد يرى البيجامة حتى صاح فى زوجته : فتاة فى فراشى !.

فقالت : هذا هو أمل إبليس فى الجنة يا سيادة الرئيس ! إنك

كبرتَ وحاربت وقاتلت وقتلت ولكن أحلام المراهقة لم تقض عليها القنابل ولا سقطت منك وأنت تعبر البحار !.

ولم تكن مامى إيزنهاور تعرف بالضبط معنى كل هذه الكلمات . فهى حقيقة مؤكدة ولكنها كانت آخر من يعرف . فالرجل الذى قاد كل الجيوش فى كل الاتجاهات ، كانت له سائقة بريطانية جميلة قادته فى غابات ووديان أوروبا وفى صحراء أفريقيا . ولكن الرجل القائد ، لم يعرف أن هناك من هو أكثر براعة منه . وأن لهذا القائد قائدًا آخر هو هذه السائقة . أحبها إيزنهاور . وانتشرت الشائعات . وقالوا : تزوجها .. وقالوا حملت وأنجبت ثم أنهما أخفيا هذا الطفل إلى حين .. وقالوا .. هددها .. وقالوا : بل هى هددته .

ولكن الرئيس ترومان هو الذى كشف الحقيقة . فقال إن إيزنهاور قد طلب من وزير الدفاع الأمريكى أن يسمح له بطلاق زوجته ثم الزواج من هذه الفتاة . فهدده الوزير وقال له : موافق بشرط أن تستقيل وتلك نهاية بطل أمريكى اسطورى .. دون مقابل !.

واستطاع إيزنهاور أن يحصل على خطاباته لها . ويقال دفع مليونًا ويقال بل استولى على هذه الصور عن طريق المافيا .. ويقال إنه لم يمانع فى أن تكتب مذكراتها وأن تعيش منها . وكتبت مذكراتها . وفضحته وقالت : إنه ضعيف جنسيًا . ونشرت صورة لخطاب بعث به يقول فيه : أنت تعرفين .. أردت كثيرًا . وحاولت ولكنى فشلت .. بينى وبينك هذه هى الهزيمة الوحيدة المؤكدة لكل القادة

الذين ينتصرون فى الحروب . إنهم يسحقون أعداءهم ، وينسحقون أمام من يحبون .

بمنتهى الأمانة : أعظم المعارك التى يخوضها الرجل وحده هى التى على هذه المساحة الضيقة جدًا التى يسمونها : السرير .

وكانت مامى إيزنهاور تؤكد فى كل مناسبة أن دور الزوجة فى حياة الرئيس تافه جدًا . هى لا تحب وهو لا يريد . ولذلك يجب أن تبحث لها هى عن دور . وكلما كان هذا الدور بعيدًا عن اهتمامه كان أفضل .

وفى ذلك الوقت استولت على الشاشة والصحف : صورة المرأة الأنثى .. مارلين مونور وأخواتها .

فالمرأة الناعمة الممتلئة هى التى تفتح الشهية وتسدها أيضًا . وليست المرأة العاملة ولا المرأة الرشيقة ولا حتى الأنيقة . المرأة الأنثى . الصدور عالية والأرداف بارزة ، والسيقان ملفوفة . والشفاه منفوخة ، والعيون واسعة ، والمشية رقص والوقوف دلع ، والحب عبادة . والشيطان هو المهدى المنتظر على الشاشة الصغيرة والكبيرة وفى الصفحة الأولى للصحف وهو غلاف المجلات .

ولذلك أسرفت السيدة مامى إيزنهاور فى كل ما جعلها أنثى بنت زمانها . ولا يهم إن كان الرئيس يرى ذلك أو لا يراه .. إنه زعيم الرجال الأمريكان ، وهى سيدة السيدات .. وإذا كان هناك لقاء بين الرجال والنساء أو حدبث فحول مارلين مونرو .. كيف ظهرت .

ماذا قال الرجال .. كيف توجعوا . وكيف تنافس الرجال والنساء على الاعجاب بها وتعليقها فى غرف النوم . أما الرجال فيرون أنها هى المرأة ، أى إنها أجمل من تلك التى إلى جوارهم .. والمرأة تعلق صورة مارلين مونرو أيضًا بما معناه : إنها صورة لأنثى جميلة : معلقة على الحائط .. صورة من ورق ، لعلها توجع قلب زوجها ، كما وجع هو قلبها !.

مسكينة مامى إيزنهاور مات إبنها الأول .. ومات ابنها الثانى وهى ترقد مريضة فى الغرفة المجاورة ، ومنعها الأطباء من زيارته حتى لا تنقل إليها العدوى . شفيت هى من مرضها ، ومات هو بمرض آخر .

وفى فترة رئاسته الثانية . لم تعد الصحف تهتم بصحتها هى ، لقد انشغلت وقلقت على صحته هو .. وأشيع فى ذلك الوقت أن فتاة جديدة قد ظهرت فى حياته . فكان الرئيس إيزنهاور يضحك ويقول : حدث ذلك كثيرًا فى الحرب .. كانت تصل الذخيرة ، بعد أن يكون الجنود قد ألقوا السلاح ! يسعدنى كثيرًا جدًا أن أعيش فى هذا الوهم العظيم . ولكن سوف أسأل الأطباء إن كان مسموحًا لى بأن أضحك على نفسى !.

ومن أشهر الأحداث الصحفية فى التاريخ أن الرئيس إيزنهاور قد دعا كل المحررين العسكريين . وسألوه عن الضربة القادمة .

قال : سوف تكون فى إيطاليا .

سألوه : ألا تخشى إن نحن نشرنا هذا الخبر أن ينتبه الألمان فتكون كارثة كبرى علينا .

قال الرئيس : أعرف . ولذلك فإننى أترك كل واحد لضميره الوطنى !.

فصرخ أحد الصحفيين : اللعنة على الضمير !

ولكن أحدًا لم ينشر هذا الخبر الخطير !.

وللسيدة مامى إيزنهاور رأى فى علاقتها بزوجها : معذور . لقد عاش طول عمره مع الرجال فى جبهات القتال : فظهور فتاة جميلة لابد أن يقلب كيانه .. ومعذور مرة أخرى عندما دخل البيت الأبيض ليعايش نوعًا آخر من الرجال تغيرت وتنوعت ملابسهم ووجوههم ، فظهور فتاة لها لون واحد ورأى واحد ونظرة واحدة إلى شخص واحد ، لابد أن يقلب كيانه .. ولكن أعظم انتصارات زوجى كانت فى هزيمة الألمان . وأعظم هزائمه كانت أمام هذه الفتاة الصغيرة .. أما أعظم انتصاراتى فهو طرد هذه الفتاة . وإن لم أفز بالزوج بعد ذلك !.

٩- مع الرئيس الذى أمضى نصف عمره فى المستشفيات ثم إنه لا يشكو!

١ ـ الرئيس جون كيندى هو أصغر رئيس لأمريكا (٤٣ سنة) وأول من ولد فى القرن العشرين ليحكم ألف يوم ويموت قتيلا فى الظهر الأحمر وتظهر زوجته وبقع الدم على فستانها لتشهد حلف اليمين لخليفته الرئيس جونسون !

وحكاية كيندى عضو الكونجرس الغنى جدا ابن الغنى جدا جدا وعلاقته بمارلين مونرو وغيرها وعلاقة زوجته بالمليونير أوناسيس والزواج منه وعلاقتها بغيره ، لم تكتب بعد .

جون كيندى طول حياته يبدو أصغر من سنه ويتندر على نفسه فيقول إنهم كانوا يظنونه عامل الأسانسير وأحيانا موظف الاستقبال فى أى فندق يدخله .. وعندما كان عضوا فى مجلس الشيوخ منعه أحد الموظفين من دخول إحدى القاعات لأنها لأعضاء مجلس الشيوخ فقط !

وهو مشهور بالنكتة وحضور البديهة ، مثل الرئيس ريجان وأكثر ولذلك كانوا يستدرجونه إلى القفشات وإلى رواية النوادر عن نفسه وعن أسرته .

ويقال إنه أهدى لأحد أصدقائه مجموعة من كئوس الخمر. ومعها هذه العبارة : هناك ثلاث حقائق فى هذه الدنيا : الله وحماقة الإنسان .. والضحك والأخيرة هى التى تهمنا !

وله كتاب استحق عليه جائزة بولتزر الأدبية وهو من أبطال الحرب العالمية الثانية . فقد كان قبطانا لأحد زوارق الطوربيد وقد حاصرته القوات الفاشية وضربته فشطرته نصفين . فظل وعشرة رجال عائمين ١٥ ساعة . واستطاع هو أن ينقذ أحد زملائه بأن سحبه إلى شاطئ إحدى الجزر وظلوا جميعا يغالبون الجوع والعطش ثلاثة أيام حتى انقذتهم البحرية بعد ذلك ، وعاش هو وزملاؤه على جوز الهند يأكلونه ويشربونه .

ولما سأله أحد الطلبة بعد ذلك كيف اصبحت من أبطال الحرب ؟

قال بالصدفة .

ـ كيف ؟

ـ أغرقنى اليابانيون سنة ١٩٤٣ وقفزت من تحت الماء إلى جزيرة تعلقت بها لأكون رئيسا لأمريكا بعد ذلك .

ولما قابل الزعيم السوفييتى خروتشيف قال له الزعيم السوفييتى أنا سبب نجاحك فى الانتخابات فلولا أننى اطلقت سراح الطيار الأمريكى الذى اسقطناه عندنا لتغلب عليك نيكسون .

فرد كيندى أرجوك لاتنشر هذه القصة التى تدل على أنك

تحبني ، حتى لايخرب الشعب الأمريكى بيتى وبيت أبى .

وعندما زار فرنسا سنة ١٩٦٣ مع زوجته جاكلين التى تتحدث الفرنسية بطلاقة بهرت بها الرئيس ديجول أعلن فى مؤتمر صحفى لقد كنت الرجل الذى رافق جاكلين كيندى واعترف لكم إننى استمتعت بهذه الرحلة !

سأله أحد الصحفيين وهو على ظهر طائرة الرئيس ديجول ماذا يحدث لو سقطت بك هذه الطائرة ؟ فأجاب إننى على يقين من أن اسمك سوف يظهر صغيرا جدا فى إحدى الصفحات !

* * *

هذا الرجل الشاب الغنى جدا المرح جدا لم يسمع منه أحد أنه يشكو من الآلام الفظيعة التى يعانيها طول عمره حتى قالت أسرة كيندى أنه عاش نصف عمره فى المستشفيات يخرج من غرفة عمليات ليدخل فى أخرى ولأسباب كثيرة كان يشكو من عموده الفقرى ، وأجريت له عمليات عديدة وادخلت فى ظهره صفائح معدنية وأخرجت وعنده خلل فى الغدة الكظرية ـ أى فوق الكلية ـ وهى ليست منتظمة الافراز . وقيل إن كيندى مصاب بمرض اديسون . وهذا المرض يصيب صاحبه بالضعف العام وانخفاض الضغط وتغير فى لون البشرة فجعلها أميل إلى اللون البرونزى .

وحاولت الأسرة تكذيب اصابته بهذا المرض . ولكن الشائعات تمكنت من جون كيندى واصبحت سلاحا فى أيدى خصومه

السياسيين حتى بلغت قمتها أيام ترشيحه للرياسة ويقال إن أعراض هذا المرض قد ظهرت عليه بوضوح بعد أن اغرقه اليابانيون وعرضوه للهواء والبرد والشمس والارهاق .

ويقال إن مجموعة من الأمراض والمضاعفات هى التى أدت إلى مرض أديسون . أما آلام الظهر فلم ينكرها ولا أسرته ولا اطباؤه . وقد اجريت له أول عملية فى ظهره سنة ١٩٤٥ ثم عملية أخرى فى ١٩٥٤ وفى ١٩٥٥ . وظهر خراج فى ظهره كان يجعل جلوسه ونومه مستحيلا . فكان ينام واقفا . وأحيانا ينام فى البانيو .. وفى سنة ١٩٥٥ نشرت « مجلة اتحاد الاطباء الامريكان » مقالا لطبيب كبير عن حالة مريض — لم يشأ أن يذكر اسمه — وأنه مصاب بمرض أديسون . ولكن بمراجعة الأرقام التى جاءت بالمقال يتأكد للقارئ أنه جون كيندى ، وذكرت الصحيفة الطبية أنه يتعاطى يوميا ٢٥ مليجراما من الكورتيزون . وأنه قد أصيب بمرض اديسون منذ سبع سنوات . ومن نتائج الكورتيزون أن الذى يتعاطاه يكون فى حالة من النشوة وتتضاعف طاقته وإثارته الجنسية . وكلها مشاعر مصطنعه .

فقد كانت هذه حال كيندى ، فهل يصلح رغم ذلك رئيسا لامريكا ؟

والكورتيزون عقار معقد له مضاعفات جانبية مؤكدة . وقد ثبتت قدرته على علاج آلام المفاصل أو اثارتها . وثبت أيضاً أنه يهيج السل النائم .. كما أنه يجعل المرضى يشعرون بخفة ورغبتهم فى الطيران . وبعض

المرضى قفزوا من نوافذ المستشفيات بسبب هذا الشعور القوى ـ وهذا ما قالته مارلين مونرو أيضا . فقد لاحظت أن الرئيس كيندى يخلع ملابسه ويقف فوق السرير ويقول لها أنا النسر الأمريكى .. لا أريد إلا أن أطير .

وتقول مارلين مونرو أيضا . فى إحدى الليالى شرب وانتشى جدا .. وقال لها اجمعى القليل جدا من ملابسك .. أو لا داعى للملابس وقابليني فى عش فى أعلى تلك الشجرة .. وكان يضحك وهى أيضا .

ولم تكن مارلين مونرو تعرف أن هذه النشوة وهذه الرغبة فى الطيران . من أثر الكورتيزون الذى يتعاطاه الرئيس .

وقد أدى تعاطى الكورتيزون إلى إيقاظ السل النائم فى رئتى السيدة اليانورا روزفلت فماتت به سنة ١٩٦٢ .

ولو عرف خصوم كيندى أعراض تعاطى الكورتيزون لنسفوه فى انتخابات الرياسة فمن الذى يختار رئيسا يتعاطى عقارا يصيبه بارتفاع فى الضغط وتفتيت فى العظام وقرحة المعدة والتشنجات المعوية والضغط على شعيرات المخ وماء على العين ، ثم أن هذا العقار ينفخ الوجنتين وجفون العينين و « يخشب » العنق ويصيب صاحبه باضطرابات نفسية تتراوح بين البهجة الزائفة والاحباط المؤكد .

وكانت أمريكا فى نفس الوقت تخوض الحرب الباردة والتجارب النووية وتجارب الاخطبوط الشيوعى الذى امتد إلى قلب أمريكا ـ إلى كوبا . ثم يكون الرئيس عاجزا عن مواجهة كل شىء !

ولم يلاحظ الذين لا يعرفون الرئيس كيندى أنه مريض إلى هذه الدرجة .

وقد عاش كيندى يعانى من كل أنواع الحساسية التى أدت إلى ظهور الدمامل والقروح فى ظهره وصدره وساقيه ومابينهما ، كان يهرش إذا رأى كلبا أو أى حيوان آخر ، ويهرش من تراب البيت ، ومن فراء السيدات . وعندما أهدى مارلين مونرو فراء ثمينا قال لها ولم تفهم : لا تلبسيه لى ، وإنما لكل الناس !

ولما رآها تضع الفراء على جسمها العريان صرخ : ابعدية عنك ! ابعدى عنى ! ولم تفهم هى السبب .

وكانت له طبيبة خاصة ، اصبحت طبيبة البيت الأبيض هى السيدة جانيت ترافل . وهل التى اكتشفت أن أحد أسباب حساسية كيندى . الخيوط المستخدمة فى العمليات الجراحية .

وظن الكثيرون أنه سوف يجعل السيدة جانيت ترافل وزيرة للصحة . ولكنه لم يفعل لسبب آخر . فهو يحتقر المرأة . ويرى أن الرجل أفضل كثيرا وهذا ما تعلمه فى أسرته . فقد كان أبوه وأمه يحرصان على أن يكون للذكور أعظم نصيب فى التعليم والعناية والثروة . أما البنات فلا قيمة لهن . إحدى أخوات كيندى دخلت مستشفى الأمراض العقلية ولم تخرج . وأثناء الحملة الانتخابية للرياسة ، اصيب بالتهاب فى حباله الصوتية وفقد صوته تماما . فكان يكتب ورقة بخطة لاصدقائه ولانصاره يقول فيها : لقد خسرت

صوتى ، ويسعدنى أن أكسب صوتك !

مرة واحدة فوجئ الرئيس كيندى بزوجته جاكلين تقول : لا .. يا سيادة الرئيس كورتيزون !

وكانت أول إشارة منها إلى أنه مريض وإلى أن كل الذى يقوله لا يدرى به ، وأن كل الهيئة النفسية والاجتماعية والاطار الذى اتخذه لعلاقاته بكل الناس ، بسبب الكورتيزون . وإلى أنها تعرف ذلك .. فى ذلك اليوم انفصل الزوجان فى صمت . حاولت أن تعتذر . لم يقبل . حاولت أن تسترضيه لم يقبل . حاولت أن تؤكد له أنها تستعير أسلوبه فى المزاح ، لم يقبل .

ذهبت إلى اخوته .. إلى والديه .. ولكن الرئيس كيندى قد قرر نهائيا أنها لم تعد هناك . وأنه لا يضايقه كثيرا أن تترك البيت الأبيض إلى أى مكان آخر تختاره .. دفعت بطفليها واختها واصدقائه ، ولكن الرئيس كيندى أحس أنه ضرب تحت الحزام فى بيته ومن زوجته .. وقال : إذن أنا كنت أحارب خصومى بعيدا عن المكان الحقيقى لوجودهم !

انتهى . وأمام الناس تدور مسرحية الرئيس الشاب والزوجة الشابة السعيدة . كانت صحفية ثم مصورة صحفية . أمها مطلقة . ولكن زوجها الثانى كان غنيا جدا . وهو الذى أنفق على جاكلين وأختها . فاقامت فى باريس سنوات وعادت فرنسية أكثر من الفرنسيات مولعة بالفن والاناقة والزهور والتطور . وعندما أصبحت

السيدة الأولى وعدت بأن يكون البيت الأبيض متحفا فنيا . ونبهها زوجها إلى أنه لا توجد ميزانية لذلك . فلجأت إلى الأغنياء تطلب منهم ثمن اللوحات والتعديلات على البيت الأبيض . ثم طبعت كتالوجا لهذه اللوحات وراحت تبيعه لاعضاء الكونجرس والشيوخ ورجال الأعمال وزعماء الحزب والمؤسسات والشركات . فجمعت مبلغا كبيرا ساعدها على جعل البيت الأبيض متحفا يزوره الشعب وتتحدث عنه الصحف والتليفزيون .

كاملة خارج أمريكا فى أوروبا والبحر الأبيض ، جزر البحر الأبيض ، وفى جزر اليونان عرفت المليونير أوناسيس وعاشت أياما طويلة على اليخت الخرافى الذى وضعه تحت تصرفها .. وأيام الحملة الانتخابية للرياسة كانت فى أحد المستشفيات تنتظر مولودا . فلم تشارك فى هذه الحملة . قال كيندى : لقد ساعدتنى كثيرا على نجاحى باختفائها فى هذه الحملة القومية !

وظل المرض يثقل على الرئيس كيندى : ولكنه لا يشكو ، لقد كانت حيويته متدفقه . وإرادته حديدية .. وروحه المرحة غامرة . ولكن لون بشرته إمتقع ووجهه انتفخ والخطوط حول عينيه أصبحت غائرة .. ولا يستطيع من لا يعرف أوجاعه ، أن يلاحظ شيئا .

وكان اخوته يتندرون عليه قائلين : مسكينة أية بعوضه تحاول أن تلدغه . سوف تموت فورا .. فدمه مسموم !

وفى يوم دعا عددا كبيرا من زعماء الكونجرس إلى عشاء فى بيته .

وفى آخر لحظة اعتذرت زوجته . كما اعتذر عدد من الزوجات . فوقف الرئيس كيندى يعتذر عن غياب الزوجة فقال : إنها تكره أن تكون من بين الاقلية !

فقال أحد الضيوف : إذن نستدعى بناتنا ياسيادة الرئيس !

فأجاب كيندى بسرعة : ولا تحب أن تكون أصغر الحاضرات سنا !

ولما علمت جاكلين بهذا الاعتذار المرح طلبت من صديقة صحفية أن تعلن الحقيقة وهى أن جاكلين كيندى لا تحب الحياة فى البيت الأبيض . ولا الناس ولا الحفلات .. وكان من رأيها أن كيندى مجنون ، عندما كان يحلم بأن يكون رئيسا لأمريكا . ولا يزال هذا رأيها أيضا !

وكان لجاكلين أربعون رجلا وامرأة يعملون فى السكرتارية الخاصة بها . وكانت الصحف تشير إلى هذه السكرتارية الضخمة . بأنها حكومة جاكلين كيندى !

وفى مؤتمر صحفى سأله أحد الصحفيين « حكومة الظل » لجاكلين كيندى ، فضحك كيندى قائلا : لاتوجد فى البيت الأبيض « حكومة ظل » وإنما هم ظل حكومة وضعت فى الظل .

* * *

هل هو الحقد على أسرة كيندى ؟ هل هو الحسد لأسرة غنية

متماسكة تماما ؟ هل هذا هو التفسير لكثير من القصص والخرافات حول كل فرد من أفراد أسرة كيندى ؟

إن جاكلين نفسها عندما تزوجت جون كيندى ، كان لأحد الأسباب أنه يبدو صغيرا ضحوكا .. وأن اسرته متماسكة ، بينما اسرتها هى ممزقة . فلا يكاد الواحد منهم يشكو من الصداع حتى تتحرك الطائرات والسيارات من كل مكان لزيارته والسؤال عن صحته مهما كانت شكواه تافهة .

وكان أبو الرئيس كيندى عندما يجمع أولاده يشكو من أنهم ينفقون كثيرا جدا . ففى إحدى المرات وقف جون كيندى يقول له : لقد بحثنا هذا الموضوع ورأينا أن الحل الوحيد هو أن تعمل أنت ساعات اضافية !

* * *

وعندما عرفت أم الرئيس كيندى أن خلافا استحكم بينه وبين زوجته سألته . أجاب : ولكن هذه طبيعى يا أمى . فأنا الرئيس وهى مواطن عادى تعايشنى فى أسوأ حالاتى الجسمية والنفسية فلا ترانى رئيسا بينما أؤكد لها دائما أننى الرئيس . فلا نجحت فى اقناعها ولا عندى أمل .. ثم أنها تحقد على .. فأنا أعيش فى هذا السجن الابيض ، وهى تعيش فى السجن الواسع .. فأنا الرئيس السجين ، وهى الزوجة الطليقة .. وإننا لا نلتقى ولا أمل عندى .. وأنا اتمسك بجدران السجن ، وهى تدور حولى سعيدة بما ترى .. وهى ارادت

أن أظل عضوا للشيوخ .. ولكنى اردت أن أكون رئيسا لامريكا .
وهى تذكرنى كل يوم بأيامنا الحلوة عندما لم أكن رئيسا . وهل ترى أن العودة إلى الماضى ممكنة . وأنا أرى ذلك مستحيلا .. فاستحالت الحياة كلها بيننا . فما رأيك أنت ؟

وجاكلين كيندى إلى جانب ذلك سيدة واقعية جامدة جدا ـ بلا قلب ـ فعندما مات أبوها ـ هى التى طلبت أن ترتب الجنازة والورود ونوع الموسيقى المصاحبة للنعش .. وهى التى وجهت الدعوة للأصدقاء .. وهى التى أخرت الجنازة حتى تشترى فستانا أنيقا . ولكى تمر على الكوافير لعلها تجد أحمر شفاه قاتما . وسارت فى الجنازة وحضرت الدفن . كأنها عروس زفوها إلى الموت !

وعندما أغتيل زوجها الرئيس جون كيندى وقفت إلى جوار نائبه جونسون وهو يحلف اليمن . وكانت بقع الدم على فستانها . ثم انها هى التى اختارت حجم الورود والموسيقى .. والضيوف الذين فى الصفوف التى وراءها مباشرة . ثم اشترت عشرين فستانا للصباح وبعد الظهر والمساء والسهرة .. وهى التى اختارت الشرائط السوداء فى شعر ابنتها والعلامات السوداء ليضعها ابنها على كم الجاكتة !

وسوف نكمل حكاية جاكلين كيندى السيدة الأولى والتى لم تعد أولى !

١٠- ثلاث سيدات من كارثة إلى كارثة أكبر!

عندما ولدت زوجة الرئيس جونسون وصفها الأطباء بأنها صغيرة وفى غاية الحيوية كالخنفساء . والتصق بها هذا الاسم : ليدبيرد .. ولكنها كانت تكتبها كلمتين بدلا من كلمة واحدة : ليدى بيرد !

وعندما أصبحت السيدة الأولى لأمريكا (٦٣ ـ ١٩٦٩) ندمت على أنها لم تغير شيئين : اسمها وانفها !

وهى طفلة يتيمة احتضنتها خالتها . وعلمتها كيف تقرأ وتتذوق الأدب ولكن لم تعلمها كيف تسوى شعرها أو ترتدى فستانا تمشى ألوانه مع الحذاء والحزام .. ولذلك عندما أصبحت السيدة الأولى كان اهتمامها بالموسيقى والفن والشخصيات الأدبية . وفى إحدى حفلات البيت الأبيض بكت المطربة فوجان وهى تقول : شيء عجيب .. لقد جئت إلى العاصمة الأمريكية أبحث عن غرفة صغيرة رخيصة فلم أجدها ، والآن أغنى فى البيت الأبيض ، ثم يطلب منى الرئيس الأمريكى أن أرقص معه . إن هذا أكثر مما تحتمل اعصابى !

فنهضت السيدة ليدى بيرد جونسون تقول : بل يجب أن تكون

أعصابك أقوى لتتحمل المفاجأة التالية : إننى ادعوك للعشاء والغناء فى الأسبوع القادم !

ظلت السيدة الأولى ليدى بيرد جونسون فى حالة من الذهول عندما انتقلت إلى البيت الأبيض لاتعرف ما الذى يمكن أو يجب عمله .. فقبلها عدد كبير من سيدات البيت الأبيض لم يتركن شيئا لم يعملنه فى الإدارة والحفلات وتغيير معالم الجدران والسقف والحديقة واطقم الموظفين .. قالت عن نفسها : إننى واحدة من المتفرجين فوجئت بأنهم حملوها إلى المسرح لتقوم بدور البطلة ، مع أنها لم تقرأ نص المسرحية ولم تتدرب عليه !

وهى لاتعتبر من سيدات البيت الأبيض الأنيقات . ولكن من أكثرهن تدبيرا واقتصادا وحساب كل شىء بالورقة والقلم .. والألم أيضا .

ويوم اغتيال الرئيس كيندى استعارت فستانا أسود من إحدى صديقاتها . ثم اعادته إليها دون غسيل أو مكوى !

وكانت هى التى تكتب خطاباتها على الآلة الكاتبة . وهى التى تلقى بالخطابات أيضا . وكانت تحتاج إلى أن ينبهها أحد إلى أنها السيدة الأولى وليس عليها إلا أن تشير فتفتح أبواب السماء والأرض ويصبح البعيد قريبا والمستحيل ممكنا . وكانت تطلب إلى سكرتيرتها أن « تقرصها » من حين إلى حين لكى تعرف من هى ، وأنها لم تعد زوجة زعيم الأغلبية أو نائب رئيس الجمهورية ..

وكان من أحلام ليدى بيرد أن تكون صحفية .. ولكن لم تعجبها الصحافة لأنها « تلخبط » حياة المرأة .. ثم تجعلها مشردة فى الشوارع ليلا ونهاراً .. وتجعلها تعيش على السندوتشات .. وهى ، على عكس الشعب الأمريكى كله ، لاتحب السندوتش .. إنها تحب أن ترى الطعام فى الأطباق على المائدة . وأن تجلس وتأكل وتمضع وتستطعم على مهل .. ولكن دراستها تؤهلها لأن تكون مدرسة .. واختارت مهنة التدريس لأنها من الممكن أن تعيش بعيدا .. تعيش فى الشمال فى الاسكا .. أو فى أقصى الغرب فى جزر هاواى .. وبعد أن تعمل بعيدا وفى هدوء سوف تختار زوجها على مهل . وفجأة فشل كل هذا التخطيط فقد تحدث إليها شاب فى بلدها طويل عريض . كان يعمل سكرتيرا لأحد أعضاء الكونجرس . قابلها . جلست إليه . استعرض كل تاريخ حياته ، وأنه فقير غلبان عنده طموح . وبسرعة أدخلها فى حياته فوجدت نفسها تفكر فيه من أجله . وبعد ثلاثة شهور من المكالمات التليفونية والخطابات . طلب إليها لقاء عاجلا وقال لها : نتزوج غدا . ما رأيك ؟ موافقة ؟!

ولم تعرف بالضبط ما الذى اعجبها فيه . ولكنها معجبة به عموما . ربما لأن فيه شبها كبيرا من والدها . ووجدته الرجل المناسب .

ولم تكن ليدى بيرد صاحبة طموح كبير ولكنها تريد أن يكون لها دور فى الحياة العامة وفى حياة زوجها . كان عندها فلوس . اشترت بالفلوس إحدى محطات الإذاعة .

ثم اشترت هى واسرتها محطة تليفزيون . وكسبت الأسرة من هذه المحطة كثيرا جدا . فقد نجحت فى إدارتها . ولما سئلت عن سبب هذا النجاح الهائل قالت لست وحدى . ولكن معى عدد كبير من المواهب الفنية حتى بعد وفاة زوجها ظلت تدير هذه المحطة .

أما زوجها الرئيس جونسون فهو مثل كل رعاة البقر . ملىء بالحيوية والخشونة . ومثل كل الفلاحين قوى الذاكرة لاينسى من أهانه ، ويتذكر ذلك ويتوعد ، ثم ينتقم فى هدوء . وفى إحدى المرات وجدت زوجها يفتح حقيبة صغيرة ويخرج منها ورقة ويمسك قلما ويشطب . وسألته فقال : إنهم تسعة أهانونى . ولابد أن ارد لهم هذه الإهانة . وقد نجحت فى الانتقام من ستة !

وكان ينتقدها أمام الناس . فيقول لها : جوربك سقط .. إعدليه.. أو يقول لها : هذا الفستان يجعلك كالفيل. أنهضى.. غيريه!

وفى مؤتمر صحفى قال : عندى صداع فقد امضيت ليلة وردية مليئة بالأظافر الحادة فى كتفى وفى ظهرى !

واندهش الصحفيون . ولكن هذه الصراحة غير العادية شجعتهم أن يسألوا السيدة الأولى عن الورد والشوك فى فراش الرئيس .
فقالت : إن نكت الرئيس مثل نكت رعاة البقر : خشنة !

وفى سنة ١٩٦٢ صدر فى أمريكا كتاب «المستنقع الهادئ» للعالمة الأمريكية راشيل كارسون . موضوع هذا الكتاب أن المبيدات الحشرية قد قتلت الطيور والفراشات والضفادع .. فهدوء المستنقع هو

هدوء الموت وطالبت بالاقتصاد فى استخدام هذه المبيدات القاتلة للطيور والحشرات والتى سوف تقضى على الإنسان !.

وقد اعجبت السيدة الأولى ليدى بيرد بالكتاب وصاحبته ودعت إلى جمال العاصمة الأمريكية بالتوسع فى الحدائق والزهور والاقتصاد فى استخدام المبيدات .. وكان شعارها : من أجل عاصمة أجمل وذوق أرفع .. ومشاعر أرق ..

وآمنت السيدة الأولى ليدى بيرد أن سبب انتشار الجريمة فى أمريكا هو الزحام والضوضاء والتلوث .. فإذا ماتت الضوضاء وتناقص الزحام ، هدأت الأعصاب ، ونقصت الجريمة !

وهى التى دعت إلى سرعة اعلان وفتح اشارات المرور حتى لاتتوقف السيارات طويلا عند المفارق وفى الميادين .. وتقول : إنها لاحظت السائقين يتصايحون ويتشاجرون إذا طال الوقوف عند إشارات المرور ..

وتقول : إن نصف الأكواب التى تتحطم فى حفلات البيت الأبيض بسبب اصطدام الضيوف بعضهم ببعض فلو كان عددهم أقل ، ما انكسر كوب أو طبق إنه إذن الزحام !

أما دورها فى البيت الأبيض فهو إقامة الحفلات والحديث عن الرئيس إذا اتيحت لها فرصة . ولكن لا شأن لها بالسياسة الداخلية أو الخارجية وكانت تقول دائما : إن قربى من الرئيس . ليس باعتباره رئيسا ، ولكن باعتباره زوجا .

أما القضايا الإنسانية التى تهتم بها كحقوق المرأة والتفرقة العنصرية ، فهى من المشاكل الصغيرة التى لا تلفت الرئيس ، فعند الرئيس كارثة حرب فيتنام .. وعداء الشعب الأمريكى لسياسة جونسون . وكانوا يتظاهرون ضده قائلين : ليس عندنا وقت للعمل . عندنا وقت للسير فى جنازات أبناء أمريكا فى فيتنام !

خلاصة حياتها فى البيت الأبيض : دخلته بملابس الحداد ، خرجت بغيرها .. ولكن أكثر تعاسة !

* * *

« بات » نيكسون هى السيدة الأولى التى جاءت بعد ذلك ، ترددت على البيت الأبيض كثيرا جدا فى عهد ايزنهاور وترومان . فلم يكن غريبا عليها .. ولكنها ارادت أن يكون لها دور . أما زوجها فلم يعطها هذه الفرصة . بل لم يذكر اسمها فى آية مناسبة . وإذا ذكر فيشير إليها بيده متحدثا عن صمتها وصبرها ــ أو ضرورة أن تتجمل بالصمت والصبر وأن تقفل فمها ولا تتكلم لأنه هو وحده الذى سوف يفعل ذلك كثيرا ..

والمؤرخون يلومون زوجها لأنه لم يتح لها فرصة واحدة تؤكد فيها قدرتها على العمل .

ومعظمهم يقولون بل إنها بلا موهبة ، فالبيت الأبيض قد فضح عجزها تماما ..

ففي عهد التليفزيون ومواجهة الشعب كانت سيئة الحظ ، فهي تستطيع أن تكون لبقة ذكية إذا تحدثت إلى ثلاثة أو خمسة من الناس .. أما مواجهة الملايين من الأمريكان فكان شيئا مستحيلا . ولذلك تفادت أن تظهر على الشاشة التي انفرد بها زوجها ..

أبوها ايرلندى . أمها ألمانية هاجرت إلى أمريكا ومعها طفلان .. ثم تزوجت مرة ثانية وانجبت ولدين وبنتا هي التي أصبحت زوجة الرئيس نيكسون . ولم تعش الأم لترى أن وطنها الجديد قد صار أقوى وأغنى وأعظم ، وأن ابنتها أصبحت السيدة الأولى .

«وبات» كانت رقيقة الصوت هادئة الطبع ولكن ارادتها من حديد ، فهي الحرير والحديد معا . أما زوجها فهو الحديد العنيد . وعدها ألا يعمل بالسياسة وخلف هذا الوعد ست مرات ..

وبعد وفاة أمها وأبيها راحت تعمل في المطاعم تمسح البلاط وتغسل الأطباق . وتدخر المال . ثم عملت في توزيع البريد . ثم في توزيع الصحف . ثم عملت ممرضة في عيادة أحد أطباء الأشعة في نيويورك .

وجمعت مبلغا من المال لكى تكمل دراستها الجامعية لعلها تعمل مدرسة أو سكرتيرة . وقد ساعدت زوجها في حملاته الانتخابية بأموالها ..

أما في وقت فراغها فكانت تغسل ملابس زوجها وتكويها وتقرأ له الصحف .

وفى النشاط السياسى لزوجها رافقته فى كل مكان .

وعندما صار رئيسا لأمريكا سافرت كثيرا فى داخل أمريكا وفى خارجها .. وهاجمت شعوب أمريكا اللاتينية سيارتها وضربوها بالطوب ، احتجاجا على سياسة زوجها .. وهاجموا الاثنين معا وكادت الجماهير فى إحدى الدول اللاتينية أن تفتك بالرئيس وزوجته ..

وفى حفلات البيت الأبيض كان يشير إلى زوجته .. فتقول هى : يقصدنى ..

وكان لايدرك النكتة ويمضى فى الحديث عنها وعن نشاطها فى البيت ..

وحاولت السيدة بات نيكسون أن تداعب زوجها أمام الضيوف فقالت : من عادة زوجى بعد تناول العشاء أن ..

فقاطعها قائلا : أن ينام !

ومرة أخرى حاولت السيدة بات نيكسون ان تخفف الجو المكفهر فى البيت الأبيض ، فوقفت تقول : من عادة زوجى بعد تناول العشاء ..

فقاطعها قائلا : أن ينام .

فمضت تقول : متجها إلى المحيط الأطلسى ، لأننى أتأمل المحيط الهادئ ! تقصد انهما ينامان ظهرا لظهر !

ولكنه لايريدها أن تداعبه ولا يريد أن يضحك !

وفى أحد أعياد ميلاد الرئيس نيكسون أرادت أن تفاجئه بحفلة

صغيرة . واختارت له مطربة يحب صوتها . وعددا محدودا من الأصدقاء . وحتى لايحاسبها على تكاليف هذه الحفلة . علقت ورقة فى كل الهدايا وفى التورتة مكتوبة عليها اسم الذى أهداها للرئيس .. وبدلا من أن يبتهج الرئيس بالمفاجأة وبالمنظر العام للطعام والورود والشموع والبهجة فى وجوه الجميع ، فإنه اتجه مباشرة يقرأ اسم أصحاب الهدايا . ثم أخرج منديلا من جيبه ووضعه بين الهدايا قائلا : إننى لم أر هذا المنديل من قبل .. فمن الذى وضعه فى جيبى ..؟

وأخرج قلما ليكتب اسم صاحب المنديل .. فاقتربت زوجته تقول : إنه هدية منى !..

فكتب الرئيس اسمها على المنديل ..

• فمدت يدها والقت بالمنديل الذى اتسخ من حبر القلم فى سلة المهملات وهى تقول : لقد افسدت الهدية وكل الهدايا وهذه المناسبة ! !

ثم استدرجته إلى مكتبه وأجلسته . وأغلقت الباب وراءها بهدوء .. وذهبت إلى حفلة عيد ميلاد الرئيس فى غيابه .. وبعد ثلاث ساعات خرج الرئيس نيكسون من مكتبه يسأل : إن كانت هناك أية مناسبة للورود الكثيرة فى مكتبه ولقطعة التورتة التى أمامه !

وكانت فضيحة الرئيس نيكسون سنة ١٩٧٢ .. فضيحة « ووترجيت » أى التصنت على المعارضة . أنكر ذلك أول الأمر . ثم

اعترف . وكان لابد أن يستقيل سنة ١٩٧٤ ـ أول رئيس أمريكى يستقيل !

وفى البيان الشهير الذى وجهه إلى الأمة تحدث عن طفولته وعن حياته وعن النشأة الدينية وعن أمه التى هى « قديسة حقا » . وعن زوجته ، دون ذكر لاسمها ، وعن صبرها واحتمالها العذاب إلى جواره .

وليس صحيحا مانشرته الصحف الأمريكية من أن زوجته قالت له بصوت مسموع من الجميع : لقد هدمت حياتى !

لأنها وقفت معه دائما . فهى تحبه وتحترمه وتعجب به وترى أن القسوة فى حياته هى التى جعلته قاسيا على نفسه وعلى غيره . ولم يكن سيئ النية أو الأدب . تماما كما يراه الناس متجهما لا لأنه غاضب على الناس جميعا ، ولكن بسبب مافى داخله من هموم عامة وخاصة ..

وجاء من بعده الرئيس فورد . وعند زيارة نيكسون للرئيس فورد فى البيت الأبيض ، تناول الغداء . ثم ركب الجميع طائرة هيلوكوبتر : أسرة نيكسون وأسرة فورد . ومن نافذة الطائرة وجدت زوجة نيكسون أنهم يسحبون البساط الأحمر من فوق أعشاب البيت الأبيض .. فقالت لزوجة الرئيس فورد : لاتغضبى سوف ترين ذلك كثيرا .. وسوف يزداد احتقارك لكل طوبة وعود عشب فى البيت الأبيض !

* * *

استغرقت رياسة الرئيس فورد ٢٧ شهرا ، لم تكن حياته وزوجته هادئة . فالمشاكل كثيرة فى الداخل والخارج . ولم يكن معروفا بالضبط ما الذى تستطيعه السيدة الأولى بتى فورد وإن كان زوجها يساعدها فى بعض اهتماماتها الاجتماعية . ولكن إذا عرضت عليه مشكلة ، أو حل مشكلة ينهض واقفا ويقول : إبعدى عنى !

وكان يفعل ذلك كثيرا ، حتى كانت تناديه : سيادة الرئيس إبعدى عنى !

ولما سئلت عن التعاون بينها وبين زوجها كانت تقول : ليس لديه أى استعداد فى أى وقت أن أناقشه أو أشاركه فى أى شىء .

وكان يقول لها : أنا اكره الهواة .. هواة السياسة والاقتصاد .. إن الرئيس الأمريكى هو الرجل الوحيد فى العالم الذى يحاط بأعداد هائلة من الخبراء .. وهو الهاوى الوحيد ! ومن العجب أن كل هؤلاء الخبراء لايستطيعون شيئا بدون الهاوى الوحيد فى البيت الأبيض .. إنهم اضعف الخبراء ، وأنا أقوى الهواة !

وكان يقول لها : البيت الأبيض يكفيه واحد من الهواة !

ولكنها اعترفت أيضا : كانت لنا مناقشات تحت اللحاف !

وقد شاهد كثيرون من ضيوف البيت الأبيض أن الرئيس يأخذ برأيها فى كثير من القضايا الاجتماعية . وكثيرا مايقول : على رأى زوجتى بتى .. أو هذا ماتؤمن به بتى .. وأنا أؤيدها .. أو يقول ليست عندى فكرة واضحة ولكن هذا سمعته من بتى ..

أو يقول : بعد مناقشة طويلة مع بتى فى الأيام الأخيرة ، وجدت الحق معها !

ولكنها كانت ترى أنه من غير المناسب أن تقول إن الرئيس يأخذ برأيها أو بوجهة نظرها ..

لقد تزوج الرئيس فورد من بتى وكانت مطلقة فى السادسة والعشرين من عمرها ، وعايشت كفاحة السياسى فى الكونجرس . وأعلنت كثيرا أنها لاتستطيع أن يكون لها أى دور سياسى . فهى ليست مؤهلة سياسيا لذلك .. رغم أنها شاركت فى حملاته الانتخابية . وفى سبع سنوات أنجبت له ثلاثة أولاد وبنتا . واستغرقتها حياتها العائلية ..

وكانت تقول دائما : إن أمى هى أهم شخصية فى حياتى .. وسوف يقول أولادى كذلك ـ فهم لايرون أباهم معظم الوقت !

وقد اعتادت بتى فورد أن تقود سيارتها وأن توصل أولادها إلى المدارس . وكانت تساعدهم على المذاكرة . وعندما تطلب منها إدارة المدرسة خطابات وتعهدات من الأب ، فكانت توقع بالنيابة عنه وتقول : نظرا لانشغاله السياسى !

وقد أعجب الناس بصراحة وبساطة بتى فورد . ففى إحدى المرات ظهرت فى التليفزيون لتقول للمذيعة : لعلك تلاحظين إننى أبدو « مدروخة » ـ هذا صحيح . فأنا لا أنام بغير حبوب منومة !

وأحس الشعب الأمريكى أنها سيدة بسيطة . وأنها صادقة . وأنها لاتخفى متاعبها . ولا تجد حرجا فى أن تقول ذلك !

وقد أحبها الفنانون ـ لأنها تحب الفن .. الرسم .. الموسيقى .. الغناء .. وأنها تلقائية فى مشاعرها !

وفجأة عرف الناس أن هذه السيدة اللطيفة الظريفة مريضة بالسرطان . وإنها أعلنت ذلك أكثر من مرة فى التليفزيون . وقالت دائما : ولكننى ما أزال قادرة على الضحك وعلى الاستمرار !

واهتزت قلوب الناس لهذه السيدة البسيطة جدا .. الصريحة .. المريضة .. المحبة للأسرة والتى تشكو من متاعب الأمومة ..

وقد لاحظ المؤرخون أن الذى كتبته الصحف عن هذه السيدة الأولى أضعاف ما نشرته عن زوجها . حتى قالت إحدى الصحف إنه يمكن أن يقال إن الرئيس فورد هو زوج السيدة بتى فورد ، ولن يغضب الرئيس لذلك .. فالناس يحبون زوجته أضعاف حبهم له ـ إن كان أحد يحبه !

وبعد خروجها من البيت الأبيض نشرت لها إحدى المجلات النسائية حديثا قالت فيه : إن البيت الأبيض هو أشهر أنواع السجون فى العالم .. والرئيس هو أكثر السجناء حركة فى هذا البيت .. أما أنا زوجة الرئيس فأنا أقل الناس دراية بما يحدث فى هذا البيت .. وقد دخلت البيت الأبيض وكما خرجت منه : لا أعرف بالضبط ما الذى حدث .. وأرجو أن يتسع وقتى لكى أعرف ذلك !

* * *

إنهن سيدات الكارثة :

كارثة اغتيال جون كيندى ..

وكارثة فضيحة ووترجيت ..

واستقالة ريتشارد نيكسون ..

وفى ظل الكارثة وبسببها وخوفا من تكرارها . عاش رجال فى رعب ، وعاشت نساء فى قلق لتتصدع جدران البيت الأبيض !

١١- بربارا بوش: الثعلب الأبيض!

السيدة برباره (٦٤ سنة) زوجة الرئيس الأمريكى الواحد والأربعين جورج هربرت ووكر بوش أصغر منه بأربع سنوات . لا تخفى سنها . كما لا تخفى التجاعيد فى رقبتها ولا عدد الأسنان التى سقطت لها .. ولا متاعب الشيخوخة . فالعلاقة التى بينها وبين زوجها قوية . وقد اجتازا معا عددا كبيرا من المتاعب النفسية والعائلية والاجتماعية والسياسية .. بلا خوف على الحب والتفاهم بينهما ..

إنها سيدة عادية جدا بسيطة وصريحة . تحب أن يكون أولادها الخمسة وأحفادها العشرة معها فى كل مكان .. بل إن كلبها الصغير تفسح له مكانا دافئا بينها وبين زوجها فى السرير . لا هو اشتكى ولا هى غيرت رأيها أو وضعت للكلب سريرا إلى جوارهما ..

تحكى كثيراً إنها أثناء إحدى الحملات الانتخابية نزلت فى أحد الفنادق . ونسيت البشكير فى بيتها ــ لها بشكير خاص .. وفوجئت بأن الجرس يدق .. إنه الجرسون جاء بطعام الإفطار .. وفوجئ بأن زوجة رئيس الجمهورية القادم قد لفت البشكير حول بعض جسمها . أما دهشة الرجل والفزع الذى تولاه ، فشىء لا يوصف . ولم تعتذر . وإنما

وقفت وتفحصت الطعام ووقعت على الفاتورة ورافقت الجرسون إلى الباب الخارجى وهى تشكره . أما الذى سوف يقوله الجرسون بعد ذلك ، فلن يصدقه أحد !

وهى مختلفة عن نانسى ريجان التى ليس حولها أولاد ولا أحفاد .. وكل شىء فى حياتها معروف : مقاسها ١٤ وعمرها ٦٣ سنة ومجوهراتها كلها فالسو ومستعارة .. ثم إنها تسوى شعرها بنفسها . وتحب أن تداعب زوجها ـ هذه نانسى ريجان . أما برباره بوش ، فهى لا تداعب زوجها . وتذهب إلى الحلاق . وتقول إنها بمجرد النظر إلى زوجها تعرف بالضبط أى نوع من الكلام يريد .. أو إنه لا يريد منها ولا كلمة !

وتقول بربارا بوش : إننى الآن أكثر حرصا على كل كلمة أقولها من أى وقت مضى .. فالناس يتصورون أن كل كلمة هى رأى الرئيس .. وإنهم يعرفون اتجاه الأحداث من كلماتى . ولذلك فأنا لا أريد أن أحمل الرئيس فوق ما يطيق !

وتقول : يجب أن أكون على علاقة طيبة بكل الناس .. من أحب ومن لا أحب .. والسبب فى ذلك إننى محسوبة على الرئيس .. ولا أريده أن يخسر أحدا .. أى أحد !

وهما متزوجان من ٤٧ عاما . وتنقلا معا فى ٢٣ مكانا فى الولايات المتحدة وخارجها . وقبل أن يعيشا فى البيت الأبيض ، بدأت حياتهما فى شقة صغيرة جدا .. لم تكن لها « دورة مياه » وإنما كانت لها دورة

مياه مشتركة مع « بيت سرى ».. وكان على الرئيس بوش أن ينتظر الغانيات وهن خارجات مخمورات وحدهن أو مع غيرهن من الرجال !

ومن الأحداث الأليمة فى حياتها وفاة ابنهما الصغير بالسرطان . ومنذ ذلك الحين وهى تعنى بمرضى السرطان وتجمع المال لهم من المؤسسات والشركات والوزارات .

ولهما عادات متشابهة . مثلا : هى تذهب قبل أى موعد بساعة . أما هو فيجىء قبل الموعد بعشر دقائق ..

لهما أصدقاء كثيرون جدا . كتبت هى كشفا بأسمائهم فكانوا خمسة آلاف .. هؤلاء يجيئون إلى البيت الأبيض دون موعد سابق .. فلا يعترض أحد على ذلك . ويقابلهم الرئيس فى أى وقت . بعضهم يجئ ومعه طعام وشراب ـ تماما كما كانوا يفعلون قبل أن يصبح بوش رئيسا لأمريكا ..

* * *

أما كيف تزوج جورج وبربارا .. فقد كانا فى إحدى الحفلات . هو ضابط طيار . وهى ابنة رئيس مجلس إدارة إحدى الشركات . طلبها أن ترقص معه . نهضت وتعلقت من رقبته ، ولم تترك رقبته حتى الآن . تقول وهى تضحك والناس أيضا : إننى تزوجت أول رجل قبلته !

وهو يقول : تزوجت أول امرأة قبلتها ..

ويضحك الاثنان فتقول هى : أنت الذى قبلتنى أولا ..

وهو يقول : أبدا .. أنت التى احتضنتنى بقوة فوجدت فمى قريبا من فمك !

وفى الحفلات العائلية يطالب الأولاد والأحفاد من جورج وبربارا أن يقوما بإعادة مشهد القبلة التى أدت إلى الزواج !

ومن المشاهد التى يحب بوش أن يرويها كيف أن اليابانيين أسقطوه بطائرته سنة ١٩٤٤ .. أصابوا الطائرة فهبط بالمظلة وانتشلته إحدى قطع الأسطول الأمريكى .. وكادت أسماك القرش أن تأكله .. ويضحك بوش قائلا : لقد دارت حولى أسماك القرش .. ولما اقتربت من وجهى شموا رائحة بأرقام بربارا فابتعدت جميعا !

وبعد وفاة ابنهما لاحظ بوش أن زوجته قد غلبها الحزن وعزلها عن الناس فقال لها النصيحة التى لم تنسها قط : اسمعى .. ان الأمهات التى تفقد ولدا من أولادها تفقد زوجها بعد ذلك .. لأنهما لا يتكلمان معا !

وخرجت عن حزنها وعادت إلى زوجها وإلى الحياة معا والكلام معا والكفاح معا ..

وتقول بربارا أن أهم أحداث حياتهما عندما أصبح زوجها مديرا للمخابرات الأمريكية . فقد دخلت حياتهما مرحلة الصمت التام .. فزوجها لا يتكلم ولا يعلق على الأحداث . ولا يحكى لها ماذا فعل ولا أين كان حتى خيل للزوجة فى بعض الأحيان أن هناك امرأة أخرى سألته فقال : واحدة فقط ؟! هناك ١٤ ألفا فى أمريكا وضعف العدد فى بقية القارات !

وفى أحيان كثيرة كانت إذا بدأت تحكى إحدى القصص يقول لها : أعرف ..

فتندهش : كيف ؟

فيقول : هل نسيت إننى مدير المخابرات وانى أعرف كل ما يدور فى هذا البيت وفى غيره !

ولم تتغير عادات جورج بوش .. فهو يقرأ الصحف فى السرير ويتناول طعام الإفطار أيضا . ويطلب إليها أن ترد على الخطابات التى تجىء إليه .. أما خطاباتها فهى تحتفظ بها .. إنها بعشرات الألوف .. وتنقلها معها فى صندوق كبير من مكان إلى مكان . ولهذه الخطابات فهرس بالاسم والتاريخ .. وتقول إن خطابات الناس ثروة ومتعة .. إنها رأى عام انتقل به من مكان إلى مكان !

فى أول أيام الرياسة عرض عليها الرئيس بوش أن تحضر ـ ولو مرة واحدة ـ اجتماع مجلس الوزراء . فكانت تقول إننى مثل نانسى ريجان ، ولست مثل روزالين كارتر .. فروزالين كارتر كانت تحضر اجتماعات مجلس الوزراء وتناقش ويكون لها رأى .. وكانت الصحف تقول إنها أقوى امرأة فى أمريكا ..

ولكن بربارا ترى أنه يجب الفصل بين بيتها ومكتب زوجها .. وبين زوجها وبين الرئيس الذى هو زوجها أيضا .. وإنه يجب احترام التجربة والخبرة .. فالوزراء والمستشارون أصحاب خبرة وأعباؤهم ثقيلة ويجب ألا يضيع وقتهم فى مجاملة حرم الرئيس ماذا تقول وأين تجلس .. وكيف يردون على آرائها أو يحترمونها ..

أما الرئيس الأمريكى نيكسون فكان أخبث من الجميع فقد دعا زوجات الوزراء إلى حضور اجتماع مجلس الوزراء . ودخل هذا الاجتماع فى التاريخ الأمريكى على إنه أسخف جلسة عائلية عرفها الإنسان .. فلا الوزراء أفلحوا فى الكلام أو المناقشة .. ولا شعرت الزوجات بإنه متعة .. فقد كان حضور الزوجات باعثا على الحرج والضيق .. وكان ذلك أول وآخر اجتماع مشترك للأزواج والزوجات !

فى يوم طلب الرئيس بوش من زوجته أن تحضر اجتماع مجلس الوزراء الذى سوف يناقش قضية مرض الإيدز .. وحجم المعونات المالية التى سوف يقدمها .. فاعتذرت بربارا وقالت : سوف اكتب مذكرة . والرأى للوزراء بعد ذلك ..

وطلبوا إليها أن تحضر لمناقشتها . ولكنها اقترحت أسماء بعض الأطباء والخبراء .. وقالت : سوف أدخل التاريخ على أنى أول زوجة رئيس أمريكى ترفض دعوة مجلس الوزراء بالحضور للمناقشة !

وعلى الرغم من أن بربارا تحب المرح والمناقشة ، فإنها تضيق بالنقد الذى يوجه للرئيس .. وكانت فى أول الأمر تستدعى كل من هاجم الرئيس لتناقشه وتقنعه . ولكن لاحظت بعد ذلك أن الذين تستدعيهم من رجال الصحافة والتليفزيون ينشرون تفاصيل ما دار بينها وبينهم ويضيفون إلى ذلك أن أحد زراير فستانها له خيط مختلف عن بقية الزراير وإنها نسيت « بنسة » فى شعرها .. وإنها عصبية لأنها جاءت للقائهم دون أن تكمل الماكياج فى وجهها .. إلخ .

فقررت بعد ذلك ألا تناقش أحدا من الذين ينتقدون زوجها !

قالت لها زوجة رئيس دولة شرقية : ألا تخافين من الحسد ؟

فتساءلت : ولماذا ؟

ـ أنت تظهرين فى الصور مع أولادك وأحفادك .

ـ وما الذى يمكن أن يفعله الحسد .. هل يؤدى الحسد إلى عدم تزايد الأولاد والأحفاد .. أما الأولاد فيستحيل أن يزيد عددهم .. أما الأحفاد إذا لم يزد عددهم ، فهذا العدد يكفى !

ولما سألوها : ما هى أحب الألوان للرئيس ؟

ـ الألوان البهيجة ..

ـ وما هى أحب الأطعمة ؟

ـ اللحم والصلطة ؟

ـ وما هى أحب المشروبات ؟

ـ النبيذ .. قليلا ..

ـ ما هى آخر نكتة ؟

ـ الآن ؟ الرئيس لم يعد يضحك إلا فى الصور فقط !

ـ هل يختار لك فستانيك ؟

ـ هو ؟ ! أنا التى اختار له بدله .. واحذيته .. ليس عنده وقت ولم يعد قادرا على أن يركز نظرته إلى أى شىء .. وأنا أطلب إلى أولادنا إذا وجدوه وحده ألا يقتربوا منه حتى لو كانوا على موعد معه .. وإذا اقتربوا منه أن يهزوه حتى يعود إلى وعيه فيراهم بوضوح .. وإذا وجدوه غير قادر على أن يسايرهم ، فليخرجوا فورا من الغرفة ..

سألتها صحفية أمريكية جريئة :

آخر قبلة للرئيس ؟
ـ إننى أقبله كثيرا ..
ـ أقصد آخر قبلة منه هو؟
ـ لا أذكر ذلك !
ـ هل يحب الأطفال ؟
ـ الأطفال يحبونه جدا .. ومن المشاهد المألوفة فى بيتنا أن تجد أطفالا يجلسون على مكتبه .. أو يضعهم على كتفيه ويمضى فى القراءة أو الكتابة ..

ومن المشاهد المضحكة فى مجلس الوزراء أن يضع الرئيس يده فى جيبه فيجد بعض الشيكولاته والبومبون الذى اعتاد أن يقدمها للأطفال !

وفى حديث تليفزيونى سألوها عن رأيها فى أحداث أوروبا . وكان ردها : عندى رأى .. ولكن لا أحب أن أعلنه ، حتى لا يتصور أحد أن هذا هو رأى الرئيس وأنا أردده .. فأنا لست إلا زوجة للرئيس الأمريكى ، ولست الرئيس ولا مستشاره ولا أحد وزرائه !

هل أنت سعيدة بحياتك إلى جوار الرئيس ـ هذا سؤال تسمعه ألف مرة فى اليوم . ويكون جوابها : أن أكون مع جورج هذه هى سعادتى .. سواء كان رئيسا للدولة أو للمخابرات أو لم يكن شيئا بعد ذلك . وقد امضينا أسعد أيامنا ، ولم يكن رئيسا .. ولكن يضاعف سعادتى أن يكون الرئيس ناجحا . فالنجاح تتويج لجهود مضنية بذلها فى طريق طويل صعب إلى القمة .. وإذا كان الطريق صعباً فإن القمة

أصعب .. إنني أعرف التعب والعناء والأرق والقلق الذى يصيب الرئيس .. وليس الآن موعد رواية كل ذلك !

* * *

أما صديقات بربارا بوش فلهن رؤية أخرى . فهن يرين السيدة بربارا لطيفة رقيقة .. تتظاهر بأنها لا تعرف أو أن الذى تعرفه قليل جدا .. أو لم يتسع وقتها فى البيت الأبيض ومع أولادها وأحفادها لأن تتابع مايجرى فى البيت الأبيض أو فى العالم . وهو كلام معقول ومنطقى . ولكن بعض صديقاتها المقربات يؤكدان أن لديها رؤية واضحة تماما عن كل أحداث أمريكا والعالم . وإنها دون أن تطلع الرئيس ، اختارت لها عددا من مستشارى الرئيس يشرحون لها كل الأحداث .. فقط لكى تعرف . ولكى تجد ما تقوله إذا جلست إلى أولادها أو إلى الرئيس .. وفى بعض الأحيان تعترف لصديقاتها المقربات جدا اتفاقها واختلافها مع سياسة أمريكا .. بل هى أول من قالت : إن جورباتشوف هذا هو أعظم رجل فى هذا القرن .. وإنه خطر على الشيوعية بقدر ما هو خطر على الرأسمالية لأنه قد زعزع الاثنتين فى وقت واحد .. ولكن الذى ينظر إلى عينى جورباتشوف وأسنانه يدرك إنه أمام رجلين إحدهما من حرير والآخر من حديد !

وكانت أصدق من عبر عن جورباتشوف وأول من أدرك خطورة هذا الرجل على العالم كله ..

ولذلك أطلقت صديقاتها عليها اسم : الثعلب الأبيض .. فهى بيضاء وشعرها أبيض .. وهى فى غاية الخبث والدهاء .. تبدو ناعمة الملمس ولكى تظهر أنيابها ومخالبها عندما يمس أحد شعرة من رأس الرئيس بوش !

وهى التى قالت فى إحدى الحملات النسائية : إن مليون جندى أمريكى مستعدون للدفاع عن الرئيس .. ولكن عندما تنام هذه الجنود ، أو تقف أمام البيت الأبيض .. فإن جنديا واحدا مستعد أن يموت من أجل الرئيس فى أى وقت ودون أن يستدعيه أحد . هذا الجندى هو : أنا !

١٢- النقـــــــرس والحـــرب والزوجـــة العاشقـــة!

على قبرها هذه العبارة :

لست ملكا لنفسى . بل مملوكة لك !

إنها العبارة التى كانت تقولها لزوجها لورد ساتهام رئيس وزراء بريطانيا .

فكانت هذه السيدة آخر زوجة قالت ، وكانت تعنى أنها على استعداد فى أية لحظة أن تموت من أجل زوجها ، كما عاشت من أجله ، وهى أول من آمن بعبقريته . وأول من رأى أن العبقرية جريمة كونية : غلطة فظيعة ترتكبها الطبيعة فتجنى على صاحبها وعلى الناس حوله .. ولكنها الجريمة الوحيدة التى بغيرها لاتتقدم الإنسانية وتتعذب اخلص الزوجات .

هى من أسرة عريقة . ذكية حساسة . ليست جميلة ولكنها ذات ملامح ارستقراطية ، والذى تفقده المرأة فى ملامحها تعوضه بفلوسها . وكانت عندها أموال كثيرة . وعندها صبر أيوب ـ والصبر غريزة عند المرأة تعلمتها مع الانتظار الطويل وراء الأسوار والسلاسل التقليدية . ولكن غريزة الصبر عند المرأة جعلتها هى التى تفوز فى النهاية .

فالرجل ، رغم أنه صانع الأسوار والسلاسل ، فهو أول من يفلت منها . لاصبر له . ولذلك تغلبه من تملك رصيدا من الصبر الطويل . أما هى فقد رأته واعجبت به عشرين عاما . وفى هذه الأعوام لم تره إلا قليلا . ولكنه لم يغب عن عينيها واذنيها لحظة واحدة . فقد عرفت كل شيء عنه ، وكل الطرق التى تؤدى إليه .. وكان عندها احساس عميق قاطع بأن هذا رجلها . فكان .

فى سنة ١٧٣٤ كان السيد وليام بيت ، وهذا اسمه قبل أن يصبح اللورد شاتهام وهى الليدى شاتهام ، عضوا بارزا فى مجلس العموم . إنه أعظم خطباء بريطانيا قبل تشرشل ، فالمؤرخون يقارنونه بأعظم خطباء الرومان شيشيرون وأعظم خطباء الأغريق ديموستين . وكان طويل القامة حاد الأنف متوهج العينين . إذا نظر إلى أحد فى عينيه ، ارتبك وانهار . حدث ذلك كثيرا فى مجلس العموم . فلا يكاد ينظر إلى واحد من خصومه حتى يصرخ ويحتمى بالمنصة !

ولكن هذه الفتاة بنظرتها النافذة ادركت أن أقوى الرجال هو أكثرهم عزلة وأكثرهم سوء ظن . ولذلك فهو اسهل الرجال إذا اقتربت منه المرأة . فهو يشعر بأنه فى حاجة إلى الجنس الآخر ، يطمئن ويفضى إليه بأسراره . إنه فى حاجة إلى الذين لاينافسونه ولايحقدون عليه .

وكانت عندها غريزة بوليسية أيضا . تقول : إن الذى احبه أنا يحبه كلبى . وما من أحد كرهته حتى كرهه كلبى . وما من أحد كرهه

كلبى إلا اكتشفت بعد ذلك أنه يستحق الكراهية . وقد احبه كلبى !

وكثيرا ماتخيلت نفسها تمشى إلى جواره . وأنه مد يده ولمس يدها وذراعها ولفها حول وسطها ومال على كتفها .. وتخلصت منه وهربت إلى شجرة واسندت ظهرها ليلقى بنفسه على كتفها على صدرها وينام . وينام . ويصحو ليقول لها : لم أشعر بمثل هذه الراحة فى فراشى !

وفى يوم كانت تمشى إلى جواره على شاطئ إحدى البحيرات ، حتى وجدت أن كل الذى كانت تحلم به قد تحقق تماما .. كأنها كانت ترى الغيب . وفوجئت بما لم يكن فى حسابها . إنه هو الذى تكلم . وعرض عليها أن تكون زوجته . فوافقت . وترك لها أن تنقل هذا الخبر المفاجئ إلى اسرتها التى لم تكن تتوقع ذلك .

وكانت ردود فعل مختلفة . أحد أفراد أسرتها قال : إذن هى علاقة قديمة تمت وراء ظهورنا !.

قال أخوها : اشكرك . فقد أتيت لنا بالرجل الوحيد الذى تمنيت أن يكون أخى !

وكان وليام بيت نموذجا للرجل الطاووس ــ ملابسه ألوان صارخة . ورأسه مرفوع وأنفه . مغرور . والمرأة تحب الرجل الطاووس الذى يبهرها بألوانه . والذى يجعلها تحس أنها اختارت شخصا كبيرا عظيما . يجعلها تحس أنها دون ذلك . وأنها خطفته من أنياب فتيات

كثيرات . وأنها تحب الرجل المغرور لأنه قوى والذى يلفت الأنظار . ثم يكون فى النهاية لها .

وكانت إذا ابتعد عنها بعثت إليه بالخطابات . وخطاباتها تبدأ هكذا : يامجدى .. ياعظمتى .. ياعمرى .. يا أمالى ..

أما هو فكان أسوأ من يكتب الخطابات . إنه لايعرف إلا الخطب . ولذلك كان يبدأ خطاباته إليها هكذا : أيها الأعزاء .. أيها الأحباء .. كونوا على يقين من .. إلخ .

ولكنها تعرف عيبه فهو سياسى أولا وأخيرا . وزوج بعد ذلك وتعلم أنها عندما اختارت رجلا ناجحا ، اختارت انشغاله عنها . اختارت استغراقه بعيدا ، وسرحانه قريبا . وعليها أن تضحى . هذا شرط لعبة النجاح . وقد ارتضت بكل شروط الزواج من رجل ناجح . وكان زواجها فاشلا ولكنها كانت ناجحة تماما فى مساعدة زوجها وأسرتها على حساب بلا رصيد من سعادتها العائلية .. ووجدت أيضا أن الله الذى اعطاها العبقرية ، قد وهبها الصبر الجميل على ثمنها الفادح .

انجبت له ثلاثة من الأولاد وبنتا .

واحد من أولادها احست وهو طفل ، بأنه سيكون عظيما . كيف ؟ هذا احساسها . وقد عاشت لتراه رئيسا لوزراء بريطانيا ذلك هو : وليام بيت الصغير !

وفى إحدى المرات قال لها زوجها : شىء عجيب أن أتزوج . وأنا

كثيرات . وأنها تحب الرجل المغرور لأنه قوى والذى يلفت الأنظار .
ثم يكون فى النهاية لها .

وكانت إذا ابتعد عنها بعثت إليه بالخطابات . وخطاباتها تبدأ هكذا : يامجدى .. ياعظمتى .. ياعمرى .. يا أمالى ..

أما هو فكان أسوأ من يكتب الخطابات . إنه لايعرف إلا الخطب . ولذلك كان يبدأ خطاباته إليها هكذا : أيها الأعزاء .. أيها الأحباء .. كونوا على يقين من .. إلخ .

ولكنها تعرف عيبه فهو سياسى أولا وأخيرا . وزوج بعد ذلك وتعلم أنها عندما اختارت رجلا ناجحا ، اختارت انشغاله عنها . اختارت استغراقه بعيدا ، وسرحانه قريبا . وعليها أن تضحى . هذا شرط لعبة النجاح . وقد ارتضت بكل شروط الزواج من رجل ناجح . وكان زواجها فاشلا ولكنها كانت ناجحة تماما فى مساعدة زوجها وأسرتها على حساب بلا رصيد من سعادتها العائلية .. ووجدت أيضا أن الله الذى اعطاها العبقرية ، قد وهبها الصبر الجميل على ثمنها الفادح .

انجبت له ثلاثة من الأولاد وبنتا .

واحد من أولادها احست وهو طفل ، بأنه سيكون عظيما . كيف ؟ هذا احساسها . وقد عاشت لتراه رئيسا لوزراء بريطانيا ذلك هو : وليام بيت الصغير !

وفى إحدى المرات قال لها زوجها : شىء عجيب أن أتزوج . وأنا

وانهارت الروح المعنوية فى بريطانيا ..

ولكن وليام بيت قال عبارته المشهورة : أنا الذى أستطيع أن أنقذ الامبراطورية . أنا لا أحد سواى !

واستطاع . وأصبح بطلا شعبيا . واطلق عليه الشعب الإنجليزى : عضو مجلس العموم العظيم ..

وأصبح الإنسان الرهيب فى فرنسا ..

وعندما كان الإنجليز يضيئون مشاعل النصر سعداء بنهاية حرب السنوات السبع ، كان وليام بيت يعانى من مرض « النقرس » ـ الذى هو التهاب المفاصل .

وفى مفاصل الاصبع الكبرى فى القدم . كان يصرخ إذا مشى ، ويصرخ إذا نام ..

وكان يقول : لقد احتشدت جهنم بما فيها من نار ومسامير عند أطراف أصابعى ، إننى احترق بلا دخان . إن جليد الدنيا لايستطيع أن يطفئ هذه النار التى أحسها ولا أراها !

وكانت لها عبارة حكيمة : لا ترجئ النظر فى شىء . اقطع . احسم والباقى على الله !

وكان يداعبها قائلا : يجب ألا يكون الباقى كثيرا . فالله عنده الكثير الذى يشغله !

وكانت تقول له : .. إلا فى البيت !

وكان يدعى الانشغال عند سماع مثل هذه العبارة . فليس عنده

وانهارت الروح المعنوية فى بريطانيا ..

ولكن وليام بيت قال عبارته المشهورة : أنا الذى أستطيع أن أنقذ الامبراطورية . أنا لا أحد سواى !

واستطاع . وأصبح بطلا شعبيا . واطلق عليه الشعب الإنجليزى : عضو مجلس العموم العظيم ..

وأصبح الإنسان الرهيب فى فرنسا ..

وعندما كان الإنجليز يضيئون مشاعل النصر سعداء بنهاية حرب السنوات السبع ، كان وليام بيت يعانى من مرض « النقرس » ـ الذى هو التهاب المفاصل .

وفى مفاصل الاصبع الكبرى فى القدم . كان يصرخ إذا مشى ، ويصرخ إذا نام ..

وكان يقول : لقد احتشدت جهنم بما فيها من نار ومسامير عند أطراف أصابعى ، إننى احترق بلا دخان . إن جليد الدنيا لايستطيع أن يطفئ هذه النار التى أحسها ولا أراها !

وكانت لها عبارة حكيمة : لا ترجئ النظر فى شيء . اقطع . احسم والباقى على الله !

وكان يداعبها قائلا : يجب ألا يكون الباقى كثيرا . فالله عنده الكثير الذى يشغله !

وكانت تقول له :.. إلا فى البيت !

وكان يدعى الانشغال عند سماع مثل هذه العبارة . فليس عنده

وهنا كان دور الزوجة الفريدة فى التاريخ لقد ضاعفت عدد الخدم أمام غرفته هو.. وأبعدتهم عن بقية غرف البيت ـ فلا يكاد يضرب بعصاه الباب يستدعى أحد الخدم حتى يتقدم له خمسة وقد أحنوا رءوسهم فيطلب عود كبريت.. أو كوبا من النبيذ أو يقول: أين الكلب يا كلاب!

أو يقول: أين هى؟

ويقصد عصاه. فيسارعون إلى حملها إليه ومساندته حتى يخرج إلى الشرفة يرى الحديقة والسحب والعصافير والخيول. ويرفع عصاه عاليا مشيرا إلى زوجته أن تجىء. وإلى أولاده أن يجلسوا حوله.. ثم يطلب إلى ابنه روبرت أن يخطب أمامه فى موضوع يحدده هو.. ثم يصحح له شيئين: بداية الخطبة ونهايتها.. وينصحه بأن يجعل البداية والنهاية متباعدتين.. لكى ينسى الناس التفاصيل.. ثم تكون النهاية قوية صارخة شائكة مفاجئة!

ويقول له: لاتحاول مطلقا أن تضع فى خطابك آيات من الكتاب المقدس. هذه غلطة. ففى الكتاب المقدس مواقف وأحكام ونوادر متضاربة يمكن استخدامها ضدك من أقل الناس ثقافة.. ولكن استخدم أبياتا من شعر القدماء.. فهذا مالا يستطيعه الناس العاديون!

وينصحه: لاتعرض قضيتك كأنك تريد استفتاء على أفكارك، ضعها مرة واحدة بصورة قاطعة. كأنها إحدى البديهيات الرياضية.

ومعنى ذلك أنك فكرت لهم ، ثم قررت أيضا . وهذا مايحبه الناس !

ويقول له : إذا تحدثت إلى مجلس العموم ، فكن على يقين أنك تتحدث إلى الفقراء الذين عوضهم الله عن الطعام بالكبرياء .. قل لهم مثلا : إن هذا الكوخ الصغير الذين يعيشون فيه تدخله الشمس وتدخله العواصف ويتسلل إليه المطر ، ولكن الملك لا يجرؤ ولا يحق له أن يجتاز عتبة هذا الكوخ دون إذن من صاحبه !

ويقول له : اجعل قضيتك مثل هذه العبارة : حيث ينتهى القانون يبدأ الطغيان ..

ولا تنسى عبارة قالتها أمك ، ولا تنسى أن تسترشد برأيها : القوة المطلقة تفسد عقل من يملكها !

* * *

وكان وليام بيت يعانى من حالة اسمها « الاحباط العصبى » ــ هذه التسمية لم تكن معروفة فى القرن الثامن عشر. ولكن اعراضها : أنه اعتزل الناس . وانطوى على نفسه . واستغرقته خيالاته وهلوساته . وكان يفكر فى تأليف مأساة من خمسة فصول .. يبدأ الفصل الأول بتتويج ملك جديد .. وتنتهى بشنق الملك . وبين التتويج والشنق يظهر رئيس الوزراء يخلق رأيا عاما ضد هذا الملك والمنافقين حوله . وينتصر الشعب فى مجلس العموم وقبل شنق الملك يقرر مجلس العموم قطع لسان الملك . لتكون له حرية الكلام ، ولكن استحالة تنفيذ

مايقول. وعندما يشعر الشعب بأن الملك عبء عليه، يتخلص منه..

وهذا ما حدث لوليام بيت نفسه . لقد استدعاه الملك لرئاسة الوزراء . ولكن الوزراء حسوا أنه من المستحيل التعاون معه .. فهو يتعالى عليهم . ويرى أن كل نقد ، مواجهة له وتمرد عليه . وظل وليام بيث حبيس البيت ، حبيس النقرس والاحباط والوساوس . ولكن أحداً لم يعرف ذلك ، زوجته فقط . وفى أحد الأيام قرر أن يستقيل . ولكن الزوجة رفضت وطلبت إليه أن يصمد قليلا . فإذا هو استقال استأسد الكلاب عليه . ولكن إذا قاله الملك ، فهى غلطة للملك تضاعف كراهية الناس لاستبداده . فلا أحد يعرف مرض زوجها ، ولا أنه على وشك الجنون .

وكان من رأيها أنه سوف يستعيد لياقته الصحية ، ليجد الملك أضعف ، لأنه لن يستطيع ابعاده . وفعلا استعاد صحته ولياقته النفسية .. واستدعاه الملك ليشكل الوزارة . وهنا قالت له زوجته : الآن جاءت فرصة العمر .. أرفض أن تكون رئيسا للوزراء .. ارفض !

ورفض أن يكون رئيسا للوزراء ، ولزم البيت وثقل عليه المرض . وطلب من الملك أن ينقله من مجلس العموم إلى مجلس اللوردات .. فيكون اللورد شاتهام وتكون زوجته الليدى شاتهام . فمن أجلها قرر أن يذهب إلى مجلس اللوردات لتحصل هى على هذا اللقب الذى تستحقه عن جدارة ..

وفى يوم طلب من زوجته الليدى شاتهام بأن يجلسا معا فى الحديقة .. وأن يقف حولهما الخدم جميعا . وأن يجلس الأولاد فى مكان قريب يرون ولايشاركون فى الحديث والطعام . وفهمت الزوجة ما الذى يقصده زوجها . إنه أحس باقتراب الموت .

وأنه يريد أن يقيم حفلا صامتا يودع فيه الناس والقصر والحديقة والغابات والجبل والخيول والكلاب ..

فنقلت المائدة إلى الحديقة واحاطت كل شىء بالورود .. وارتدى كل البيت أحسن ملابسهم وجاء الخدم وساندوه حتى جلس على مقعده الكبير ووضعوا قدميه على المخدات الحريرية . وكان هو قد ارتدى ملابس أعضاء مجلس اللوردات ..

وتناول الشاى . ولم ينطق بكلمة . ولكنه لمح الدموع فى عيون الخدم . فقال : ليس الآن !

أى أنه لن يموت الآن ..

ثم جاء أولاده وقبلوه واحدا واحدا . وسمح للخدم أن يقبلوا يديه .. ولم يكن كلبه فى حاجة إلى أن يتسلل إلى قدميه فيلعقهما . لقد فعل ذلك من تلقاء نفسه .. ثم نادى زوجته أن تقترب فقبل يديها ورأسها .

وأشارت الزوجة إلى الأولاد أن يقتربوا وإلى الخدم أن يبتعدوا . وقالت : الآن .. وليس غدا . يجب أن تذهب إلى مجلس اللوردات وتلقى خطابك التاريخى !

لقد عرفت زوجته بالضبط ماذا يريد .

وحملوه وقد استند إلى عصا تحت ذراعه اليسرى وأخرى تحت اليمنى . ودخل مجلس اللوردات . وصفق له الحاضرون وأحس الجميع إنه يوم تاريخى . وأن الخطيب القديم جاء يلقى خطبة الوداع . ولابد أن الثعلب العجوز . وإن لم تكن له انياب ، فماتزال له مخالب . كما أن كل شىء قد خبا إلا عينيه !.

كان وجهه الشاحب الذابل مثل قناع قديم انفتحت به طاقتان تطل منهما عينا عفريت .. ولايزال يتلفت مخيفا لكل الذين حوله .. ساندوه . صفقوا له واقفا وجالسا . ورفع عصاه فى الهواء ليقول آخر كلماته يوم ٩ مايو سنة ١٧٧٨ .

أيها السادة اللوردات .. إن أى شىء أهون من اليأس . فإذا سقطنا فلنسقط رجالا . ليس قويا من لايملك إلا السلام . لقد نهضت من فراش المرض ، يمكن أن تقولوا من فراش الموت ، لكى اقف دفاعا عن وطنى . لست املك الكثير ، ولكن القليل الذى أملكه يجب ألا أبخل به .. ولو احتاجت بلادى إلى نفخة هواء من صدرى لبذلتها فورا لأموت راضيا . جئت لاتحدث إليكم أيها السادة اللوردات فى مجلسكم عظيم الوقار ، وقد تكون هى آخر مرة .. فلتكن المرة الأخيرة فى صدق المرة الأولى .. لقد عاش هانئا من عاش صادقا . وعاش صادقا من استمع إلى ضميره دائما !

ثم انهار ساقطا على مقعده . ويتكاثر عليه اللوردات يقدمون الماء

والدواء ويهرولون بحثا عن طبيب ولكن الرجل افاق . ونقلوه إلى بيت مجاور وحوله الأطباء ليموت بعد ذلك بيومين !

* * *

وانتقلت الليدى شاتهام إلى البيت رقم ١٠ شارع دواننج مرة أخرى عندما أصبح ابنها وليام بت الصغير رئيسا للوزراء . وقد لاحظت أن ابنها قد أعد لها مكانا خاصا لعلها تبقى إلى جواره . ولكنها اعتذرت عن ذلك . ناقشها طويلا . وسجل لنا التاريخ حوارها الأخير العظيم مع ابنها .

هو يقول : لابد أن تبقى إلى جوارى .. لقد نصحنى والدى أن استشيرك ..

تقول هى : أبوك قد ذهب . ونصائحه أيضا . وأنا لابد أن أذهب يا ولدى فأنا لا أصلح إلا لأبيك .. ولم أكن أصلح حتى لأبيك .. فهو رجل عبقرى ولم أكن إلا حارسا يقظا يحمى عظمته .. وكثيرا ماغلبنى النوم ، فقد كنت مكلفة بحماية الأسرة كلها من الانهيار .. مضى زمنى يا ولدى . انتهى . نحن دفناه معا يوم وقفنا على قبر أبيك !

يقول هو : لاتكونى متشائمة يا أمى . فأنت أمى دائما . ومشاعرك ملك لى .

وتقول هى : اسمع يا ولدى لاتفتعل مشاعرك .. لاتكذب فى شعورك . ولكن احكم بالعدل ضد مشاعرك . والعدل ألا تأخذ

بنصيحتى . وإلا كان ذلك افتعالا .. فأنت تعطى حاضرك ومستقبلك لماضيك .. وأنا ماضيك يا ولدى .. لاتنس أننى أمك فقط . وليس معنى أننى أمك أننى أعرف أكثر أو أحكم أقدر منك .. أنت قد اختارك أهل زمانك .. وأهل زمانى لم يختارونى .. أبوك فقط هو الذى اختارنى .. وقد هيأت نفسى لذلك تماما .. وأبوك كان كريما معى .. ولكن أنا أعرف حدودى .. فأنا لست إلا مدعوة إلى وليمة سياسية .. هذه الوليمة يتصدرها أبوك .. وكنت حاضرة فقط .. وعندما يخرج المدعون أجد وقتا للحديث مع والدك قبل أن ينام .. وقد رضيت بهذه الدقائق القليلة لأهمس بشىء فى أذن التاريخ ..

يقول هو : يا أمى أنت تتواضعين كثيرا وتحطين من قدرك .. هل نسيت أننى ناقشتك واستشرتك وأخذت برأيك .. ولم أكن مضطرا إلى ذلك .. أنت كنت أما للجميع .. وكنت أما لأبى أيضا . وأنا لن أثقل عليك سوف استشيرك من حين إلى حين ..

تقول : يا ولدى أنت الذى تحط من قدرك .. أنت يا ولدى أعظم من والدك .. الدنيا تغيرت إلى الأحسن .. وعندما تغيرت اختارتك الأحسن .. وأنت فى حاجة إلى فتاة من مثل سنك وطموحك وفهمك .. وسوء فهمك للناس أيضا .. أما أنا فدورى أنتهى ، العين التى كانت ترانى أجمل الناس اغمضناها سويا ، والأذن التى كانت تجدنى اعقل النساء قد سددناها سويا ، والنصف الذى كنت نصفه الآخر فى انتظارى لنكتمل ترابا وعظاما سويا ..

وهذه حكمة الحياة والسياسة والدين خذها منى : إن كل مايراه جيل من الأجيال كفرا وزندقة ، تراه اجيال تالية عقيدة معتدلة .. المعارضة مثلا . كانوا ينظرون إلى والدك على أنه مارق لأنه يعارض التاج ، واليوم يرون ذلك شرفا عظيما واحتراما للتاج نفسه أن يختلف عليه الناس ..

ثم جمعت متاعها وعادت إلى قصرها الريفى . ثم بعثت بخطاب لآبنها رئيس الوزراء وليم بت الصغير تقول له : إن كان فى نيتك أن تختار شريكة لك ، فاخطرنى بذلك لاتستشرنى .. فأنا أفهم فى الرجال ولا أفهم فى النساء .. بل لم أفهم إلا واحدا أورثك عظمته وعبقريته وسعادتى بك !

١٣- لـيس قبـل الطعـام
والدفــء والنــوم العميــق

شروط السياسى الناجح : أن يكون لديه احساس عميق بالتاريخ ، وذاكرة قوية وساعات من النوم العميق- هذه العبارة لزعيم حزب العمال الأسبق هارولد ويلسون ..

وقبل ذلك بمائتى سنة قالت السيدة جوليا بيل زوجة مؤسس حزب المحافظين ورئيس الوزراء سير روهبرت بيل : ليس قبل أن تتناول طعاما جيدا وحماما دافئا وساعات من النوم الطويل العميق .

ففى كل مرة يقدم زوجها على اتخاذ قرار تاريخى ترغمه على الأكل والدفء والنوم . وكان يندهش كيف استطاعت زوجة لم تحصل على تعليم يؤهلها لتكون حكيمة ، أن تأتى بمثل هذه « الروشتات » الشافية . وجوليا هذه أبوها الجنرال فويل ، أحد جنود بريطانيا فى الهند . عاش هناك سنوات طويلة . وعرف الحكمة الهندية ومرارة والسخط على الإنجليز والتمرد على الأجنبى . ورأى كيف يتحول الهندى الهادئ إلى بركان قادر على أن يصرخ ويقتل .. أو يهدد بذلك .

وعرفت جوليا أن تكون منظمة وأن تكون منضبطة . وتعلمت من الشعور بالوحدة وغياب الأم فى سن مبكرة ، ألا تشارك فى كل شىء

وأن تتفرج وألا تخطئ .. فاليتيم اخطاؤه جسيمة مهما كانت تافهة . فليست له أم تدافع عنه أو تحتضنه أو تقوم بدور القطة أو الذئبة عندما يقترب أحد من صغارها .. حتى أبوها فإنه لم يستطع أن يكون بديلا عن الأم مهما كان لطيفا حنونا .

والسيدة جوليا قد سقط الكثير من حياتها فى سراديب التاريخ .. ولكن ليس لنا إلا ما قاله جيرانها وخصومها والناس الذين يسمعون عنها فى العاصمة البريطانية ..

واحدة قالت : لابد أن زوجها قد اختارها لأنه قرر أن يموت حيا !

وواحدة أخرى قالت : إن رجلا بهذا الذكاء يختار امرأة بهذا الجهل ، لا لشىء إلا أنها جميلة ، فقد تزوج شجرة وردا أو شجرة تفاح يجلس يشم عطرها وينام فى ظلها ويحمد الله أنها بلا لسان !

وعندما رأها القيصر الروسى نيكولاوس وتقدم للزواج منها فوجئ بأنها ليست جميلة فقط وإنما ذكية أيضا ، . قالت له : سيدى .. مازلت من هؤلاء السذج الذين يفضلون النوم عند أبواب جهنم الإنجليزية ، على التمرد على أرائك الجنات الروسية !

وبعد ٢٨ سنة عندما رآها القيصر الروسى مرة أخرى فى القصر الملكى لاحظت الملكة فيكتوريا أنه مايزال يحبها .. وإنه يتمنى لو تركت زوجها رئيس الوزراء ، وصارت امبراطورة لروسيا ؟!

فى سنة ١٨١٦ كانت فى العشرين من عمرها وكان زوجها المقبل

روبرت بيل فى الثامنة والعشرين . اختير عضوا لمجلس العموم وهو فى العشرين . وظل عضوا أربعين عاما . وشغل مناصب عديدة وزيرا للداخلية والمالية ووزيرا لأيرلندا ثم رئيسا للوزراء ، وكان أبوه من تجار القطن الأغنياء . وقد ترك لابنه ثروة طائلة . ولذلك لم يكن مضطرا لأن يعمل فى أى وقت . وكان أبوه يؤمن بالسحر . فعندما جاء إلى مصر اشترى تمثالا فرعونيا صغيرا ، وكان يحمل هذا التمثال فى أمتعته . وفى كل مرة ينسى التمثال فى البيت ، يخسر صفقة تجارية . وعندما ، حانت وفاته أوصى ابنه بأن يحمل هذا التمثال معه أينما ذهب. ومن العجيب أن الابن عندما توفى ، بحثوا عن التمثال فلم يجدوه !

وروبرت بيل سياسى من رأسه إلى حذائه ، وكان من عادته وهو طفل أن يقف على المقاعد ويتكلم بصوت مرتفع . ولم يكن يقول شيئا ، وإنما يطلق أصواتا ويحاول تركيب جمل مفيدة . ولم يفلح فى معظم الأحيان . وفى يوم ، وهو فى السابعة من عمره ، لاحظ أبوه أنه يتسلق الأشجار ، ويعلوها ويخطب .. وكان يجمع الخدم ويرغمهم على الاستماع إليه .. فقال أبوه : أتمنى ألا أرى ذلك اليوم ـ يقصد أنه لايتمنى أن يراه قسيسا !

ولم يكن بيل خطيبا . ولا هو يحسن الحديث اللهم مع الرجال فقط ، أما مع النساء أو فى حضورهن ، فهو يرتبك تماما .

وتقدم سرا لجوليا فويل . واتفقا على الزواج ، ولكن أهل العروس طلبوا إليه ألا يفتح فمه حتى تتم كل الإجراءات وحتى يخبروا

جميع أقاربها .. فنحن فى عصر الملكة فيكتوريا ، عصر التزمت الديني والتشدد الاجتماعى والطهارة الضرورية ..

وكانت خطابات يومية بين الاثنين . فلم يكن هناك وسيلة أخرى ، وقد اعتاد أن يكتب ، واعتادت ألا ترد .. وفى يوم بعث إليها يقول : أنت لاتعرفين عذابى . إننى أنقل عينى من السماء إلى البحيرة ومن البحيرة إلى الأشجار ، ومن الأشجار إلى الخيول القادمة من بعيد .. لعل واحدا منها يحمل رسالة منك .. كما اعتدت أن أقرأ الكتب أتوهم أن هذه الكتب من تأليفك .. تصورى !

وجاءت منها رسالة تقول : أنت يا دنياى !

أما الشبكة التى قدمها للعروس فهى عقد من اللؤلؤ ــ ٧٨ حبة ثمنه ألف جنيه أى ما يعادل مليونا اليوم !

وكان الزفاف يوم ٨ يونيو سنة ١٨٢٠ ..

وسافر العريس إلى لندن حيث مجلس العموم وخضم الحياة السياسية وتركها فى القصر الريفى . عاد إلى شقة العزوبية . أما الرسائل فكل يوم لاتنقطع .

وفى إحدى رسائلها تقول : أريد أن أكتب لك كل يوم وعن كل شىء . ولكن لا أعرف علاجا لاخطائى فى الإملاء والنحو .. اعذرنى يا دنياى !

ويرد عليها : ولكنى لم أعثر لك على غلطة واحدة . ولو أخطأت ألف مرة ، تأكدى أننى لن أدرك ذلك . حتى لو حاولت . فأنا أقرأ

بقلبي والقلب لايعرف النحو والصرف .. فلا تكتبي بعقلك .. اكتبي بقلبك .. وهذا هو الذى يهمني .. فلا ترهقى عقلك .. ولا تدخليه فيما لايعنيه .. وحتى لو استخدمت عقلى ، فإن قلبي جاهز لأن يغفر لك يا حبيبتى !

وتقول له : دنياى .. إننى مرتبطة بشخص لطيف لو عرفته كل البنات لسقطن صرعى لرقته وحنانه وعظمته .. إننى أعبدك يادنياى .. ويجب أن تتأكد أننى على استعداد دائم أن أموت من أجلك !

ولم تكن جوليا سيدة مجتمع . وإنما هى تقوم بالواجب فقط . من دعاها إلى الغذاء ، دعته إلى العشاء . ومن ترك لها وردة بعثت له اثنتين .

وفى سبع سنوات من الزواج انجبت له سبعة من الأولاد والبنات.

وهو رجل البيت ورجل الأسرة والزوج المثالى والأب النموذجى .. والانجليزى مائة فى المائة . فليس أمتع عنده من جلسة عائلية وراء باب مغلق لايدقه أحد ، من كلب يتمدد عند قدميه .. ويقلب هو النظر بين أطفاله ويقلبهم بين أحضانه وينحنى على يدى زوجته يقبلها . ويقول : لم أعرف الدفء والأمان إلا معك وبك ولك .. ليتنى ولدت متزوجا .. ليت أمى ولدتنا معا !

وراح يتنقل من قصر فى الريف إلى قصر أكبر وحدائق أوسع وغابات أغزر وخيول أجمل ..

أما خطاباته التى يبعث بها من لندن فكلها تتحدث عن « القرف » فى العاصمة .. وعن النفاق الذى هو سيد الأخلاق السياسية .. وعن الذباب الذى يحوم حول القصر .. وعن الكذب الذى يتعاطاه الجميع .. ويتمنى لو جاءت إلى لندن تحميه من كل هذه النكبات السياسية والأخلاقية .. ثم يستدرك قائلا : لولا إننى لا أريدك أن تكون ضحية القرف .. فإذا أنا ضحيت بك أنت أيضا ، فمن الذى يعالجنى .. من الذى يشفينى .. من الذى يحمينى من نفسى .. أنا قلت لا أريد السياسة ، فالله أعطانا الكثير من المال ، ولكنك أنت التى أكرهتنى على ذلك .. إننى لا أشكوك إلى نفسك .. ولكن أذكرك فقط بأن هذا سيضيف أعباء جديدة عليك .. فأنا أصارع المتاعب بعيدا عن أولادنا السبعة وخدمنا وكلابنا وخيولنا وضيوفنا .. لا أريد أن أكون عبئا « مضاعفا » .

ولاتعجبها هذه اللهجة فتطلق حصانا يحمل رسالة عاجلة إليه : يا دنياى ومعبودى أنت لست عبئا ياسيدى إلا إذا كان التاج عبئا على الرأس ، وإلا إذا كانت الماسة فى التاج عبئا على التاج ، وإلا إذا كان القمر عبئا على الأرض .. أنت زينة دنياى .. وأنت الشرف والمجد والحياة نفسها !

وتعطلت الخطابات يومين لأول مرة فى حياتها : إننى أبعث إليك بثلاثة خطابات .. الخطاب الأول رد على الخطاب الذى لم يصلنى أمس الأول ، والثانى رد على الخطاب الذى لم يصلنى أمس .

وخطابى الأول : أننى أحبك وفى خطابى الثانى استدرك خطأ فظيعا وقعت فيه ، فأنا لا أحبك ، وإنما أحبك جدا جدا ..

ولايزال روبرت بيل يتنقل من قصر إلى قصر أكبر حتى نفدت فلوسه . واستدان . ولكن أسرتها الغنية لم تساعدها .

وفى يوم تقدم واحد من اخوة جوليا يطلب خدمة ، مقابل مبلغ من المال .. أو مقابل هدية . وجاءت زوجة أبيها وشجعته على ذلك . فاقنعت روبرت بيل أن يساعده بدون مقابل .

وكاد يفعل ذلك . ولكن جوليا هى التى أصرت على عدم مساعدة أحد .. لأنه لو فعل فسوف يدرك الناس جميعا أنه يرتشى .. أو أنه يساعد أقارب زوجته فقط .. ثم أن أخاها لن يمتن له . وأصرت جوليا على أن يرفض ، ورفض واحتلفت زوجته فى تلك الليلة بأن أشعلت نارا ورسمت صورة لأخيها وألقت بها فى النار ــ كما يفعل الهنود عندما يقررون موت أعدائهم !

وثارت البلاد على القوانين الخاصة بالقمح وارتفاع أسعاره ، وتحديد تصديره للخارج .. وكذلك البطاطس ، ولم يفلح روبرت بيل فى تهدئة الناس . ثاروا . حاولوا الاعتداء عليه أكثر من مرة قتلوا سكرتيره . بعث بقوة من البوليس لحماية زوجته وأولاده ــ وهو أول من أنشأ بوليس المدينة . وكان رجال البوليس يسمون : بيليون نسبة إليه . أما زوجته جوليا لأنها ابنة جندى قديم . فقد نظمت القوات . ووزعتهم على مداخل ومخارج القصر والحديقة والغابة . وبعثت إلى

زوجها تطلب إليه أن يتحرك فى مواعيد غير منظمة . وألا يطلع أحدا على ذلك ـ حتى أقرب الناس . وحين يعود إلى زوجته وأولاده فليكن ذلك نهارا وفى موعد لايعرفه أحد . وهى التى اقترحت على زوجها ألا يجعل رجاله يرتدون زيا رسميا .. وإنما يكون من بينهم أناس بملابسهم المدنية ، حتى لايعرف المتظاهرون ذلك .

وجاءها هذا الخطاب : أشكرك على يقظتك العظيمة . سوف أجىء ولكن من المؤكد أننى سأوقظك بقبلة . إذا كنت نائمة !

* * *

وكانت الملكة فكتوريا لا تحبه ، فهو جاف ، وهو خشن الألفاظ . غليظ النقد ، ولكن عندما وقع الاعتداء عليه ، زارته فى بيته ، وهى تحمل بنفسها باقة من الورد تحية للرجل الشجاع ، وللمرأة المخلصة .

قالت الملكة فكتوريا : نصف هذا الورد أقدمه لك لاخلاصك ، ونصفه يقدمه لك زوجى لجمالك .. أما زوجى فهو قد استولى على قلبنا !

وكان روبرت بيل يطلب إلى زوجته أن تمضى فى حياتها كأن شيئا لم يقع . وكأنه وكأنها لايتعذبان ولايضيقان بكل الناس ، فكانت العائلات الارستقراطية تتزاحم عنده للصيد والأكل والمرح والشراب . وكانت جوليا فراشة تنتقل بين الجميع .. أما هو فيعانى

من ويلات عرق النساء ذلك الالتهاب فى أعصاب الورك . إنه أعرج تماما . لايقوى على الحركة . وإنما ينظر من بعيد ويتابع ولايشارك فى شىء !

قرر أن يستقيل سنة ١٨٤٥ ولكن زوجته أصرت على أن يبقى فى موقعه . وأن يرجئ هذه الاستقالة لأزمة أكبر . ثم استقال وعاد إلى البيت مرهقا . ولم تكد زوجته تراه حتى قالت له : الآن أنت أحق الناس بالطعام والدفء والنوم والأطفال من حولك .. ولكن ليس قبل أن تخرج للنزهة والنسيم المنعش .. هيا بنا !

وأعدت حصانين . وخرجا معا إلى الغابة . وفجأة تعثر الحصان وسقط هو من فوقه . وسقط الحصان فوقه . وقد أصيب بكسور فى عظامه ونزيف فى أنفه . ونقل إلى أقرب سجادة على الأرض . وظل ملقى عليها حتى مات .. وجاء الأطباء يستخرجون الدم من الوجه المتورم مستخدمين حشرات « العلق » الذى يمتص الدم .. ومستخدمين الأعشاب المعروفة فى ذلك الوقت . ولكن الطب عجز عن علاجه .

مات فى سنة ١٨٥٠ فى الستين من عمره .

وتزاحم الناس يقدمون العزاء . وفى مجلس العموم تباروا فى تقدير السياسى الكبير الجاد الذى حاول كثيرا واستطاع قليلا . والذى استطاعه كان بفضل زوجته التى أظهرت من الاخلاص والصدق ما يعادل استعدادها الدائم للتضحية من أجله ..

وفى مجلس اللوردات وقف اقائد العظيم الذى هزم نابليوم دوق ولنجتون يبكى . وجلس دون أن يجد كلمة مناسبة للعزاء ..

ولما علمت الملكة فكتوريا بوفاته أشارت إلى الخدم أن يبعدوا الطعام من أمامها ثلاثة أيام ..

أما السيدة جوليا فقد توالت عليها الكوارث .. مات أبوها كما ماتت أمها بالحمى القرموزية .. ومات زوج ابنتها .. وورثت أموالا كثيرة من والديها ومن زوجها . ولكن كلما جاءت أموال . اختفى واحد من أعز الناس عليها .. وكتبت لصديقة لها تقول : أنا عرفت الآن ما الذى تريده السماء .. إنها تريد أن تدفننى فى نعش من ذهب ! !

وفى يوم كانت السيدة جوليا بيل تفتش فى أوراق زوجها فعثرت على التمثال الفرعونى . وتأملته لأول مرة .. وسمعت من أولادها أنه يجلب الحظ .. أى المال بدلا من السعادة .. وجاءها مال كثير ..

وضاقت بالمال مع فقدان الزوج والولد . فطلبت من خدمها أن يحملوها إلى البحيرة ..

وهناك ألقت بالتمثال بكل قوتها .. وعادت إلى البيت لتصاب بأزمتها القلبية الأخيرة . فماتت سنة ١٨٥٩ !

ولم يعرف التاريخ الإنجليزى السياسى سيدة كتبت إلى زوجها ١٤٥٢ خطابا واحتفظت بها كلها ، ومعها خطابات زوجها ..

وأوصت أولادها أن ينشروا هذه الخطابات بما فيها من أخطاء فى

الإملاء والنحو ـ ولا يهم ما يقوله المؤرخون . فالرجل المقصود بهذه الخطابات قد أحبها هكذا ..

وآخر خطاب كتبته يوم عادت من البحيرة إلى فراشها ، وكأنها أحست بالموت أو كأنها هى التى استدعته ورأته يقترب منها ، تقول فيه :

لا أحد أقول له : يا دنياى ..

ولا أحد يقول لى : يا دنياى ..

فلماذا الحياة ؟!

١٤- لا هي تحب الناس
ولا هو يحبه الناس

ماتت ولم تعرف لماذا يكذب الناس !

وكانت تصنف الناس : أبيض وأسود .. مؤمن وكافر .. معها وضدها ـ إلى هذه الدرجة كانت مصابة بعمى الألوان .

وكانت ترى : أن السياسة أخلاق ـ إلى هذه الدرجة لم يكن عندها وعى سياسى .

وكانت تندهش لتبرج المرأة فى الحفلات العامة . وكانت تقول : إننى لا أطيق أن اختلف عن طبيعتى فيرى الناس إنسانا آخر غيرى ـ إلى هذه الدرجة لم تكن أنثى !

وعندما تقع أزمة سياسية كانت تفتح الكتاب المقدس وتظل تقرأ حتى يطلع عليها النهار بحل للمشكلة فيتظاهر الناس ضد زوجها ـ إلى هذه الدرجة كانت لاتنتسب إلى هذا العالم !

إنها الليدى فانى اليوت التى أصبحت اللايدى جون رسل رئيس الوزراء .. ومن أحفادها برتراند رسل الفيلسوف العظيم .

كانت فتاة خجولة . إذا نظر إليها أحد أحنت رأسها حتى لاترى عينيه . وكان وجهها يحمر .. وكانت زميلاتها يتغامزن ويتهامزن

ويتساءلن : ماذا عساها تفعل إذا وجدت رجلا فى فراشها يحاول أن يخلع هو ملابسه ، محاولا اقناعها بأنه زوجها شرعا .

وكن يقلن أيضا : وإذا حملت ووجدت نفسها مضطرة إلى أن تعترف بأن ذلك قد حدث بسبب اقتراب رجل منها أثناء استغراقها فى النوم ، فماذا عساها تقول ؟!

ولكن هذا الخجل كان يخفى وراءه إرادة من حديد. فقد استطاعت هذه السيدة أن تحكم بريطانيا بيد زوجها وعقله. فقد كانت عظيمة الثقافة الدينية والأدبية .. وكانت إذا تسلمت أذن زوجها لم تتركها حتى يتخذ قرارا أو ينام !

أما زوجها اللورد جون رسل (١٧٩٢ ــ ١٨٧٨) فقد توفيت زوجته الأولى وتركت له أربعة من الأولاد ..

فكتبت هى إلى إحدى صديقاتها : أن الرجل حزين حزين .. وأن قلبي يتمزق إذا رأيته فأنا معجبة به. ثم ماالذى يستطيعه مع هذا العدد من اليتامى ، ومشاكل انجلترا أيضا ؟ وكان اللورد صديقا لوالدها ولذلك تدعو الأطفال ليلعبوا معها فى الحديقة .. وكانت لديها قدرة هائلة على الحديث مع الأطفال .

وعندها حكايات وألعاب وحيل ، فهى بالضبط الشخص الذى يريده الأطفال ، ويحبونه أيضا .

وفى عينى كل امرأة : هناك رجلان واحد يثير شفقتها وواحد يثير اعجابها .. وهو هذان الرجلان معا !

ولكن لم تتصور لحظة واحدة أن تكون زوجة .. لهذا الرجل أو لأى رجل آخر .. فقد نذرت نفسها لله . واستطاعت أن تقيم لنفسها كنيسة فى كل مكان . أكثر كنائسها فى الكتب .. فهى تصلى وهى تقرأ وتصلى قبل وبعد أن تقرأ ..

وفى يوم تلقت أسرتها خطابا من اللورد رسل يعرض عليها الزواج .

وكانت مفاجأة من هذا الرجل النحيل الضئيل الذى يكبرها بربع قرن وعنده هذا العدد الكبير من الأولاد ..

ومفاجأة أخرى أن يتلقى خطابا مهذبا بالرفض ..

وكتبت هى لأختها تقول : تصورى أنه طلب يدى .. أدهشنى ذلك . نظرت إلى نفسى فى المرآة لم أجد شيئا يغرى رجلا . فأنا أكثر نحافة منه .. ووجهى يدل على أننى أكبر سنا .. ولابد أن تكون هذه الشيخوخة المبكرة من الحزن الدائم والخوف من الخطيئة .. فأنا لم أعرف الضحك . ويبدو أن هذا هو الشىء الوحيد الذى جذبنى إليه .. وبذلك يكون زواجنا حزنا مضاعفا ، لتعيش أطفاله وأطفالى فى مأتم دائم .. إن الموت أفضل من هذا كثيرا . مارأيك أنت ؟

ولم تنتظر هى رأى اختها وإنما قررت أن تتزوجه . وتزوجته فى سنة ١٨٤١ وهى فى السادسة والعشرين من عمرها ؟

وعند اقتراب الزواج التف حولها عدد من صديقاتها وقريباتها يسألنها : هل تعرفين ماذا ستفعلين فى الليلة الأولى ؟

أجابت : قرأت ذلك !

قلن لها : هل قرأت أنه سوف يقترب منك .. وسوف يغريك ويستدرجك ؟

افترضي أنه لم يفعل ؟

أجابت : سوف انتظره يوما وشهرا ..

قلن لها : ولماذا تنتظرين .. لماذا لا تحققين له الرغبة التي تعرفانها أنتما الاثنان ؟!

أجابت : أنه صاحب تجربة .. ومن الواجب المقدس أن يعلمني .. وأن يطوف بي أرض الواقع وسماء الفضيلة ..

قالت لها واحدة : افرضي .. افرضي .. أنك دخلت غرفتك فوجدته في الفراش عريانا تماما .

وأخفت وجهها في يديها وخرجت من الغرفة .

وبعد سنة من الزواج اعترفت لهن بأنها وجدت زوجها في الليلة الأولى كما قلن لها .. مع تعديل بسيط .. أنه استغرق في النوم وظلت هي نائمة حتى الصباح على مقعد أمام السرير !

كتبت لأختها تقول : كرهت نفسي .. هذا مؤكد .. ولا أعرف كيف تطيق النساء أن تكون لهن أشكال وأزياء وألوان وابتسامات كلها كاذبة .. كيف تكذب المرأة على الرجل .. إنني وجدت زوجة أحد الوزراء تغمز وتلمز وتضغط بقدميها على قدم رجل غير زوجها .. ثم تقابل زوجها بالقبلات .. عندك تفسير .. هذه مفاجأة كبرى لم

أرها .. لم أسمع بها .. لم أقرأ لها نظيرا .. إننى ايقنت أن الحفلات العامة إنما هى حفلات النفاق والكذب العام !

وكان اللورد جون رسل ـ هو الآخر ـ لايعرف المرح . ولا يفهم النكت . ولايقبل الدعابة من أحد من الناس . قال له أحد اصدقائه : يا أخى لقد طلبنا منك أن تتزوج «أية واحدة».. لا واحدة كهذه التى تزوجتها فهى تختلف عن كل نساء الدنيا .. لاتريد أن تكون من النساء ، ولاتحب جلسة الرجال .. وتريد أن تظل دائما مع النساء تلعن الرجال ومع الرجال تلعن النساء !

صاحب هذا الرأى لم يدخل بعد ذلك بيت اللورد جون ـ فقد نقل اللورد إلى زوجته ما قاله صديقه هذا وما يقوله كل الأصدقاء . لأنه مقتنع بوجهة نظر زوجته من أن الزوج لايصح أن يخفى عن زوجته شيئا ..

كتبت الليدى رسل إلى إحدى صديقاتها تقول إن رسالة زوجى مقدسة . فهو مكلف بالتخفيف عن الفقراء . وجعل بريطانيا دولة عظيمة الاحترام .. وزواجى منه رسالة مقدسة . أن أكون زوجة له هو بالذات ، وأن أكون أما لأولاده الأربعة ، ولأولادى أيضا ، أى شرف أعظم من ذلك ؟!

أما مفهوم «القداسة» عند الليدى جون رسل فهكذا .. أن تكون هى أما لأولاده وأولادها فهذه رسالة مقدسة .. أما الحياة الزوجية فليست هى المهمة المقدسة . ولذلك كانت زوجة لا تشاركه

فى أى شىء .. ولا هو يشاركها .. ولكنها « جاهزة » للرد على كل تساؤل فى الحياة والدين والسياسة ..

كتبت لاختها تقول : إن زوجى لايقاطعنى مطلقا إذا اسديت له النصيحة . إنه يظل يسمعنى حتى يغلبه النوم . وفى الصباح يقول لى : معك حق فى كل شىء قلته بالأمس . إنك تخالفين كل الوزراء والملكة فكتوريا أيضا . ولكن المهم هو ما تقولينه أنت !

وكانت الملكة فكتوريا ترى أنه لايصلح أن يكون رئيسا للوزراء . فهو رجل غير قادر على اتخاذ القرار .. وإن كل قرار يدخل مكتبه يتمدد عليه .. حتى أصبح يضع رأسه بين جبلين : جبل المشروعات التى لم تنفذ .. وجبل القرارات التى لم تصل إلى الناس .

وكانت الليدى رسل فى دفاعها عن زوجها تهاجم كل الناس بما فيهم الملكة فكتوريا . فلما دعتها الملكة للحفل السنوى الكبير لم تحضر ولم تعتذر .. فتضايقت منها الملكة . ومن عبارات الملكة التى كانت حريصة على أن تنتقل إلى زوجة رئيس الوزراء : إن اللورد رسل وزوجته يتشابهان تماما .. فهو يبعث بتقارير ناقصة غامضة .. وهى لاتلد مخلوقا كاملا !

تشير إلى أن الليدى رسل قد اجهضت كثيرا !

وكانت الليدى رسل تبعث إليها بمن تقول إن الملكة فكتوريا إحدى معجزات السماء : كيف تكون رجلا وتلد ؟!

تشير إلى أنها كانت دميمة وكانت مسترجلة أيضا !

وكان اللورد رسل إذا ابتعد عن زوجته أياما فى العاصمة بعث لها بخطابات من الشعر الإنجليزى واللاتينى .. ومعها هذه الملحوظة : عليك أنت أن تختارى المعنى الذى يناسب علاقتنا المقدسة .. وأنت تعرفين أننى لم أنجح مع المرأة فى كل حياتى . وأنت الاستثناء فى هذه القاعدة .. وقد تقدمت لفتيات كثيرات .. كلهن رفضن الزواج منى .. حتى أنت .. ولكنك أفضلهن جميعا حين وافقت .. وحين اسعدتنى بحنانك وحكمتك ..

وقد عرف الكثير من الأمراض الانفلونزا الدائمة .. والحمى من حين إلى حين وفى عيد ميلاده الواحد والخمسين نظمت له قصيدة عنوانها ياأبا أولادى .. وفى هذه القصيدة تقول : لو عرفت الأشجار .. لو عرفت الطيور .. لو عرفت الخيول .. أن أرنبا نحيلا يجرى هنا وهناك وأنه يريد أن يكون هدفا .. أن يكون ضحية لسيدة .. أن يموت عند قدميه ، هذا الأرنب هو أنا .. وموتى هو استشهاد من أجل رسالتين مقدستين : مسئوليتك وأمومتى !

وكانوا يصفونها بأنها : القوة المحركة .. الدافع الحقيقى .. الفاعل ..

وقد عين أقاربها فى كل مكان .. وكانوا جميعا تافهين .. ولكنه لم ير فى ذلك شذوذا .. ولما خشيت الملكة فكتوريا أن يأتى بهم فى رئاسة الوزراء بعثت بمن يقول له : إن انجلترا ليست مزرعة ولا حظيرة لأبقار أقارب زوجتك .. وإذا كان هذا رأيك . فلتكن عندك

الشجاعة فى أن ترفض الوزارة إذا عرضت عليك !

ولكن زوجته أصرت أن يقبل رئاسة الوزراء وأن يفعل مايشاء .. فهو جاء بالشعب وليس بالملكة .. واقاربها من الشعب ولايعيبهم أنهم من النبلاء . كما أن الملكة قمة النبلاء !

ولما واجهه وزير الخارجية فى اجتماع مجلس الوزراء بهذه الحقيقة قال : معك حق . ولكن لا استطيع أن اغضب زوجتى !

ولما قيل له : ولكنك اغضبت الملكة ، فأجاب : ولكن الملكة ليست زوجتى !

واستقال من رئاسة الوزراء سنة ١٨٤٦ . ولم يعلن عن السبب . ولكن الملكة فكتوريا هى التى أعلنت : إنه رجل عاجز عن اتخاذ أى قرار .. وعندما يكون رئيس الوزراء ضعيفا ، يكون هو الوزراء ، والوزراء هم الرؤساء ، وبدلا من أن يكون هو صاحب القرار ، يكونون جميعا ، وعليه هو وحده أن يطيع .

وقد اقترحت الملكة فكتوريا أن يأتى بزوجته ويجلسها تحت مقعده ليلقى إليها بالتقارير ويعرف رأيها فورا ـ إلى هذه الدرجة كانت تسخر منه ـ وكان يقبل السخرية لأن زوجته لم تقنعه بالاستقالة .

واختلفت مع كل الوزراء وكل وزير يختلف معه ، تحذفه زوجته من قائمة المدعوين إلى حفلاتها . وكانت تقابل الناس بالملابس العادية وشعرها المنكوش . لأنها ترى فى الزينة كذبا ، وفى الاهتمام الخاص بمظهرها نفاقا . وهى تكره أن تبدو على غير طبيعتها شىء

واحد افلحت اختها فى تغييره . فلم يكن من عادة الليدى رسل أن تستحم كثيرا .

فقالت لها : إن رائحتك تطفش الكلاب وكانت تقول لها ولكن القديسين لم يعرفوا العطور ، وتقول : ولكن استحمى ! وترد عليها إن احتقار الجسد فضيلة !

واختها تقول : واحترام مشاعر الناس فضيلة أخرى .. إن الناس يمنعهم الخجل من أن يقولوا لك أف .. أف !

فترد عليها : ولكن أحدا لم يقل لى ذلك !

وتقول اختها عندهم ماليس عندك : الذوق وذهبت اختها وأتت بواحد من أطفالها وسألته هل تكذب .

قال : لا .

قالت : أبدا .

قال : أبدا

قالت : هل تجد رائحة ماما كريهة ؟

قال : جدا .

قالت : فلماذا لاتقول لها ذلك ؟

قال : ولكنها لم تطلب رأيى .

وفى خطاب بعثت به اختها قالت : عجيب أمرك .. تقولين إن رائحة زوجك مثل رائحة الأعشاب سقط عليها المطر .. وتقولين إن زوجك لم يلفت نظرك مرة واحدة إلى أنك لم تستحمى .. هل نسيت

أن زوجك مزكوم من عشرين عاما .

وغضبت من اختها ولم تعد تدعوها إلى حفلاتها .. ولكن اختها كانت تحضر دون دعوة وتقول لها : غيرى هذا الفستان .. وهذه التسريحة .. أمسكى لسانك عن الملكة فكتوريا وعن الوزراء .. إنك تهدمين كل العلاقات الطيبة بين زوجك وزعماء الحزب ورجال البلاط .

وفى مجلس العموم أعلن أن رئاسه الوزارة قد اغرقته فى الديون .

فكان لابد من الحفلات . وهو لايختلف عن زوجته فى رأيه فى الناس . هو يرى أنهم كذابون معظم الوقت . وهى ترى أنهم كذابون دائما .

هو يرى أنهم منافقون أحيانا . وهى تراهم منافقين فى كل الأحيان .

فى يوم قال لزوجته : أرأيت فلانة أنها جميلة قالت : أنت رأيتها جميلة ؟

قال : فيها بعض الجمال .

قالت : هذه خطيئة .

قال : بل خطيئتان .. أن أقول عنها كذلك .. وأن أصف امرأة غير زوجتى بالجمال .

ولم تنس له مطلقا هذه الملحوظة فكانت توقظه من أحلى نومه لتسأله : وما الذى أعجبك بالضبط فيها ؟

فيقول : يكفى أنها لاتتكلم كثيرا .

إذن أنا لست جميلة لأننى لا أكف عن الكلام .
أنت لاتتكلمين أنت تفكرين .

وفى يوم فى حفلة كبرى سحبت زوجها من ذراعه لتسأله : وما الذى جعلك تقول إن هذه السيدة جميلة ؟

وكان ذلك أمام السيدة وزوجها وزير الخارجية وبعض الضيوف وبسرعة قال زوجها إن السيدة تراك أجمل امرأة فى العالم لابد أن تكون جميلة وخرجت زوج وزير الخارجية وزوجها وبعض المدعوين .. ولم يظهروا فى حفلاتها بعد ذلك !

كتبت الليدى رسل إلى اختها تقول : لايزال أمل زوجى هو أن يخفف عن الفلاحين .. ليعطيهم حرية استيراد القمح وأن يرفع عن كاهلهم الضرائب الثقيلة .. ولكنه لن يستطيع . فالذين يريدون سحق الفلاحين والفقراء هم أصحاب القصور .. لابد من خدم وخيول وكلاب وسهرات .. وكلها تستمد حياتها من دم الفلاحين .. ولذلك فالرسالة المقدسة مستمرة .. واجبة النفاذ . ولكن صحة زوجى لن تمكنه من ذلك !

وعندما اشتد على زوجها المرض كانت تجمع أولاده وأحفاده حوله . وتصلى من أجل رحيله إلى العالم الآخر .. وكانت تقول : إن المريض يجب أن يستعد نفسيا للرحيل .. حتى يكون انتقاله سهلا .. وحتى نساعد الروح على أن تنفصل عن الجسم بسهولة .. مثل سقوط الثوب على الأرض .

ولكنه شفى من المرض .. وعاود نشاطه فى الزراعة وتربية الخيول فكان يصحو من نومه ليجد أولاده وأحفاده حوله يصلون لله شكرا على أن اعطاه الصحة والعافية من أجل الإنسانية كلها .

ذلك هو الجو العائلى : صلوات .. وابتهالات لله وشكر فكل غرفة هى كنيسة .. وكل حياتها استعداد للموت .

واحد من أفراد هذه الأسرة قد ضاق بهذه الحياة تماما . وخرج عليها وكفر بالدين وبالكنيسة ذلك هو حفيدها الفيلسوف برتراند رسل الذى انفرد بجدته هذه إحدى المرات وقال لها : أكبر غلطة فى حياتك أنك لم تعرفى الخيانة الزوجية .

فامسكته من ملابسه : وقح !

قال لها الفيلسوف الصغير : ولكن الله الذى تعبدينه قد اعطاك كل حق لكى تبحثى عن رجل آخر .. إن زوجك رجل ممل .. ومشغول ولايعرف كيف يتكلم ولا كيف يحب .. ثم أنه أكبر منك فى السن .. ولم تكونى زوجته الوحيدة .. ثم أن حياته كلها خارج البيت وليست لك .. فكل هذه مبررات لأن تبحثى لك عن رجل آخر يعطيك كل الذى لم يعطه لك .. وعليك أن تشجعيه أن يفعل نفس الشىء . فتكون حياتك الزوجية أكثر بهجة ، ويكون رئيسا للوزراء خفيف الدم مقبولا محبوبا من الوزراء والناس !

وهو لم يتمكن من ابداء رأيه هذا إلا وهى تضربه .. ولكنه يصر

على أن يكمل عبارته .. وأكملها . وطاردته وكان يختفى منها فى الغابات ..

يقول الفيلسوف رسل : لم أكن فى حاجة إلى أكثر من ذلك ، لكى اتمرد على الحياة والدين .. فجدتى هذه نموذج لكل الذى أكره فى هذه الدنيا .. فالمرأة لايصح أن تكون مثل جدتى .. والرجال لايصح أن يكونوا مثل جدى .. والحياة الزوجية غير ذلك ، وحكم انجلترا أيضا أن جدى رجل نقل عقله من رأسه إلى رأسها .. وهى امرأة لاتعرف إلا أن تلد وترضع وتنسى أنها أولا وأخيرا كائن يجب أن يكون عاقلا .

* * *

وفى سنة ١٨٧٨ أصبح من المؤكد أن اللورد جون رسل سوف يموت .. وتركت زوجته الحياة كلها وأولاده وأولادها الذين كبروا جميعا . وأقامت إلى جواره فى السرير تقرأ الكتاب المقدس وتمتنع عن الطعام . وعندما توفى كان يمسك يدها . وأوصاها ألا يدفن فى مقابر العظماء فى كنيسة وستمنستر وإنما فى مدافن أسرة رسل .

وبعد وفاته لم تتغير حياة زوجته . ظلت هى الأخرى تستعد للموت بين لحظة وأخرى .. تسع سنوات ..

عاشا وماتا غريبين عن الناس : لاهى أحبت الناس ولا هو .. ولا الناس أحبوهما . عاشا وماتا فى جزيرة من الكراهية . فكأنهما قررا ألا يعيشا بين الناس .

وقبل أن تموت الليدى جون رسل أوصت واحدا من أولادها هذه الوصية التى تدل على أنها لاتعرف حقيقة ماحدث لزوجها أبوك يجب أن يكون مثلك الأعلى .. وأنت ترى أنه أعطى حياته للناس ، فأحبه الناس وقدسوه .. وعندما مات لم يمش فى جنازته احد .. لقد اقعدهم الحزن عن الحركة ؟!.

١٥- «إننى أكره المتزوجين
لا نتزوج .. ولا تتزوجنى ياحبيبى!»

عندما رأى دزرائيلى رئيس وزراء بريطانيا (١٨٠٤ ـ ١٨٨١) زوجته لأول مرة همست فى أذنه : إننى أحب العاشق الصامت !

قال لأصدقائه : إنها مصاصة دماء .. إنها مُلعب ـ بضم الميم .

طردته يوما من بيتها وهى تقول : أنت خنزير يعيش على أموال حماره !

بعد زواج دام ٣٣ عاما قال عنها : لولاها ما كنت رئيسا للوزراء ولانجحت .. إننى بعقلى الصافى وقلبها الوفى استطيع أن أغزو العالم !

وحين التقى بنيامين دزرائيلى سنة ١٨٣٢ بزوجته المقبلة كانت فى الأربعين تكبره باثنى عشره عاما وكانت زوجة لأحد أعضاء البرلمان . وكان دزرائيلى عائدا من الشرق وفى رأسه أفكار سياسية ومشاريع لأعمال أدبية .

وكان دزرائيلى استعراضيا يحب أن يلفت العيون إليه بألوانه الصارخة فى ملابسه وبالسلاسل الذهبية التى تتدلى من الصديرى وبتسريحة شعره الأسود الكثيف . وكان إذا ذهب إلى حفلة لايدخل بين الناس وإنما يتوقف طويلا حتى تلتفت إليه الرءوس ثم إذا هو

« ديك رومى » قد نشر ذراعيه وراح يدور حول نفسه .. وتكون النساء عادة أول من تقول هه .. البالطو .. ياه الصديرى .. أوه السلاسل والخواتم .. إنه رائع .. إنه دزرائيلى !

ولما التقى بزوجته المقبلة مارى ـ أن كتب لأحد أصحابه يقول : من المؤكد إنها امرأة تعرف كيف تثير الرجل وكيف توقع بالرجال وتوقع بين الرجال أيضا !

دوخته عندما قالت له وهو يصافحها : إن قلبك يدق فى يدى !

أما النساء فيرين هذه السيدة مارى ـ آن ثرثارة متصابية . فهى ترتدى ملابس الفتيات الصغيرات . وفى حاجة إلى من يذكرها بأنها تجاوزت الأربعين .. ولكنها تقول : أنا بلغت العشرين مرتين .. وسوف أظل فى العشرين حتى الموت !

أما دزرائيلى فقد وجدها تافهة جدا . وأنها لاتعرف إن كان آدم هو الذى نزل إلى الأرض أو هو أبونا إبراهيم !

وكانت تقول : إن الله قد أعطى الرجال وجع الدماغ ، وأعطانى القدرة على راحتهم .. فأنت لا تسأل مخدتك أن كانت تعرف الفرنسية أو الإيطالية .. أنت تريدها لينة ناعمة ـ وهذا يكفى !

وهى لم تولد فى بيت كالذى ولد به دزرائيلى به مكتبة من ٢٥ ألف كتاب . وكانت تقول : أجد الرجال المثقفين جدا ، يبعثون على الملل !

وكانت تقول : الرجل الذى يريد الثقافة فلماذا لايتزوج رجلا ؟!

فآباؤها من الفلاحين الأغنياء . ولها إخ برتبة جنرال كان يعمل فى الجيش تحت قيادة دوق ولنجتون الذى هزم نابليون فى معركة ووترلو ..

وفى سنة ١٧٩٣ مات أبوها وهى فى الثانية من عمرها وتزوجت أمها بعد سنوات ، وأمها غنية . ولذلك فمارى ـ آن قد عرفت عشرات الشبان يعاكسونها ويهمسون فى أذنها بالزواج المبكر . وتجاهر هى بالرفض .. ولها عبارة مشهورة : إننى لا أحب الزواج ، فأنا أكره الرجل المتزوج .. والذى يتزوجنى !

وكانت أمها جميلة ، وقد رأت أمها تعاكس الرجال ويعاكسونها . وسارت هى على نفس الطريق ، أو وجدت هذا الطريق فسارت فيه .. وأضاءت جوانبه وزرعت فيه أشجار الخطيئة .

أما هى : فنحيفة رفيعة العنق المستدير ، والعينان زرقاوان واسعتان .. والشعر بنى اللون . وهى تنظر إليك فى عينيك .. ولها قدرة على أن تنظر إليك بعين واحدة وتركزها حتى يخيل إليك أنها تفتش قلبك وجيوبك أيضا . وهى تعرف فى نفسها هذه القدرة الفذة .. وكان اصدقاؤها يداعبونها : لاترهقى عينيك ماذا تريدين منى وأنا سوف اعترف لك بسرعة !

وكانت تقول : لابد أن الحياة مع رجل واحد صعبة جدا .. تماما كالمشى على ساق واحدة والنظر بعين واحدة وأن يكون لك صف واحد من الأسنان !

كان عمرها ٢٣ عاما عندما تزوجت رجلا عضوا فى مجلس العموم ومن تجار الحديد الأغنياء . أحبها وانهار فى غرامها . وكتب فيها شعرا . يقول :

« الزهور والطيور والليل الصامت .
والنجوم البعيدة . ووقع أقدام الكلاب .
وسنابك الخيل ، ورقرقة الماء فى جدولنا الصغير .
كلها أحست باقترابك فدبت فيها الحياة .
ياجميلتى ! » .

وقد اعترض أقاربها على زواجها من هذا الرجل الشاذ ولكنها أصرت على ذلك . فكانت فى حاجة إلى فلوسه لكى تدفع رشوة لترقية أخيها فى الجيش . وكان حبها لأخيها نموذجا صارخا على الشذوذ فى الحب الأخوى !

وذهبت مع زوجها لكبرى الحفلات وحلبات سباق الخيل وتنقلت من قصر تملكه إلى قصر أكبر وحديقة أوسع وخيول أكثر وطوابير من الخدم . ثم أنه أغرقها فى الثياب المزركشة ، وغطى عنقها وصدرها وأصابعها بالذهب والماس .

كتبت لأخيها تقول له : ياحبيبى ولا حبيب سواك إننى أعيش فى أسعد أيام حياتى .. زوجى طيب كريم عطوف . تشاجرت معه أمس . وأنت السبب . أنا طلبت منه ألفين وهو يصر على ألف .. فهددته .. فترك لى ثلاثة آلاف وخرج ولم يعد .. ولكنى أعرف كيف

أعيده زاحفا بثلاث آلاف أخرى !

وعندما انتقلت إلى بيتها الجديد فى لندن بالقرب من البرلمان أقامت حفلا ضخما كان حديث الناس . وكان فى مقدمة الضيوف دوق ولنجتون والوزراء والأغنياء .. وقيل إنها إحدى ليالى ألف ليلة .

كتبت لأخيها : تصور إننى استقبلت ذلك البطل النبيل : ولنجتون !

وكتبت تقول له مرة أخرى : تصور أن دوق ولنجتون قال لى : أننى سعيد لأننى أرى حفلتين فى وقت واحد : هذه الحفلة وأناقتك وجمالك ! تصور .. وتعلم !

وعرفت مارى ـ آن كل أصدقاء دزرائيلى وسمعت به وعنه كثيرا . ولم يبق إلا أن تجد نفسها مع دزرائيلى وقد عرفت عنه كل شىء . وهذه هى المصيدة التى يقع فيها كل الرجال : أن يجدوا امرأة تعرف عنهم كل شىء . منتهى الغرور والعبط فالرجل يتصور أنها مفتونة به وأنها لذلك تسأل عنه وتتابع كل حركاته فى كل مكان . مع أنه مجرد حب استطلاع غريزى . فقط تريد أن تعرف عنه وعن غيره من الرجال والنساء والخيول والكلاب . ولكن الباب الملكى لقلوب الرجال : الغرور !

كتبت لأخيها تقول : دزرائيلى سوف يكون أعظم الرجال فى زماننا موعدنا غدا أو بعد غد على أكثر تقدير . إن غريزتى لاتخيب ..

أنا تنبأت لك بأن تكون إنسانا تافها . ولم يخب ظنى حتى الآن .

واعجبت بدزرائيلى ، وهمست بذلك الاعجاب للنساء حوله . فانتقل إليه الهمس . ولكن عندما يراها فإنها لاتواجهه ولا تكلمه . وإنما ترمقه من بعيد .. والتقت أسرته مع أسرتها .. وكان كلام وسلام وهمس . مثلا : هل تعرف كم يبلغ ضحاياك ؟

وكان يرد : إنهم أقل من ضحاياك !

أول خطاب جاءه منها يقول : أموت فيك .. وأموت بعيدا عنك .. ياحبيبى !

وكانت خطاباته بتوقيع : د .. أو .. دز .. وكان حريصا فى الدوران حولها .. والهمس واللمس من بعيد .. فكان يخاف أن يقع خطابه فى يد من لا يرحمه سياسيا !

وأدركت بذكائها ذلك فقالت له .. ولكننى على استعداد أن أعلن للناس أننى صديقة غرام أعظم رجل فى زماننا .. إن لم تكن الآن عظيما ، فسوف تكون عظيما . أراهنك . وسوف تخسر الرهان وأقيم أنا حفلة لانتصارى وهزيمتك .. أيها العبقرى !

وكان من الممكن أن تمضى الرسائل إلى مالا يعرف أحد لولا أن مات زوجها سنة ١٨٣٨ بين ذراعيها . كان فى الستين مات بالسكتة . وفى شهوره الأخيرة لم تكن تصاحبه فى حملاته الانتخابية . كانت مشغولة هى بمجالس الرجال ومعاكستهم والتمتع بايقاعهم والفرجة عليهم .. والنظر إليهم وقد تساقطوا من الفشل .. ولها عبارة تقول :

ومن التى تقاوم طريقا مفروشا بقلوب الرجال . إن تعذيب الرجال أعظم من الفوز بهم !

ذهبت إلى دزرائيلى تستشيره فى مستقبل ما ورثته عن زوجها من غابات وأرض وحدائق وقصور وخيول وأموال وقبل أن تذهب للقاء دزرائيلى كانت تبعث إليه بمزيد من السلاسل الذهبية والخواتم والدبابيس .. وكانت تقول له : خذ أرضى .. خذ أموالى .. وأعطنى الراحة .. اعطنى السعادة !

وكانت تكتب له : كلما سمعت أنك تزور أسرة كبيرة أسعدنى ذلك .. فمعنى ذلك أنك لاتفكر فى الزواج ، وإذا فكرت قتلتك .. فأنا أحبك كما أنت .. لاتتزوج .. لا تتزوجنى ياحبيبى !

ولكن أحد اللوردات تحدث إليه عن مستقبله السياسى فقال له : خذها منى نصيحة : لاتعشق امرأة ، ولا تتآمر على أحد ، واحتفظ بمقعدك فى البرلمان ، وإذا وجدت أرملة تزوجها !

وكانت هى الأرملة ..

وقال الناس : هذا الذكاء يقع فى غرام هذا الغباء .. إنه يريدها لفلوسها ..

وكانت تقول له : هناك نوعان من النساء ـ الدميمة الذكية ، والجميلة الغبية ـ والدميمة تكسب عادة . وأنا النوع الثالث : الجميلة الغنية . وأنا التى سوف تكسب فى جميع الأحوال . اتحداك ألا تكون ضحيتى .. ياحبيبى !

ويوم طردته من بيتها كتب إليها خطابا شهيرا من ١٥٠٠ كلمة ، يعرض عليها الزواج . ويقنعها أن توافق فى أقرب فرصة . فى هذا الخطاب يقول : لا حب .. ولا فلوس . ولكن تأثرت جدا لحزنك على زوجك .. ثم أنك لطيفة رقيقة حتى عندما تكونين جارحة .. فأنك توجعين ولكن دما لايسيل !

ولم تكن لها ثروة حقيقية . ولكنها نجحت فى أن توهم الناس بذلك . ولا هى جميلة ولكنها أوهمت بذلك .. ولا هى غبية ولكنها تظاهرت طول عمرها بالسذاجة والبلاهة أحيانا ــ هذا رأى دزرائيلى .

ولكنها رفضت أن تتزوج دزرائيلى . وطلبت مه أن يعطيها عاما لكى تفكر فى الأمر .. فكتب يقول لها : سوف تندمين على القلب الكبير الذى حطمته ، سوف تأسفين على العبقرية المتألقة التى لم يخطف بريقها عينيك .. لست أى رجل وإنما أنا « واحد » الرجال فى هذا الزمان ــ ليس هذا رأيى ، ولكنى استعرت منك هذه العبارة التى تلمع فى خيالى ، كما تلمع سلاسلك الذهبية وقطع الماس على صدرى وأصابعى ! إن أعظم ماسة فى تاجى من صنعك .. هل نسيت ؟ !

وتزوجته . وقالت : يقولون إنه تزوجنى لفلوسى ، ولكن لو اتيحت له الفرصة أن يتقدم لى الآن مرة أخرى ، لتزوجنى لحبى !

* * *

أما هو فلابد أن يكون دائما فى حالة حب .. وهو يحب النساء الأكبر سنا ، لأنهن أعقل وأنضج ولأنه يجب أن يظل طفلا ينتقل من حضن إلى حضن .. من أم إلى أم وكان يقول : إن الرجال يحتاجون إلى حنان طويل ، أكثر من حاجة النساء .. والعبقرى يحتاج إلى حنان أطول وأعمق .. فالعبقرى له طفولتان : طفولة الناس العاديين وطفولته الخاصة .. وبين النساء موهوبات يستطعن بالغريزة أن يعرفن الرجل الطفل .. أو الطفل المعجزة .. فتنشط كل غرائزهن من أجل احتوائه وانضاج عبقريته .. زوجتى من هذا الطراز الفريد فى التاريخ !

وعلى الرغم من أنها كانت غنية أو تبدو كذلك ، فإن فلوسها لم تكن تهمه فى المقام الأول .. وإنما كل الذى يعنيه هو هذا الاحساس الفريد : الشعور بالراحة .. الشعور بالأمان .. عندها هذه الطاقة الهائلة على الدفء .. والحنان .. وعندها هذا اليقين بأنها وحدها القادرة على ذلك .. ثم أنها أيضا تجعله يشعر بأنه أعظم رجل فى الدنيا .. وأن الدنيا بغيره ، كان من الممكن أن تتخذ مسارا آخر .. إنها تتحدث إليه ومن النادر أن تناقشه .. وإنما تكتفى بتسليته ..

وكانت تقول له : لو عرفت لحظة واحدة إننى أستطيع أن أتنفس من أجلك ، وأن تنفسك يرهق صدرك ، لملأت صدرى بالنيابة عنك .. ولو عرفت أن هواء الغرفة لايكفى إلا واحدا ، لأوقفت تنفسى واسعدنى الموت من أجلك ! !

وتقول : زواجنا قد نجح ، لسبب بسيط .. كل النساء كن يأخذن منه ، أما أنا فأعطيه بلا حدود ..

وبعد وفاتها قال دزرائيلي : كان زواجنا ناجحا ، لقد أعطتني الحنان قبل الجمال والموهبة ، الحنان هو ما أعطتني ، وهو ما احتجت إليه .

ولما غضبت معه فى إحدى المرات ولأسباب تافهة كتبت تقول : عد .. ما فكرت لحظة أنك تريد فلوسي .. فكرت فقط فى أننى لا أستطيع أن أعيش بغيرك عد ياحبيبي !

ولم تقبلها الأوساط العالية فى المجتمع . فالنساء ينظرن إليها على أنها صيادة رجال .. اصطادت المال ، والآن اصطادت المستقبل .

رأى آخر فيها : إنها لم تكن ذكية بصفة خاصة . ولكن كان وراءها كل تاريخ الأنثى : الصبر والترقب والصبر والانقضاض بعد ذلك ـ هذا ماحدث !

كانت تكره حياة الفخفخة التى يعيشها والابهة فى الأكل والشراب والحفلات والبذخ فى الملابس والمجوهرات .. ولكنها دفعت ديونه كلها .. فاتجه إلى السياسة بكل قواه . ولما ظهر عليه الارهاق طلبت إليه أن يذهب إلى أكثر من طبيب ليتأكد من سلامة قواه قبل أن يبدأ سلم المجد .. وعاد من الأطباء أكثر عافية فقد أكد له الأطباء إنه فى صحة الحصان . وفى يوم وجدته جالسا على مقعد أمام البيت .. قال إننى لم أنم من يومين .. أريد أن أجرب قدرتى على

احتمال السهر فى جولاتى الانتخابية !

وفى يوم صحا من النوم فلم يجدها وسأل . فلم يدله أحد على ذلك . ثم ظهرت فى اليوم التالى . أما السبب فهى : تريد أن تعرف إن كانت تستطيع احتمال غيابه عنها . ولكنها لم تستطع . ولم ينفصلا إلا ساعات من أى يوم .. فإذا غاب نصف يوم ، بعثت إليه بخطابات القلق والهيام . وكان يرد عليها أيضا .

وكانت مارى ـ آن تشرب كثيرا ، يوم كان القدر المسموح به للمرأة المحترمة كوبا واحدا من النبيذ !

وأيام حملاته الانتخابية كانت تدق الأبواب تدعو له .. وتمر على الحدائق والمزارع والحظائر والدكاكين تؤيده وتسانده .. وتصافح الأيدى الخشنة ـ وتحمل الأطفال عن الأمهات . وكانت تحب الأطفال . ويحبها الأطفال . وهى لم ترزق طفلا من زوجها الأول وكذلك من الثانى ..

وفى إحدى المرات كان زوجها يخطب فى مجلس العموم فانغلق الباب على يدها فلم تصرخ ولم تفتح الباب حتى لايكون له صوت يشغل الناس عن خطاب زوجها !

وكل الورق الذى ألقاه زوجها وهو يعد خطاباته ومقالاته ، احتفظت به . وكانت تقوم بتصحيح كتبه فى المطبعة . وكان عندها احساس أن هذه الكتب هى اطفالها من دزرائيلى ..

وقد كتب إهداء لها فى إحدى رواياته .

إلى التى شجعنى صوتها الجميل وذوقها الرفيع عبر هذه الصفحات ، إلى أقسى ناقد عرفته ، إلى التى وجهتنى من البداية إلى النهاية ـ إلى زوجتى الكاملة .

* * *

فى سنة ١٨٤١ تشكلت وزارة جديدة . كان يطمع فى أن يكون واحدا من اعضائها . ولكنه لم يكن . غضب . حزن . ثار . وكانت زوجته أكثر ثورة . واقنعته بأن الوزارة تافهة ، كرئيسها تماما . فهو رجل لايحل ولايربط . واتفه منه زوجته . وإن عبقرية دزرائيلى ، لايصح أن ترتبط بهذا الافلاس العقلى والسياسى ..

ودون أن يعرف زوجها كتبت خطابا لرئيس الوزراء تقول له : لعلك تلاحظ ياسيدى أن الوزارة تضم عددا دون موهبة زوجى .. وأقل قدرة على خدمة انجلترا .. وإنهم عاجزون أن يكونوا الصديق لك والمستشار والمخلص . إنك ياسيدى لم تحطم قلب زوجى . ولكن قد يحدث ذلك قريبا . فزوجى ياسيدى قد طلق الأدب من أجل السياسة .. وكانت هذه هى الفرصة التى ينتظرها . فنى وسعك إصلاح هذا النسيان حتى لايشعر زوجى بأن الحياة لامعنى لها .

وتلقت ردا من رئيس الوزراء باردا جافا يأسف لما حدث .

وقرر دزرائيلى أن يسافر إلى فرنسا فى رحلة نسيان . وهناك التقى

بالملك والنبلاء والأدباء .. ثم عاد من رحلته الأوروبية إلى بيت جديد يقيم فيه الحفلات ويزرع الأشجار ويفتح الممرات ويضع المشاعل . لقد قرر أن يعيش حياته ، مادامت السياسة قد تجاهلته فى أول فرصة .. ووضع التماثيل الاغريقية والرومانية فى الطرقات ، وكان الضيوف سعداء بالحياة فى بيته .. قال له أحد اللوردات : شىء عظيم أن أجدنى نائما بين تمثال أكبر شاعر أغريقى ، وبطل رومانى ..

وكانت ـ مارى آن ـ تقول : ولكنك لم تر زوجى وهو فى البانيو ياسيدى .. أروع من الاغريق والرومان معا !

ومازالت السيدة ـ مارى آن ـ تضع ملابس بنت العشرين وصورة كبيرة فى اطار من الذهب على صدرها .. صورة زوجها .

وكان الناس يتساءلون إن كان حقا يعنى مايقول عن زوجة . فكان يرد : آمنت بى عندما كفر بى الناس !

ويتساءلون : ولماذا تزوجتها ؟

فيقول : امتنانا لها !

ولكنه لم يتوقف عن الكفاح لحظة ، عمل . وتعب ونافس وخطب ودرس وانتظر وانتصر..

وكان يعود عند الفجر من جلسات مجلس العموم فيجدها فى انتظاره وقد أعدت له طعاما ساخنا وحماما دافئا وعشرات الحكايات المسلية ..

وكانت تنتظره فى عربة أمام مجلس العموم وقد حملت له الطعام يأكله أثناء الطريق .

أما الملكة فكتوريا فقد وصفتها بأنها : ست بلدى !

وبدأ دزرائيلي يلمع .. وتلتفت إليه العيون . وفى إحدى الحفلات لاحظت زوجته أن الملكة لاترفع عينيها عنه . ثم دعتهما فى إحدى حفلات الزفاف ، ولم يتلق كثيرون من الوزراء مثل هذه الدعوة الرفيعة ..

وأعظم تحية تلقتها ـ مارى آن ـ من زوجها : أنت عشيقة أكثر منك زوجة ياسيدتى !

وكانت تصارع المرض .. ولم تقل له ، إنه السرطان الذى أودى بحياتها بعد خمس سنوات . كتمت مرضها ولم تشأ أن تضايقه بذلك .. وعرف هو أيضا ماعندها ، ولم يشأ أن يخيفها على نفسها فكان يدعوها إلى الحفلات .. ويخرج بها للنزهة فى شوارع العاصمة .. ولم تتوقف عن اقامة الحفلات حتى لايشعر هو بالوحدة ، ولم تكن تأكل فقد كان المرض يأكلها فى معدتها ..

وفى سنة ١٨٦٨ انهارت .. ولزمت الفراش .. وبدأ هو الآخر يعانى من النقرس ولزم كل منهما فراشه .. وكان الخدم ينقلون الرسائل ذهابا وإيابا ..

وشفى الأثنان . ولكن كل منهما يعانى ويسكت .

وفى فبراير سنة ١٨٦٨ جاء الانتصار العظيم الذى انتظره طوال

حياته دعته الملكة فكتوريا لتشكيل الوزارة . لم تطل الوزارة ــ عشرة شهور فقط . وكانت هى مرهقة مهدودة جاحظة العينين .. كأنها الموت .. أو كأنها اشباح مسرحيات شيكسبير .

كما يقول زوجها . ولكنها اقامت أعظم حفلة عرفتها بريطانيا . ولم تشأ أن يكون ذلك فى مقر الوزراء بشارع داوننج . فهو بيت قديم كئيب متهالك .

وقد آمن دزرائيلى بأنه لن يكون ، مرة أخرى رئيسا للوزراء .. وإذا حدث ، فستكون زوجته فى العالم الآخر ..

ولما عرضت عليه الملكة أن يكون عضوا فى مجلس اللوردات وافق لأنه يريد أن تحصل زوجته على لقب الكونتيسة .. أما هو فكان يحب مجلس العموم ، ولا يريد أن يتركه . إذن لقد تركه ارضاء لزوجته ومكافأة على كفاحها الطويل معه من أجله .

لقد أصبح اسمه : لورد بيكونز فيلد .. وبسرعة وضعت هى حرف « الباء » على كل شىء فى البيت الأبواب والمخدات ..

وفى يوم تساندت على كثيرين لكى تذهب لسماع خطبة لزوجها .. صفق له الأعضاء ولم تنتبه إلى مرضها وشيخوختها فاندفعت تصفق له .. فسقطت على الأرض . وحملوها إلى البيت ليظل إلى جوارها عشرين يوما .

كتب دزرائيلى يقول : شىء فظيع أن ترى الحياة تجف فى وجهها .. وأن ترى البريق يخفت فى عينيها . وأن ترى الحاضر يفسح

طريقا للماضى بسرعة مخيفة .. أن تموت من وهبتنى الحياة !

وراحت تتحرك على مقعد له عجلات ثم تجلس فى النافذة تراقب الحياة خارج البيت ، وتسمع صوت زوجها واقدام الضيوف والخيول والعربات والعصافير.

ومازالت ملابسها صارخة الألوان . ثم اصيبت بالتهاب رئوى . وكان عاجزا عن احتمال الكارثة .. فلم يغادرها ليلا أو نهارا . وماتت على مقعدها بعد أيام من الهلوسة . وصلت إلى حالة من الجنون . وفى هذا الجنون لعنت زوجها ويوم رأته ويوم صدقته ويوم أعطته مالها وحياتها .. وهى تعرف أنه خائن لها مع نساء كثيرات .. وإنهم عندما رفضوا ادخاله الوزارة كان بسبب سفالته الأخلاقية ؟!

وبعد وفاتها ، اكتشف الزوج بين أوراقها عشرات من خصل شعره .. فقد ظلت تحلق له رأسه وتحتفظ بكل مايسقط منها من شعر .. وكانت هى التى تضيع شعره أيضا .

ثم وجد رزمة من الخطابات ملفوفة فى ورق انيق ومكتوب عليها خطابات حبيبى اثناء مرضه .

وفى أحد الادراج وجد خطابا فيه ورقة تقول : وهذا خاتم زواجنا ، نزعته من أصبعى ياحبيبى لأنها تورمت ؟

وخطاب موجه إليه يقول : لاتعش وحدك ياحبيبى أرجوك أن تتزوج واحدة تحبك وتفرغ لك مثلى . لاتتردد لحظة واحدة . سأكون سعيدة إذا فعلت . تزوج ياحبيبى . يحفظك الله .

وكان يقول عنها : إنها اشجع النساء وأكثرهن مرحا واقدرهن على سعادتى وفى يوم عاصف مطير وقف عارى الرأس أمام جثمانها يضعونه فى التراب وتلقى مئات من خطابات التعزية .

ووجد فى أوراقها تحليلا مستفيضا تقارن فيه بينها وبينه .. تقول : هو عبقرى وأنا تافهة .. أنا لايمكن الاعتماد على . هو يستطيع أن يضع على كتفيه الامبراطورية .. عنده طموح ، لاطموح لى !

والحقيقة أنها ظلمت نفسها كثيرا فقد كانت راسخة الخطوات وراء زوجها وكانت ذراعه وعقله وقلبه ووزير الدعاية له ليلا ونهارا .

وقد كتبت صحيفة « التايمس » يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٨٧٢ نعيا لها تقول فيه : من الذى كان يتصور أن هذه السيدة العادية سوف تكون زوجة لألمع ساسة انجلترا ؟ من الذى كان يتصور أن يكون لها هذا الدور العظيم فى مسار السياسة الإنجليزية عندما أصبح زوجها رئيسا للوزراء وزعيما لحزب المحافظين ؟ من الذى كان يتصور أن يقول عنها هذا الرجل اللامع إنها أعظم من أية امرأة رآها أو قرأ عنها .. وإنها قادرة على أن تكون زعيمة لأى حزب فى أية دولة .. لقد أصبح زواجهما العاطفى حدثا تاريخيا .

ومن كلماتها : لاتقرأ تاريخا ، اقرأ حياة العظماء إنها تاريخ بلا نظرية .. وقد عشت وقرأت هذا التاريخ . فأنا أسعد أهل زمانى !

وقالت أيضا : لقد سمعت من ملك فرنسا لوى فيليب أن الإنجليز ناجحون فى سياستهم لأنهم يتحدثون كثيرا بعد العشاء .

وعلى قبرها وقف زوجها يقول : لن أنسى نصيحتك ياحبيبتى ..
أنت قلت : لا شكوى وإنما يجب أن تثور .. فإن الذى يشكو كثيرا
وطويلا يرهق نفسه . فيصبح عاجزا عن الثورة .

١٦- وفى عبارة واحدة من ٢٠٠ كلمة عرض عليها الزواج

كان من آمال وليام جلاد ستون (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨) أن يكون قسيسا . وعندما أصبح عضوا فى مجلس العموم ، كان من أجل الكنيسة. ولم يغب عنه هذا الهدف حتى عندما ظل وزيرا ٣٥ عاما ورئيسا للوزارة أربع مرات . كان رجلا متدينا يؤمن بأن الجنس حرام حتى بين الرجل وزوجته إلا إذا كان الهدف هو إنجاب الأطفال . وقد أنجب ١٢ ولدا . وكانت زوجته كاترين تتمنى لو استطاعت أن يكون لها أكثر. ولكن الأطباء منعوها . ثم أجهضت مرتين .

ولد وليام جلادستون فى قرية تبعد عن قرية كاترين زوجة المستقبل ، عشرين كيلومترا .. وكانت المسافة الاجتماعية بينهما أكبر من ذلك كثيرا .. أين هو ابن الطبقة المتوسطة ، وأين هى بنت الأكابر الأغنياء الارستقراط .. وعندما كانت كاترين تزور أخاها فى الجامعة وكان زميلا لوليام ، لم يلفت نظرها ، ولذلك أحبت زميلا لهما . ولما علمت أسرتها بهذا الحب دفعوها إلى السفر إلى أوروبا فى رحلة نسيان ..

ولولا أن وليام هذا أصبح عضوا فى مجلس العموم وحديث

الناس ، ما التقت أسرته بأسرتها . فقد تنبأ له كثيرون بأنه سوف يكون رئيسا للوزراء ..

أما كاترين فلم تكمل تعليمها . صحيح أنها تتكلم الفرنسية والإيطالية بطلاقة ، ولكن أحدا لم ير فى يدها كتابا . وكانت ترى وليام هذا لا يلفت النظر . وكتبت فى رسالة لأختها : إن وليام أى كلام !

هذا هو انطباعها لأول وهلة . ولكن هذا الانطباع تغير تماما . فبدأت تكتب لأختها التى هى توأم حياتها : نظراته ياهوه .. لفتاته .. ابتسامته ، وهو من النادر أن يبتسم .. ثم إنه لا يكف عن القراءة يبدو أنه ولد والكتاب فى يده ..

وسافر وليام مع أسرة كاترين إلى أوروبا .. فهو زميل وصديق لأخوتها .. ودار الكلام طويلا جافا .. ناعما بعد ذلك .. ودون أن يدرى فقد لفت حوله خيوطا من حرير .. لقد استطاعت دون قصد منها أن تحبسه فى « شرنقة غرامها » ـ كما تقول ـ ولكنه لا يستطيع أن يعترف لها بذلك . وقد حاول .. وتقول هى فيما بعد : لقد ندمت كثيرا جدا على أننى لم أساعده على أن يصارحنى بحبه . فقد كنت انتظر هذه اللحظة .

وفى يوم أرسل لها خطابا طويلا . وفى الخطاب عبارة واحدة طولها ٢٠٠ كلمة . فى هذه العبارة قال لها بتحفظ شديد كل ما فى نفسه . والذى فى نفسه أنه يحبها . ويسعده جدا ، لو وافقت على النهاية السعيدة .. وقد تضايقت من هذه العبارة ففيها كل ما فى

صناعة الكتابة من تحفظ وصنعة ، وفيها كل ما فى النار من حرارة وما فى الثلج من برودة وما فى الأدب من خجل وما فى الرجل من اعتداد بنفسه . وما فى الحب من قدرة على أن يجعل أكبر الكبراء صغيرا ، وأصغر الناس امبراطورا .

وفى يوم كانا يسيران على شاطئ النهر فأوقفها فجأة . ونظر إليها وهزت رأسها قائلة : أوافق !

وتلقى خطابا من أخيها يقول فيه : لا أجد فى هذه الدنيا أحدا يستحق أختى غيرك .. إنها مكافأة سخية لرجل عظيم . وأنت هذا الصديق العظيم . مبروك علينا جميعا !

أما أختها فقد أحبها أحد اللوردات .

وتزوجت الأختان فى ليلة واحدة يوم ٢٥ يونيو سنة ١٨٣٩ .. ولم تستطع أمهما أن تشهد هذا الحفل الضخم ـ أعصابها لاتقوى . فبقيت فى البيت تصلى لله وتشكره على هذه الجرعة من السعادة !

وفى يوم سألها : ولماذا قررت هكذا ودون مناقشة أن تتزوجينى ؟

فقالت : بعد وفاة أمك رأيتك تصطحب أختك المريضة إلى أوروبا . فأنا أحب الرجل القوى الذى يضعفه الحنان .. أحب الرجل الجبار الذى يصبح طفلا أمام حبه لأمه وشفقته على أخته .. أحب القلوب التى تتفجر بالرحمة فاحببتك .

ثم سألته هى : ولماذا قررت أنت أن تتزوجنى ؟

قال : كنا معا فى نابلى . وإذا بك تسألينى هذا السؤال : هل

هناك عدل فى أن ننعم نحن بكل هذا الرخاء بينما فى الدنيا جياع كثيرون ؟

لابد أن تجد حلا ! أعجبنى هذا السؤال .. أعجبنى العقل الذى قام بتركيب هذه العبارة والقلب الذى يدعو إلى الرحمة ..

كتبت لأختها تقول : يمكنك أن تمزقى كل الكتب التى فى مكتبتك ــ إن زوجى غير الذى ذكرت تماما . إنه عظيم محترم . ولكن العظماء أطفال .. صدقينى .. إننى أجده أصغر من كل أطفال أسرتنا .. هذا الرجل الذى سيحمل أعباء الامبراطورية ، لا يستطيع أن يقوم بشىء صغير فى البيت .. وهذه هى الفرصة الوحيدة أمام الزوجة لتكون شيئا هاما فى حياته . إذا كانت الكتب تقول شيئا آخر فلأن المؤلفين لم يعايشوا العظماء . سمعوا عنهم فقط !

أما خطاباته فكانت مركزة أنيقة دقيقة . فهو يعرف مايريد أن يقول . والصفحات لها أرقام والخطابات لها تاريخ .. أما هى فليست كذلك .. لا أرقام ولا تواريخ .. وإنما تضع الخطاب فى أى مظروف وتبعث به .. وعليه هو أن يرتب الأوراق لكى يتمكن من قراءتها . وكانت خطاباتها طويلة كثيرة تتحدث فيها عن كل ما يقال حولها .. كثير من الثرثرة . قليل جدا من السياسة ..

وانشغل زوجها بالحياة البرلمانية تماما . فكتبت لأختها تقول : أيامى حزينة .. إنه بعيد فى لندن غارف فى السياسة . من النادر أن يتكلم . وإذا تكلم فإنه يطلب منى أن أقول .. أن أحكى .. ألا أتوقف حتى

ينام .. وفى الليل يخطف العشاء . وينطلق إلى مجلس العموم . وفى الصباح يقرأ الصحف . لقد بدأ يعمل ١٤ ساعة فى اليوم الواحد . سألته مرة : هل تستطيع أن تعمل هكذا دائما ؟ فكان جوابه : أستطيع ولكن ليس دائما . شيء واحد يجعل الإنسان قادرا على الاستمرار : أن يكون منتظما فى العمل والنوم والأكل . وهذا مالا أستطيع الآن .. ولكن حاولى معى !

ولد لهما وليام ابنهما الأول فى سنة ١٨٤٠ .. وجاءت ابنتهما الأولى : أنييس سنة ١٨٤٢ .

وعلى الرغم من أعباء الحياة الزوجية والبيت والأولاد والضيوف . فإنه يجيء دائما فى المقام الأول . عندما يفتح عينيه تكون جالسة على المقعد أمام السرير وقد أعدت له الأفطار . وتظل مشغولة به وحده حتى يذهب إلى عمله . وكانت رغم ثرائها العظيم مدبرة .

فى يوم داعبها قائلا : يبدو أن المسلمين قد عرفوا سر الحياة الزوجية .. فاخترعوا الطلاق .. الرجل يترك زوجته إن كان تعيسا معها والمرأة أيضا .. ولكن الزواج عندنا مؤبد ..

وتسأله : ماذا تقصد ؟

أجاب : لو كان الأمر بيدى لطلقتك .. لأن الحياة معى شاقة ، وسوف تكون أقسى عليك وعلى بيتنا وأولادنا .. والاختيار صعب .. فإما أن أكون شيئا هاما ، وإما ألا أكون . وأنت قررت أن أكون بك

ومعك شيئا هاما فى مستقبل بلادنا . ولذلك يجب أن ترفضى العذاب معى ..

وتقول له : إننى أرتضى ماهو أقسى من ذلك .. وليس أقسى فى الدنيا من أن أكون زوجة لأعظم رجل فى بلادنا !

ولم تنس هى هذا الحوار لقد نقلته بحروفه لأختها ولصديقاتها دليلا على مدى حب زوجها وحبها لزوجها ..

وفى سنة ١٨٥٠ كانا فى إيطاليا ، واجهضت لأول مرة ..

وكتبت لأختها تقول : لا أحب أن أكون بعيدة عن انجلترا . وإذا كنت فى انجلترا فلا أحب أن أكون بعيده عن لندن . وفى لندن لا أحب أن أكون بعيدة عن مجلس العموم أرى زوجى يتحدث فى السياسة ويخطب .. إن رؤيته هى أعظم سعادة والاستماع إليه ! أروع متعة .. إننى أحب أن أكون على مرأى ومسمع من التاريخ .. أحب أن أكون فى قلب الأحداث ، وأكره أن أكون على هامشها ..

وكانت تشفق على زوجها من زحام المعجبين به من أبناء دائرته الانتخابية الذين كانوا ينتظرونه . ولابد أن يصافحهم جميعا . فكانت تدس يدها بين ملابسه وتصافح الناس نيابة عنه .. دون أن يدرى ، ودون أن يدروا !

وفى مجلس العموم كانت تبعث له بالمشروبات الدافئة علاجا لحنجرته ..

ومع ذلك فلم تكن لها أية اهتمامات سياسية ، ولاهى سياسية ، فهى لا تجامل الناس . لاترد الزيارة ولا تدعو إلى عشاء من دعاها إلى غداء .. وتنسى أن تبعث بوردة للذين أرسلوا إليها باقات الورود .. لم تكن سيئة النية ولا قليلة الذوق . وإنما حياتها قد استغرقها عذاب البيت وانشغالها التام بزوجها عن كل أحد وكل شىء .

* * *

وفجأة بدأت لندن كلها تتهامس .. لقد شاهدوا السيد وليام جلادستون يطارد المومسات فى شوارع لندن . ثم أنهم رأوه مع واحدة جميلة . سايرها ساعة وساعة ثم اختفى الاثنان . وقبل ان يذهب الناس بعيدا ، عرفوا أن الرجل متدين جدا . وإنه قد استخار الله وقرر هداية المومسات .. فكان يسأل كل واحدة عن حالها . ويحاول أن يجد لها عملا أو مسكنا أو يساعدها ماديا .. وفى إحدى المرات كان كثير التردد على واحدة مشهورة الجمال والذكاء اسمها اليزابيث كولنز .. جلس إليها طويلا . ونظر إلى جمالها كثيرا . وكتب فى مذكراته : لا أعرف إن كان الدافع الحقيقى هو هدايتها أو التمتع بجمالها .. ولكن لن أعود إليها .. فإن جمالها قد أخرجنى قليلا عن الهدف الحقيقى .

وفى يوم سأله أحد زملائه الوزراء وقد رآه يمشى فى الشارع مع إحدى المومسات : ماذا تقول زوجتك إذا وجدت هذه السيدة فى بيتها ؟

ويضحك جلاد ستون وهو يقول : بل إننى ذاهب معها إلى زوجتى !

وزوجته هى الأخرى حاولت كثيرا تشجيع بنات الليل على التوبة ، وقد تابت واناابت كثيرات . وزوجته تؤمن إيمانا مطلقا بأن زوجها يفعل ذلك بهدى من الله .. وأن رسالته مقدسة .. وأن ثوابه عظيم .

ولم يكن ينافسه فى حب الناس والانشغال بعذابهم إلا زوجته .. فهى ليست مدبرة لأنها لاتحب أن تنفق الكثير ، ولكن لأنها تؤمن بأن للفقراء نصيبا فى مالها . لذلك لا تتردد لحظة فى اطعام اليتامى والأرامل . وبعد وفاة أختها ضمت إليها أولادها وأولاد جيرانها أيضا . وكانت لديها هذه الموهبة العظيمة فى أن تكون أما لكل الأطفال .. وكانت حريصة على الاحتفال بأعياد ميلاد الأطفال ، وتجدها فرصة سعيدة للبهجة العامة . ولدعوة زوجها أن يجلس إلى الأطفال وأن يلعب معهم ـ فكل شىء فى البيت وفى حياتها يجب أن ينتهى لصالح زوجها ..

وأيام حرب القرم كانت تخيط الملابس والبلوفرات من أجل الجنود الإنجليز ..

وأيام المجاعة كانت تُصنع ألف وجبة لكل الناس .

وأيام الكوليرا سنة ١٨٦١ التى أودت بحياة ثمانية آلاف من المواطنين ، لم تكن تتهيب المرض ـ رغم أنه فى ذلك الوقت لم تكن وسائل الوقاية التامة معروفة .. ولكن قلبها الكبير ، وتضحيتها من أجل

مكانة زوجها ، قد ألقت بها فى النار ليلا ونهارا ..

وشاء حظها أن تعيش لترى زوجها فى قمة المجد وواحدا من أولادها فى مجلس اللوردات !

كتبت فى مذكراتها : من أجمل القصص التى سمعتها من جدتى أن سيدة تعيش فى شمال البلاد كانت تلد أثناء النوم . وظلت هذه القصة فى خيالى . حتى تمنيت أن أكون مثل هذه السيدة .. بل تمنيت ماهو أكثر من ذلك أن ألد عشرين ولدا مرة واحدة .. الله .. ما أجمل هذا !

وكتبت عن أصدقاء زوجها الذين يترددون بانتظام على بيته .: إنهم يرهقونه بالتفكير يتركونه يتكلم طول الوقت بينما الباقون يشربون أو يدخنون فى صمت .. إننى ألاحظ أن زوجى المسكين لا يتكلم معى كلمة واحدة .. وكل أمله هو أن أسانده حتى يلقى بنفسه على الفراش . مسكين معذور . إننى أعرف تماما عمق الرسالة المقدسة التى اختارته السماء من أجلها .. إنه مثل مهمته : رجل مقدس ..

وكتب هو يقول لها : إننى أحسدك يا سيدتى . فقد وهبك الله نعمة كبرى : طيبة القلب والأخلاص .. ولكن الناس لايستحقون منك هذا الخير الخالص لوجه الله . فمنهم أشرار ياسيدتى .. وأنت خير منى . أنت لاتشغلين بالك . أما أنا فاشغل بالى كثيرا . وقد أثبتت الأيام أننى كنت كثيرا على خطأ . وكنت أنت على صواب . إن الله قد هدانى إليك . فما أسعدنى ..

وفى يوم سألها واحد من أطفالها : ياماما ماهو بالضبط الذى يفعله أبى .. إننى أرى الناس يحبونه كثيرا .. ويلتفون حوله .. هل هو قسيس ؟

وكان رد أمه : إنه القسيس الوحيد فى حانة السياسة الإنجليزية .. فالملكة فيكتوريا لاتحبه وهو لايحبها . وأنا لا أحبها . وأنت أيضا !

وعندما شكا له أحد زملائه الوزراء من أنه لايستطيع أن يتحدث إلى زملائه فى الحزب أو الوزارة على عشاء أو غداء .. فزوجته بسرعة تنقل أسرار الدولة إلى كل مكان .. ثم تتطوع فتضيف من عندها معلومات واجتهادات . ولا يمضى وقت طويل ، حتى تنقلب سحنة رئيس الوزراء والملكة فيكتوريا .. ولا يسأله أحد إن كان هذا هو رأيه أو هو من اختراع زوجته ..

فقال له وليام جلادستون إنه منذ بداية حياته الزوجية اتفق مع زوجته كاترين : إما أن تكون مثل الأطرش فى الزفة ، لا تدرى ما يدور حولها ، وإما أن يطلعها على كل شىء . فاختارت أن تعرف كل شىء . فوافق بشرط ألا تفتح فمها بكلمة واحدة .

واستطاعت أن تمسك لسانها خمسين عاما ! وهو رقم قياسى لم تبلغه امرأة واحدة فى التاريخ !

وكان وليام جلادستون يطلعها على كل شىء ، ولايستشيرها فى شىء .. ولما سألته هى عن ذلك قال : لانك عاطفية . يسهل التأثير عليك . وليس أسهل من غضبك إلا دموعك .. وهى من علامات

الظلم . فليس فى امكانك أن تكونى عادلة !

وفى سنة ١٨٦٨ تحقق أمل حياتها ، فقد أصبح زوجها رئيسا للوزراء للمرة الأولى . فلم تشأ أن تنتقل إلى مقر رؤساء الوزارة . وقررت أن يكون الاحتفال بهذه المناسبة فى بيتها .

وسقطت وزارته .. وتولى الوزارة بنيامين دزرائيلى . فاغضبها ذلك وأثارها وأخرجها عن حدود العقل والقلب واللياقة ..

كتبت تقول : عار والله عار قومى ! فزوجى هذا الذى يتعب ويتعذب ويفنى ليله ونهاره من أجل بلده ومن أجل الشعب ، يخرج من الوزارة ليحل محله ذلك اليهودى .. إن الأمر يدعو للاشمئزاز واليأس من كل خير فى هذه الدنيا .. إن الهواء بعيد عن دزرائيلى هذا ، يبعث على الانتعاش .

وعرفت كاترين كيف تحقق لزوجها الراحة والهدوء .. فأقامت حفلات العشاء لعدد قليل من الأصدقاء وكانت تأتى بفرقة موسيقية تعزف له أحب الألحان .. وكانت تصحو مبكرة ، لكى تصحب زوجها إلى الصلاة فى الكنيسة . وكان الطريق إلى الكنيسة أسعد لحظات العمر ، فهو يلف ذراعه حولها والناس يرفعون القبعات . « للشيخ العظيم » كما يلقبونه فى انجلترا .. وكان سعيدا لذلك .

ثم أصبح مرة أخرى رئيسا للوزراء . ولم تكن الملكة فيكتوريا تريد ذلك . وقد جاهرت بالعداء له ولزوجته . فلم تدعه لزفاف ابنها ..

كتبت كاترين فى خطاب لإحدى الصديقات : إن الملكة فيكتوريا

هى الخاسرة . فمثلها بين النساء كثيرات جدا ، ومثله بين الرجال نادرون .. الصدق نادر والأخلاص والإيمان بالله والخوف من معصيته !

وفى سنة ١٨٨٩ احتفل وليام وكاترين بالعيد الذهبى لزواجهما . وانهالت الهدايا من كل لون وحجم .. ولم يتلق كلمة واحدة من الملكة فيكتوريا ؟!

وعاد إلى الوزارة لآخر مرة . لم يوفق فى كثير من القرارات . وكانت صحته قد تدهورت . فلم يعد قادرا على السمع . وإحدى عينيه لاترى .. وقرر أن ينسحب . وقررت زوجته أن ترافقه وهو يقدم استقالته .

ومن المألوف أن يصبح عضوا فى مجلس اللوردات . ولكن زوجته رفضت هذا اللقب الذى سيؤدى إلى تغيير اسمها . ثم انها لاتريد أن ترى الملكة فيكتوريا التى كرهته طوال حياته .

وقد أصابه السرطان فى سقف الفم . ومات سنة ١٨٩٨ بين ذراعى زوجته . وآخر كلماته لها : إن كان فى عمرك بقية ، فلا تأسفى على ما فات .. فالذى فات قليل جدا !

كتبت فى مذكراتها : لا أنسى ابتسامته قبل أن يودعنا .. كأنه ادخر هذه الابتسامة الحلوة ليرسمها على شفتيه وعلى وجهه يوم الوداع .. أجمل ما رأيت فى حياتنا الزوجية .. إذن فالموت ليس مخيفا أو ما بعد الموت ليس رهيبا ، وإلا فكيف تكون للإنسان مثل هذه

الابتسامة الجميلة الصافية .. ابتسامة ليست من هذا العالم .. أنها ابتسامة الملائكة ، لو كان الملائكة يبتسمون ..

وعادت تصف هذه الابتسامة مرة أخرى : لا أعرف كيف أقول لك ماذا حدث .. فجأة اضاء وجهه .. كل الوجه .. حتى عينه التى لم يكن يرى بها قد انفتحت وأضاءت . لم يكن فى حاجة إلى كلام يقوله لنا وقد وقفنا حوله نبكى .. هل تصدق أننا عندما رأيناه كذلك ابتسمنا .. ضحكنا .. سعدنا لسعادته والدموع فى عيوننا .. كأننا أحسسنا بأنه انتقل من أيدينا العاجزة إلى الأيدى الأمينة القادرة على كل شىء ..

وطلبت كاترين إلى أولادها أن يجمعوا أوراق أبيهم ومخلفاته .. وان يوزعوا الخطابات التى كتبها لأصدقائه ومنعه المرض أن يبعث بها . فكان من بينها خطاب إلى الطاهى :

أنت تعرف أننى أحبك . فإذا كنت قد ثرت عليك مرة ، فأرجو أن تسامحنى ، إنها الظروف أقوى منى ..

وخطاب آخر إلى إحدى المومسات يقول لها : أرجو أن تكونى كما وعدتنى . فلقد شعرت بأعظم انتصار فى حياتى يوم أقنعتك بالتوبة ، ويوم اعترفت لى بذلك .. لأن انتصار الإنسان على نفسه هو أعظم انتصار .. ثم انتصاره على ضعفه .. لقد كان انتصارا لى أنا أيضا . ولكن مادمت قد استطعت أن تقررى بالعقل تغيير مسار حياتك ، فلست ضعيفة . وإنما أنت قوية .. وأنا أعطيتك الفرصة لكى تكتشفى

قوتك وصدقك .. أشكرك وأتمنى لك انتصارا مستمرا على نفسك ،
وعلى غيرك من زميلاتك أيضا ، بارك الله فيك ..

أما كاترين فقد ظهر عليها المرض . وكانت تطلب من الله أن يعجل برحيلها لتكون مع أحب الناس .. ومرضت ، وتدهورت صحتها من انفلونزا إلى التهاب رئوى . وماتت فى هدوء . وأوصت بأن تدفن إلى جواره ـ وهكذا تحقق أعز أمانيها : ألا تفارقه حيا وميتا !.

١٧- وعندما رآها تشرشل فوق حصانها قال: عفريت يركب عاصفة!

عندما أشيع أن الوزير بلفور سيتزوجها قال : مستحيل .. أريد أن يكون لى مستقبل أفضل !

ولما تزوجت هى قالت : أريد أن أموت سعيدة غارقة فى ديونى !

ولما أصبح زوجها رئيسا للوزراء كانت تقول عنه : إنه رئيس وزرائى !

اشتهرت مارجوت تنانت بأنها فتاة استعراضية أنيقة خليعة نابية الألفاظ .. وكانت لها شلة من الشبان الخارجين على كل تقاليد الحياة المحافظة فى مدينة لندن . وكان أبوها يشجعها هى واختها على ذلك . لأنه يكره أولاده الذكور . فقد كان يرى فيهم أمهم الجامدة الخامدة الضيقة الأفق .. أما ابنتاه فقد كان سعيدا بهما ويدفعهما إلى الحياة الحديثة بكل ما فيها من عيوب لأنه كان هو أيضا رجلا جريئا . وكان صاحب مصنع كيماويات ، أكبر مصنع فى أوربا غنيا جدا .. وهذا واضح من فساتين ابنته مارجوت وفى كتل الماس فى أصابعها وأذنيها وحول عنقها .

لقد عاشت ابنته مارجوت على حل شعرها ـ أى تلم شعرها فى الشارع وتحله على كل سرير !

ومارجوت فى غاية الذكاء .. ولم تقرأ كتبا ولا تحب ذلك . ولا عندها وقت . وكانت ترى أن الرجال هم أحسن كتب : تتصفحهم وتقلبهم وتركنهم وتبحث عن جديد دائما .

وكانت تقيم الحفلات ، وتجمع من الرجال أشكالا سياسية ودينية وتضع هى قائمة بالقضايا التى يجب مناقشتها .. ومن هذه المناقشات يلتقط عقلها الجبار أهم الآراء والنظريات .. وتتجمع لديها كل أخبار وأسرار بيوت وأحزاب العاصمة البريطانية وهى المسئولة وحدها عن انعاش الليالى فى لندن . ولذلك كان أمل شبان السياسة أن تدعوهم إلى بيتها ..

وهى تشرب وترقص وتركب الخيول . وقد انكسر أنفها وعنقها وثلاثة ضلوع وركبتها بسبب جنونها بركوب الخيل . وعندما أحبت ، كان الرجل صيادا يركب الخيول ببراعة وهو طويل عريض وسيم . لا عقل ولا فهم ولا أدب ولا فن ولا ذوق له ، فقط حيوان جميل ، ولما علم أبوها بذلك قال لها : كل هذه الحرية والأموال التى أعطيتك ، ثم تسقطين عند قدمى هذا الحيوان !

وأرسلها إلى مصر فى رحلة نسيان . وفى مصر تنقلت بين القاهرة والأقصر وأسوان ثم عادت لتشهد جنازة الخديو .. ورجعت إلى انجلترا . لتؤكد لضيوفها أنها كانت غبية .. وإن هذا الاختيار أكبر

دليل على أن عقلها أرهقه التفكير ، وتوقف منها فجأة ، ولما توقف تساندت على هذا الحائط الذى كانت تريده زوجا لها !

وفى يوم قفزت من السرير واتجهت إلى المرآة تقول : لقد نسيت أن أرى وجهى منذ أسبوع !

ونظرت بدقة شديدة إلى ملامحها وتقول : جلد على عظم .. صحيح ولكنى فاتنة .. طويلة عريضة الكتفين .. كبيرة الأنف .. لامعة العينين .. شهوانية الشفتين .. ولكن وراء كل ذلك ذكاء نادر . هذا مؤكد . وبعد ؟

وسمعتها أختها وتوأمها لورا فقالت : وبعد ماذا ؟

فردت مارجوت : وبعد الأكل والشرب والرقص كل ليلة . أين الرجال الذين سيملأون علينا الفراش حتى الصباح ؟ هل تذكرين ما كنت أقوله لأبى وأنا صغيرة ؟ ! .

كانت تقول لوالدها : سوف أتزوج رئيس وزارة .

وأبوها يقول لها : سوف تكونين زوجة رائعة لأى رجل ..

وترد هي بسرعة : لا أريد أى رجل .. أريد رجلا واحدا رئيسا للوزارة . لابد !

وفجأة تزوجت اختها لورا سنة ١٨٨١ . كان أسعد خبر فى حياتها . فهى تحب أختها فلم تنفصل عنها لحظة واحدة . حتى ملابسها كانت واحدة .

وتصور كثير من الناس أن مارجوت سوف تموت بعد وفاة أختها .

وأنها لذلك لزمت البيت أياما ، ثم ظهرت أكثر أناقة فى ملابسها السوداء .. كأنها اختفت لتختار ملابس الحداد أجمل وأشيك ـ لقد عرفوا أن مارجوت هذه بلا قلب !

واتجهت فى حفلاتها الاجتماعية إلى الجمع بين كل الوزراء المتعارضين . وكانت تصلح بينهم . هم يطلبون إليها ذلك .. فقد حدث كثيرا أن تشاجر الوزراء والزعماء فى مجلس العموم لتصلح بينهم على مائدتها ..

كان ذلك فى لندن عندما لم يكن مسموحا لأكثر النساء حرية أن تخرج وحدها ، بل لابد من زوجها أو أخيها ليحرسها .. وفى بعض الأحيان كانت مارجوت تخرج مع أخيها ، ثم لايلتقيان بعد ذلك .. ففى جيب كل منهما مفتاح البيت ..

كتبت فى مذكراتها تقول : بعد وفاة أختى أشعر بأن السرير فارغ واسع كأنه ميدان عظيم ، ولا أعرف كيف أملأ هذا الفراغ .. إن ألف رجل لا يستطيعون أن يملأوا هذه المساحة التى إلى جوارى .. أعدك ياأختى بأن أكون دقيقة فى اختيار الرجل المناسب . وبصراحة ياأختى لم أجد أحدا بعد .. ولكن سوف أجد . فليس معقولا ألا يكون فى لندن رجل شديد الذكاء يختار من هى أذكى وأعظم منه !

وقد ماتت أختها وهى تلد طفلتها الأولى سنة ١٨٨٧ . ماتت أختها بين ذراعيها . لقد شعرت مارجوت أن نصفها مات .. ضاع .. راح .. وراحت أيضا ..

وعرفت مارجوت الأرق والصداع حتى الموت ..

سألها أحد أصدقائها : وماهو الهدف من هذه الولائم فى بيتك .

ما الفائدة ؟ إن أحدا منا لايعجبك .. بينما نحن جميعا ندور حولك .. لماذا ؟ هذه الولائم .. إنها وجع دماغ .. ودوشة !

وكان ردها : هذا بالضبط ما أريد .. إننى أحب الدوشة .. وأموت فى الفضائح .. واليوم الذى لاتتردد أصداؤه هو يوم راح من عمرى .. وكلما كانت الفضيحة صارخة كانت سعادتى بالغة !

وكان رئيس وزراء بريطانيا جلاد ستون معجبا بها . وقد كتب فيها شعرا .

وقال النقاد : كان من الممكن أن تصبح أديبة كبيرة لو أرادت . ولكنها أضاعت طاقتها الابداعية فى الكلام، وذكاءها فى المعارك التى لا قيمة لها .. ثم بددت ماتبقى من طاقتها فى الحركة والانتقال من مكان إلى مكان ومن بيت فى المدينة إلى بيت فى الريف .. إنها كتلة من النار لاتنطفئ !

قررت إصدار مجلة . اسم المجلة « غدا » .. ولكنها لم تصدر ، فانطبق عليها المثل الانجليزى الذى يقول : أن غدا لا يجىء أبدا .

فكل يوم له غد ، وكل غد له غد ..

ووعدها الأديب أوسكار وايلد أن يساهم فى هذه المجلة . وتهامس الناس عن علاقتها به فمن المعروف أنه رجل شاذ .

أما مقالتها فى هذه المجلة التى لم تصدر فكانت عن رحلتها فى مصر..

أول عبارة فى المقال : اذهب إلى مصر يطل عمرك .. فكل شيء عندهم بألوف السنين .. النيل بالملايين .. والهرم بالألوف .. والحياة ايقاعها بطيء والناس كذلك .. ولا يحتاجون إلى طاقة كبيرة لكى يعيشوا .. إلخ ..

وفى أهم وليمة لها تركت إلى جوارها مقعدا خاليا .. وقالت لضيوفها : سوف اتزوج من يجلس على هذا المقعد ..

ودخل عضو مجلس العموم هربرت اسكويث . ولم يخطر على بال أحد ، ولا هى ، أن يكون زوجها . لا سبب . لا اتفاق بينهما فى أى شيء . فقد ماتت زوجته .. وهو حزين عليها .. ثم أن ملابسه مبهدلة . كأنه وضعها على عجل . أو كأنها ليست ملابسه . بينما هى فى غاية الأناقة والشياكة .

ورأته كثيرا فى كل الحفلات الرسمية لمجلس العموم . وكان رجلا أكاديميا جادا . منتظما . ولم تعرف أنه تزوج ، وأن زوجته ماتت . ولم تفكر لحظة واحدة ، فى أن ترتبط بمثل هذا الطراز من الرجال . ولكنه تقدم لها .. وهى تختلف تماما عن زوجته . فزوجته الأولى محافظة متدينة لاتحب الظهور ولاتهتم بالسياسة .

وكتب اسكويث يقول عن مارجوت : إنها رائعة .. إنها كائن لايوصف !

وكانت بينهما برقيات متبادلة تجىء أثناء جلسات مجلس العموم ، فكان يضعها فى أعماق البنطلون ليقرأها مرة وثلاثا على مهل وراء باب مغلق .

وامتلأت العاصمة الإنجليزية شائعات عن زواجهما . وقيل : مغفل سوف يهدم مستقبله السياسى ..

وقيل : كيف يختار زوجة كانت من قبل فى فراش كل مجلس الوزراء ..

وقيل : إذن لقد شاء القدر أن ينطفئ مصباح حياته قبل أن يضىء ..

وقيل : إن حبه الشديد لزوجته السابقة ، جعله يفكر فى الموت بعدها .. ولكن بفضيحة !

وقيل : كيف يعيش رجلان فى فراش واحد ؟!

وقبل زواجهما ظهرت رواية من تأليف بنسون ، ابن كبير الأساقفة عنوانها « دودو » ذلك الطائر المنقرض وموضوعها أن حمارا له عقل عصفور يغنى !

وعرف الجميع أنه يقصدهما ، وغضب العروسان ومزقا هذه الرواية والقياها من النافذة ..

فانتشرت الرواية أكثر .. وصارت الفضيحة بجلاجل فى لندن وفى القصر الملكى ومجلس العموم ..

ونصحها كثيرون بأن تكف عن الشرب والرقص والتمثيل ، لتكون

جديرة برئيس الوزراء القادم .

أما هو فكان تقليديا لايتمشى مع المخترعات الحديثة كالتليفون والسخان . وكان يصر على استخدام القلم المصنوع من ريش الطيور .. ويوم وقف على الرصيف ينتظر القطار طلبت إليه مارجوت أن يسرع .. ولكنه رفض . وفاته القطار .. لقد اعتاد على ركوب الخيل والعربات وكلها تنتظر طويلا . فلماذا السرعة ؟.

كتبت لصديقة لها تقول : زوجى فيه كل الصفات التى ليست عندى .. إنه هادئ منظم لايتعجل حدوث أى شىء .. يعيش اليوم كأنه بلا نهاية .. ولا يفكر كثيرا فى الغد .. ويقول : سوف يجىء الغد ، ونحن أحياء أو نحن أموات فلماذا لا نتطلع إليه .. ويقول : أنا لا أضمن إلا الذى فى يدى .. إلى هذه الدرجة هو رجل متفائل .. وإلى هذه الدرجة أنا متشائمة . وإن كنت غارقة فى السياسة أكثر منه ..

وكتبت تقول قبل زواجها بأيام : من الانصاف أن أفتح الباب لهذا الرجل الذى جاء يدق على بابى ..

ووافقت على الزواج بعد ثلاث سنوات .. تم الزفاف سنة ١٨٩٤ .

قالت لها صديقاتها : الآن تزوجت أرق وألطف رجل فى العالم . حاولى أن ترتفعى إلى مستواه ، ولا تحاولى أن تجعليه ينحط إلى مستواك !

وتركت عشرات الرجال والعشاق والمحبين والطامعين والأصدقاء .

وكتبت تقول : ليس أفضل من حبي له ، إلا إخلاصيا لرجل احترمني ، ولابد أن أحترمه !

كان عمرها ثلاثين عاما ، وعمره واحدا وأربعين .

ووقع على عقد الزواج أربعة من رؤساء الوزارات : جلادستون الرئيس السابق ، روزيرى الرئيس فى ذلك الوقت وبلفور رئيس المستقبل وكذلك زوجها .

ويوم تزوجها كان وزيرا للداخلية ..

وتمت مراسم الزواج فى بيت قديم اشتراه أبوها . وظلت به حتى سنة ١٩٢٢ . وفى بيتها ١٤ خادما وسفرجيا وبارمان وسايسا وخمسة من المساعدين له ، وأربعة يعملون فى اصطبل الخيول . وكان لابد من الاحتفاظ بهم جميعا بسبب كثرة الولائم واللقاءات ..

أشهر عباراتها فى ذلك الوقت : إن أجمل ما فى الدنيا : الحب والديون !

وكان لابد أن يعمل زوجها فى المحاماة ليضاعف دخله ليواجه هذا العدد الكبير من الخدم والضيوف . وكان من ألمع المحامين فى ذلك الوقت . وقد كسب الكثير . ورأى أن العمل كوزير تضحية لامبرر لها .. ولكن إصرار زوجته على الوزارة ، هو الذى جعله يغلق مكتب المحامى ويتفرغ لمطالب الناس .. ويمد يده لزوجته التى تمدها لأبيها ، وكان أبوها يعطى كثيرا وسعيدا .

ولما طلبت من والدها قرضا كبيرا قال لها : اليوم أعطيك ما تشاءين

وأكثر .. فاليوم سوف أتزوج الفتاة التى أحببتها !

وكان فى الخامسة والسبعين من عمره . والعروس أصغر من ابنته مارجوت بخمس سنوات !

وفى بيت العروسين مارجوت وهربرت اسكويث عاش اولاد زوجها . أطفال مؤدبون لاضوضاء . لا خلافات . أحبوها . أحبتهم من أهم مواهبهم : أنهم ينامون بعمق ولا شىء يوقظهم . تماما كوالدهم .. أما هى فمعركتها مع الأرق أبدية .

وقد انشغل هربرت اسكويث تماما عن البيت والأولاد . وترك كل ذلك لزوجته مارجوت . وقد انجبت له بنتا وولدا .. وانتقلت مارجوت من الأرق والقلق إلى انعدام النوم ، حتى كادت تصاب بالجنون . ويقال : بل أصيبت !

ولها عبارة مشهورة : لايكسر أنف المرأة الجبارة إلا الزواج .. وإذا لم يستطع الزواج : فالأولاد قادرون على كسر الأنف والظهر والنفس !

وله هو عبارة مشهورة : من الصعب أن يكون الزعيم زوجا وأبا بعض الوقت .. فالزعامة وظيفة النهار كله والليل .. فإما أن يكون زوجا ناجحا وإما زعيما .. إما أن تكون أبا رحيما حنونا ، وإما أن تكون زعيما .. والزعماء آباء الشعوب ، ولكن ليس عندهم وقت لكى يكونوا آباء لأبنائهم !

وفى سنة ١٩٠٨ كان الحدث ! فقد اختير زوجها هربرت اسكويث رئيسا للوزراء . كانت مريضة . قفزت من فراشها

كالعفريت ـ هذا تعبيرها ـ دخلت فى ملابسها الأنيقة التى اختارتها من سنوات لهذه المناسبة .. ضربت الأدوية بالجزمة . ركبت حصانها . راحت تدور به حول القصر .. نبهها أحد الحراس أن تعتدل فى الجلوس على الحصان . ولكنها رفضت . وقبل أن يقف الحصان قفزت من فوقه وراحت ترقص . عندما رآها ونستون تشرشل قال : شيطان يركب عاصفة !

ولم تكد تسمع النبأ حتى ذهبت بسرعة إلى كاتدرائية القديس بولس وراحت تصلى لله شكراً . تقول فى أحد خطاباتها : نسيت كيف أتحدث إلى الله .. ولكنه ألهمنى وعلمنى الأدب وعظيم الأمتنان له ..

وطلبت من الله : إننى أفضل أن أموت من الفرحة ، على أن أعيش زوجة مريضة .. الأمر لك يارب !

وذهب هربرت اسكويث ليقابل الملك الذى يصطاف فى سويسرا . وقابله . وكلفه بتشكيل الوزارة ، باعتباره زعيما لحزب الأحرار . وأبرق لزوجته تستعد لاقامة حفل كبير بهذه المناسبة . ففعلت ماهو أكثر من ذلك ، وقفت وسط الناس على رصيف المحطة تنتظره وتهتف .

وكانت تذهب إلى مجلس العموم لتسمع زوجها وهو يخطب . وتراه أحسن المتحدثين ، وترى أن زوجها يكون فى أحسن حالاته العقلية عندما يغضبه أحد من الأعضاء . وترى أن الغضب هو أنبل مشاعر الناس .. وتقول : الغضب معناه أنك لاترضى وأنك مطالب بأن تقول

للناس لماذا . ثم تأتى بجديد بعد هذا الرفض .. وهذا هو جوهر الاصلاح فى التاريخ !

ونجح اسكويث رئيسا للوزارة . وقدم مشروعات ناجحة لمعاشات الشيوخ .. واعترض ونجح فى ألا تكون الكلمة الأخيرة دائما لمجلس اللوردات عندما تعرض عليه قرارات مجلس العموم !

ثم انتقلت الأسرة إلى مقر رؤساء الوزارة فى شارع داوننج . وهو مقر قديم ضيق . وكان من أكثر الناس ترددا عليهم : تشرشل .

وبقى هربرت اسكويث فى هذا البيت ثمانى سنوات ونصفا .

وكان اسكويث يكتب لها أثناء الجلوس إلى المائدة . ما أروع فستانك .. ما أجمل حديثك !

ولم تكن هى المرأة الوحيدة فى حياته . ولما علمت قالت : وماذا فى ذلك .. فلم يكن هو الرجل الوحيد فى حياتى !

ولكن عندما عرفت أنه يحب فتاة صغيرة جميلة ، طلبت الطلاق .

وتزوجت غيره فيما بين ١٩١٢ و١٩١٥ .

وكانت صدمة كبيرة أن تتركه وتتزوج صديقا له .

وصدمة أخرى أن تتزوج الفتاة التى أحبها بعد أن كان يبعث إليها بعشرات الخطابات يكتبها أثناء انعقاد مجلس الوزراء .

ثم أحب أرملة الرحالة العالمى اسكوت ..

ولما سألوها عن سبب طلاقها من زوجها رئيس الوزراء قالت : ننام كل ليلة معا ويحدث كل شىء .. إلا الشىء !

فقد كانت تضيق بالعلاقة الجنسية . ولم تكن مصدر سعادة لها فى أى وقت .

وفى ١٤ أغسطس سنة ١٩١٤ كانت تزور زوجها السابق رئيس الوزراء وجلس يدخن وتدخن فى هدوء انتظارا لمنتصف الليل ، لتعلن انجلترا الحرب على ألمانيا .

وقد تأكد لكل الناس أنها سيدة بلا قلب . فقد تحمست للحرب وأحبت النار والدمار . ومات ابن زوجها قبل الحرب . فلم تتذكر أن تعزيه ..

وكان الناس يجمعون الفلوس والملابس لارسالها للجنود . أما هى فلم تفعل شيئا .

وقالت : مهما حدث فإننى لا أستطيع أن أكره الشعب الألمانى !

وزارت بعد ذلك معسكرات أسرى الحرب الألمان . وأسعدها أن تراهم وأن تعطف عليهم .

وقيل أن ابنتها هربت مع جنرال ألمانى . والحقيقة أن ابنتها تزوجت أميرا من رومانيا ماتا معا سنة ١٩٤٥ . وقيل أن زوجها قد ساهم فى مصانع كروب الألمانية .. وانتشرت هذه الشائعات . وروجتها الصحف المعارضة ، أملا فى اسقاط اسكويث الرجل الضعيف الذى استطاع أن يقود السياسة الإنجليزية فى زمن السلم ، وعجز عن ادارتها فى زمن الحرب .

وكان لابد أن يترك الوزارة فهو غائب الوعى ، ثم أنه يغيب عن

حضور جلسات مجلس الوزراء .

وفى سنة ١٩١٦ ترك الوزارة ليخلفه لويد جورج ..

وفشل فى انتخابات مجلس العموم سنة ١٩٢٤ .

وكانت اهانته بالغة عندما ارتضى أن يكون عضوا فى مجلس اللوردات محتفظا باسمه ..

أما هى فكانت تركب الدرجة الثالثة فى القطار . وقيل : لكى تجد أحد يستمع إليها !

وفى سنة ١٩٢٠ أصدرت كتابا عن تاريخ حياتها . الكتاب انتشر بسرعة . قرأ اسكويث هذا الكتاب معها . ثم أصدرت جزءا ثانيا من هذا الكتاب بعنوان « مذكرات سرية أخرى » ولكنه لم يلق نجاحا .

وتكررت أزماته القلبية .. حتى توفى سنة ١٩٢٨ .

وعاشت حياتها بعد ذلك فى عزلة تامة . مات كل أصدقائها ـ إن كان لها أصدقاء . وانتقلت لتعيش مع ابنها الذى أصبح مخرجا سينمائيا مشهورا . وظلت تبالغ فى زينتها وفى ملابسها .

وجاء فى مذكراتها : انتهى كل شيء .. إننى أعيش الآن عند نهاية كل سطر .. لم تبق إلا كلمات قليلة .. وبعدها ما لانهاية له من النقط والفراغ .. وإذا كانت بعض كلماتى غير واضحة فلأنها هى الأخرى مصنوعة من الفراغ .. فأنا أكتب بالفراغ على الفراغ عن الفراغ ..

وبعد وفاة ابنتها بشهور ماتت هى أيضا ـ أى بعد زوجها بسبعة عشرة عاما ..

ويقال إنها كتبت خطابا لزوجها لتحمله معها إلى العالم الآخر .
تقول : لا أعرف إن كان فى امكانى أن أتحدث إليك عندما أراك وراء هذا العالم .. إن فرحتى بك مرة أخرى وحدك شيء لا يوصف .. فإذا رأيتنى فاقرأ هذه الكلمات التى أعددتها لك فى السنوات الأخيرة وأنا أعانى الوحدة الفظيعة والاحتقار الأفظع وعذاب الضمير الذى لم أعرفه طوال عمرى .. إننى كذبت عليك يوم قلت لك وأنا فى أحضانك لأول مرة اننى سعيدة بك .. الآن فقط أنا سعيدة بك لأننا وحدنا .. لامال ولاجاه ولا أولاد ولا خصوم ولا أصدقاء .. ولا لندن ولا مجلس العموم .. أنا وحدى معك وحدك !

١٨- نصيحة:
اجعليه يغلط ليعتذر.. ويعتذر... فينـدم

هذه السيدة هى أول وآخر « فلاحة » تدخل البيت رقم ١٠ شارع داوننج ، مقر رئيس الوزراء البريطانى . فقد ملأت البيت بالخدم من قريتها ، وكذلك بالذين جاءوا إلى العاصمة البريطانية لأى سبب . فجعلت هذا البيت مثل « دوار » العمدة . هى العمدة وليس زوجها لويد جورج عضو مجلس العموم لمدة ٥٥ عاما والوزير ورئيس الوزراء لمدة ١٧ عاما . والذى حاول ١٨ عاما أخرى أن يعود إلى الوزارة ففشل .

كتبت السيدة مرجريت فى سنة ١٨٧٠ تصف هذا الشاب لويد جورج الذى أصبح زوجها بعد ذلك فقالت : رأيته يتمشى على شاطئ البحيرة . إنه يحمل كتبه على ظهره . ويرتدى قميصا أحمر . وفى كل مرة يرانى يغمز بعينه . وإذا نظرت ورائى وجدته ينظر وعينه تغمز .. فإذا عدت إلى البيت وفتحت الباب لأى سبب وجدته ينظر ويغمز ـ هذا ماقالته السيدة مرجريت لويد جورج بعد أربعين عاما وهى تروى لأبنائها وبناتها كيف عرفت أباهم . ولم تفكر لحظة واحدة فى أن يكون زوجا لها .. ولافكرت فى ذلك الوقت فى أى رجل .. ولاحتى قيل لها

عن ضرورة أن يكون فى حياتها رجل .

أبوها غنى عنده مائة فدان . ورجل متشدد . وأمها جاهلة لاتقرأ ولا تكتب . لم تكن حريصة على أن تتعلم ابنتها الوحيدة . ولكن الأب هو الذى أصر على أن يجعلها أفضل من أمها . وكانت الأم ترى أن التعليم يفسد البنت فيشغلها عن أن تكون ست بيت وزوجة وأمًّا لعدد كبير من الأولاد ـ لابد أن يكون كثيرا . فالأولاد دليل الخصوبة ، ورمز القوة وشرط تكوين الأسرة وبداية العصبية العائلية فى الريف . فكانت تذهب إلى مدرسة تبعد عن قريتها فى ولاية ويلز ، ثلاثين كيلو مترا . تركب القطار ولا يكاد يمر على الكبارى حتى تسد إذنيها وعينيها . خوفا من السقوط . فقد سقط على أيامها ، عدد من الجسور ، ولكنها كانت أسعد سنوات حياتها . ولم تكمل تعليمها . ولكنها تعلمت الرسم وركوب الزوارق . وأن ترفع رأسها إذا تحدث إليها شاب . فقد علمتها أمها أن الشاب أضعف مما تتصور .. وأن والدها هذا الرجل القوى العنيف ضعيف جدا . وأنها تستطيع أن تفعل به ماتشاء . إنها فقط تثيره فيغضب ويشخط وينطر ويغلط وبعد ذلك يبكى ويعتذر فترفض اعتذاره . ولكن أهم من كل شىء أنها تسجل عليه أنه أخطأ مرة ومرة .. وبذلك يتعمق لديه الشعور بالغلط والذنب .. فيكون اعتذاره لها دائما . ومن واجبه أن يسترضيها وأن يأتى لها بالهدايا . هذه هى نصيحة أمها . نصيحة جربتها على والدها عشرات السنين . وكانت النتيجة لصالح الأم !

وكانت أمها تشغلها بالعمل فى البيت . فى المطبخ تطهو وتغسل وتكنس . وفى الحديقة تزرع وتقلع . ثم تقوم بإذابة الشمع وصبه على شكل شموع تضعها فى أركان البيت .. وأهم من ذلك أنها كانت تجعلها تشهد الخناقات مع والدها . وتطلب إليها ألا تتأثر وألا تبكى على ما أصاب هذه الحياة الزوجية . وكانت مرجريت تندهش لقوة أمها وسيطرتها التامة على والدها . وكيف أنه يصرخ ويضرب ويكسر ثم ينهار كأنه يضرب نفسه . ويبكى . وتظل أمها كتلة من الحديد البارد . وفجأة ينهال الأب على رقبة زوجته يقبلها ويديها .. ثم يعتذر لها . ويلتفت الأب إلى ابنته ويقول لها : أملك عظيمة يا ابنتى .. إنها تتحمل هذه العواصف دون أن تهتز . إنها حجر الزاوية فى هذه الحياة .. إنها الشاطئ الراسخ الذى لاتهزه الأمواج ولا تحركه العواصف !

وينكفئ الأب على الفراش .. وتبتسم الأم . وتهز رأسها لابنتها قائلة : هكذا يجب أن تتعاملى مع هذه الحيوانات المغرورة !

* * *

كتب لويد جورج فى مذكراته : رأيتها . تحدثت إليها . لم يظهر على وجهها مايدل على أننى أتكلم إليها أو أننى موجود إلى جوارها . أو أننى تعبت حتى اقنعت خادمتها بأن تقوم بتهريبها إلى أطراف إحدى الغابات .. لقد كانت شجرة جامدة اضيفت إلى أشجار الغابة مع الأسف !

وعندما تقدم لويد جورج لخطبة مرجريت هذه رفضوه فورا . فمن يكون هذا الشاب المحامى الفقير الذى رباه خاله السمكرى ؟ من هو حتى يكون زوجا لبنت الأغنياء وحيدة أبويها .. كيف يجرؤ ؟ ولكنه كان جريئا طويل اللسان يهاجم كل الأقوياء والأغنياء . وموضوعه المفضل هو التهجم على الحكومة الجامدة المتعفنة ـ والفاظ أخرى يستخدمها غير مألوفة فى ذلك الوقت .. أو فى الريف .. أو فى بيت مرجريت المتدينة كوالديها ..

فحاول أن ينشغل عنها بفتيات آخريات وأشاع فى القرية . ولكنه لم يستطع . فقد وجد هذا الرفض هزيمة مبكرة فى حياته السياسية الطويلة .. فازداد اصرارا عليها .

وكان خاله لايريد له زواجا . وكان يطارده . وفى إحدى المرات كان لابد أن يلتقى بمرجريت فأخفى حذاء خاله . ونجح . والتقيا . وازدادت اعجابا به . ولكنها لم تعرف بعد إن كان هذا الشاب اللعوب يصلح زوجا وأبا وأمينا وحاميا .

قالت له : يقولون إنك ذئب .

قال : نعم لأنى لا أحب أن أكون كلبا !

قالت : لا أفهم ..

قال : الذئب هو الذى يطارد الجميلات فى كل مكان ولا يخاف . أما الكلب فهو الذى يمشى وراء صاحبه ويلعق حذاءك . الذئب يخيف وقادر على حماية اناثه وصغاره . أما الكلب فهو مربوط بذيل

فستانك .. وبفستان أمك وجزمة أبيك .. وهذا مالا أحب . ما رأيك ! يجب أن تقررى وأن تختارى الآن فورا !

وتزوجا فى سنة ١٨٨٨ ـ هو فى الخامسة والعشرين وهى فى العشرين .

وفرحت القرية وانطلقت الصواريخ واحتشدت البنات والشبان وتبادلوا المشروبات والمأكولات .. بينما كان العروسان فى لندن . ورأى لويد جورج المحامى أنه يجب أن يقنع زوجته بفلسفته فى الحياة ، وأن يعجل بذلك قبل أن تتعقد الحياة وقبل أن تمتلئ بأناس كثيرين . قال لزوجته : الزوجة يجب أن تهتم بزوجها قبل أى شىء آخر . الزوجة يجب أن تتلطف وأن تشارك . الزوج أولا وبعده كل الدنيا بما فى ذلك الزوجة والأولاد !

وهذا بالضبط مالم تفعله الزوجة ـ صحيح أنها ريفية ، ولكنها قوية الإرادة عنيدة . قد تعلمت الدرس جيدا من والدتها . ورأت ماذا يقال لوالدها وماذا يقول .. فزوجها لاشك اذكى وأكثر فصاحة ، ولكن من المؤكد أنه رجل مثل كل الرجال . وكذلك هى أصغر من أمها وأكثر ثقافة . ولكن يجب أن تكون امرأة قوية .

وعندما نجح زوجها فى الانتخابات عضوا فى مجلس العموم عن حزب الأحرار ، رفضت أن تذهب معه إلى لندن . وقررت أن تبقى فى القرية . وأن يجىء إليها فى نهاية الأسبوع . يقول هو : إن مرجريت هى الوحيدة التى تفهمنى ..

على الرغم من أنها لم تكن تجيبه إلى كل مايطلب . بل كانت إذا ناقشته وقفت فكانت أطول . وظل هو جالسا : أصغر وأقصر . فإذا رآها قد وقفت أدرك أنها سوف تقول : لا .. وتقف عندها لاتبرحها مهما قال وترافع واستعان بفصاحته . فكلمة : لا .. ليس لها إلا معنى واحد : اضرب دماغك فى الحائط !

كان يقول لها : إننى رجل غير عادى . موهبة عظيمة . عبقرية ، اغفرى لى نزواتى واخطائى !

وكانت تقول : عبقرية ؟ نعم . موهبة ؟ نعم . اخطاء نزوات هفوات : لا !

كانت تراه يقسو على الخادمات . وكانت الخادمات يبكين . وكانت لاتحب ذلك فالخادمات من أبناء قريتها . ويجب أن يلقين معاملة خاصة .. ولكنها كانت تفهم لماذا هو يثور .. فهو غير قادر على أن يثور عليها . وغير قادر على أن يوجه اللوم إليها ، فيتجه إلى الخادمات على مسمع منها .. ثم أنه يتدرب على الخطابة وعلى الزعيق ، قبل أن يفعل ذلك فى مجلس العموم . وكانت لاتعتذر للخادمات ، هو السيد ثم أنها حريصة على أن تبدو مختلفة !

وفى كل صباح أحد : مشكلة ..

إنها لابد أن تذهب إلى الكنيسة وان يكون معها . ويتردد ويقاوم ويرفض . ولكن لايجد مفرا من الذهاب . هى مؤمنة وهو ملحد . ولكن أمام صلابتها وعنادها ، لايملك إلا أن يذهب ويصلى ويردد ما لايؤمن

به . إذن من الممكن أن يكذب تحت الضغط !

ويوم نجح فى الانتخابات لأول مرة كانت قد وضعت طفلها الأول . وظلت القرية ترقص وتغنى وتأكل وتشرب . ولكن فوجئ أهل القرية بخادمتها تطلب إليهم أن يكفوا عن الدوشة فالمولود نائم !

ثم انجبت له طفلة ..

وكان عليه أن يعمل فى المحاماة بعد أن زادت حاجته إلى المال . واشترى بيتا أكبر .

حاول اقناع زوجته بأن تذهب إلى الحياة فى لندن ، رفضت . حاول إغراءها فكتب يقول : الفندق جميل . نظيف . الغرف واسعة . النوافذ عليها اعواد حديدية لتكونى فى آمان حتى أعود إليك .. حياتى أصبحت مثل رغيف ناشف لا استطيع أن أقطعه بالسكين . وإذا قطعته فلا استطيع أن أمضغه .. ارحمينى .. تعالى !

وكان عندها أربعة أولاد . ومن رأيها أن يعيش الأطفال فى الريف .. فى الهدوء والصحة والعناية المركزة من الأم والخدم . وانه لاشىء يضايقها وينكد عيشتها إلا أن يدخل أولادها المدارس الإنجليزية ويتكلمون اللغة الإنجليزية .. إنها تريدهم أن يتعلموا لغة ويلز وألا يبرحوا القرية !

واكتشفت مرجريت أن فى زوجها عيبا خطيرا هو اهماله للرأى العام .. واحتقاره لرسائل القراء .. فقد كانت الرسائل تتكدس بالألوف دون أن يفكر فى قراءتها . فهو يكره قراءة خطابات أبناء

الدائرة . ولذلك كان من أهم واجباتها أن تقرأ وأن تنقل إليه مشاكل القراء .. وكانت تلاحظ أنه يتثاءب مع كل خطاب .. ومن الممكن أن يجيء النوم كاغلاق باب فى وجهها ووجه القراء .. وكانت توقظه قائلة : إنك تضرب بالجزمة هؤلاء الذين رفعوك ودفعوك إلى أعلى .. إنهم لايستحقون منك ذلك .. إذن أنت تكذب عليهم عندما تطالبهم أن يختاروك !

وانتشرت الشائعات عن خلافات بينهما . وأنها قررت أن تعيش فى الريف . وأن يعيش هو فى العاصمة . واشيع أن له عشيقة . واعلنت هذه العشيقة أنه أبو الطفل الذى سوف يولد . وحاول خصومه أن يستغلوا الموقف وأن يشوهوا صورته وأن يسحقوه فى بداية الطريق . ولكن زوجته وقفت إلى جواره تنفى كل الشائعات . وكانت تقول له على مسمع من الناس ومن أولادها : أجعل الخلافات بيننا هنا فى البيت . لاتفضح نفسك . لاتهدم حياتك . لاتبدد مستقبلك الباهر !

أما رده عليها فكان : أنت السبب ..أنت اهملت حياتى كزوج . أنت أحسن أم وأنت أسوأ زوجة . إننى لا أجدك . إنك تعيشين لأولادك . بهم ومن أجلهم . وإذا لم تجدى طعاما ، فلا استبعد أن تذبحينى وتقدمينى طعاما لأولادك وكلاب أولادك .. مشكلتك : أن أولادك فى سن لن تمكنيهم من الامتنان لك .. وأنا فى سن تجعلنى أكفر بك ، وأبحث عن غيرك . أنت أخذت العقوق . ورفضت الأمتنان . إنها غلطتك . فادفعى الثمن .

. ولم يكن الموقف مجرد زعيق ولسان سليط . وإنما الموقف خطير .
ولذلك سارعت بحمل متاعها وأولادها لكى تعيش معه فى لندن .
وكانت هذه هى المرة الأولى التى استشعرت خطرا حقيقيا يهدد حياتها
وأولادها .

ولأنها لاتريد أن تبعد عن القرية فقد حملت معها كل الخدم من
القرية بل من نفس الشارع والطاهى والطعام وكل عادات وتقاليد ولغة
ويلز . وكانت شديدة التمسك بكل ماهو ريفى من الملابس والحفلات
ونوعيات الضيوف والأطعمة . فهى لم تقدم فى بيتها إلا عصير
الليمون .. أما الخمور فكان زوجها يبعث بها سرا للضيوف !

* * *

وعندما أصبح رئيسا للوزارة ، اندهش الناس كيف أن حياته
بسيطة ، وكيف أن زوجة تعيش كما لو كانت زوجته عمدة فى اقاصى
الريف بعيدا جدا عن العاصمة وعن الحضارة أيضا .

فى سنة ١٩٠٧ ماتت ابنته بالمصران الغليظ . ولم تشأ أن تخبر أمها
بما أحست به من ألم ، فهى تخشى أن يمنعوها من دخول الامتحان .
ورأى لويد جورج أن وفاة هذه البنت ، بسبب إهمال الأم . فقد كان
من الممكن انقاذها . وكان يبكى ليلا ونهارا . أما هى فلا تعرف
البكاء .

وعندما أصبح وزيرا للمالية كان يمشى تحت المطر ويصرخ ويبكى

بأعلى صوته ويقول : أين أنت يا ابنتى .. كان أملك أن ترى والدك وزيرا .. أين أنت يا حبيبتى ؟!

وانتقلت مرجريت لويد جورج إلى البيت رقم ١١ شارع داوننج المخصص لوزير المالية : الغرف أكبر. الاضاءة أحسن ..

وهى أسعد أيام حياة لويد جورج فقد كان مشغولا بصفة مباشرة بميزانية الشعب . وكانت فرصته الكبرى لكى يناقش ويخطب وينافس ويتفوق . وظل يناقش أول ميزانية له ٧٣ يوما . وكانت زوجته تجلس فى شرفة الضيوف تراه وتزداد اعجابا به ..

وكان يقول لزوجته : سوف أكون رئيسا للوزراء . ساعدينى . انتظرينى . اصبرى . سامحينى !

وانتشرت شائعات بأنه على علاقة بامرأة أخرى ، هى التى تزوجها بعد وفاة زوجته وكانت تصغره بعشرين عاما . وكان قد أتى بفتاة اسمها فرانسيس لتكون مربية لأولاده . تعلمهم النطق الصحيح باللغة الانجليزية . وكانت علاقة سرية . وخطابات . وخافت فرانسيس من الفضائح . فهربت وكادت تتزوج رجلا تافها . المهم أن تهرب . وأن تبعد . ولكن لويد جورج اعادها بجرأته . وطلب إليها أن تترك هذا الرجل وأى رجل . وأن تعمل سكرتيرة له .

وأخيرا أصبح هو كل حياتها ـ كما تقول .

وظلت ثلاثين عاما تعيش فى الظل قانعة بما يقدمه لها من فتات الكلمات وظلال العواطف .. حتى ابنتها التى أنجبتها منه لم تكن على يقين

من أنها ابنته . ولذلك لم تحمل اسمه .

وكان يصف زوجته مرجريت بقوله : إنها أحسن من عايشت !

أما فرانسيس هذه فيقول : إنها أجمل من رأيت !

وكان عنيفا مع عشيقته . وكان يرغمها على أن تعترف بأنها خانته لكى يضربها . وكانت تحتمل هذا الهوان . وكان يرغمها على أن تكذب كثيرا ، فإذا كذبت عاقبها . وإذا بكت صالحها . وإذا رضيت بالصلح عاد يضربها مرة أخرى ..

قالت زوجته : من المؤكد أنه مغرور ــ كل الرجال كذلك . ولكنه أكثر تطرفا من الرجال .

ثم تصفه كيف يتمشى فى البيت بخطوة سريعة إذا كان سعيدا .. واذا أعجبته عبارة فى خطابه أمام مجلس العموم فإنه يكررها ويغنيها لنفسه .. وإذا كان حزينا أو فى ضيق كان تقيل الخطوة كئيبا يضرب برجله كل شىء يعترضه ..

وكان يعذبه أنه بعث بمئات الآلوف من الشبان إلى القتال ليموتوا .. وكان ولداه يحاربان فى الجبهة أيضا . وأشيع أن إحدهما قد قتل . فكان ذلك مصدر التعاسة الوحيد فى حياته .. أما هى فلم تهتز لكل ذلك ..

فوصفها تشرشل بقوله : فى هذه السيدة كل صفات الشجاعة والصدق عند الشعب الانجليزى ..

وجاءت الانتخابات وانتصر المحافظون على حزب الأحرار ، فخرج لويد جورج من الوزارة لآخر مرة ولم يعد لها بعد ذلك ، رغم محاولاته

اليائسة . وكانت الجماهير قد ضربته بالطوب والطماطم الفاسدة والبيض .. ولكن زوجته كانت تواجه الناس وتنظر إلى هذا الغضب على أنها عقوبة يستحقها . فلم يكن يحترم الجماهير التى اختارته فهو لايفتح خطابا واحدا بعثوا به .

* * *

وإلى جنوب فرنسا ذهب مع زوجته سنة ١٩٣٨ للاحتفال بالعيد الذهبي لزواجهما ، حضر الاحتفال ونستون تشرشل ، أحب الشخصيات إلى زوجته . قال لها تشرشل : يجب أن تحتفل كل ولاية ويلزم بهذه المناسبة فأنت وحدك التى تستحقين التكريم !

وفى سنة ١٩٤٠ تزحلقت من فوق الأرضية اللامعة وسقطت ، وتهشمت . ولم تقم بعد ذلك ماتت . فجاءت الورود من كل مكان . أما أهل القرية فاعلنوا الحداد أياما . وذبحوا الخنازير وبعثوا بكل أنواع الطعام للضيوف .. فقد كانت مرجريت هى مثلهم الأعلى . وهى الملجأ الوحيد للمساكين والعاطلين والمهاجرين .

وبعدها بخمس سنوات مات لويد جورج . بعد أن أصبح واحدا من ابنائه عضوا فى مجلس العموم ، وواحدة من بناته أيضا .

سأله أولاده : كيف تفسر هذا الخلاف بينك وبين ماما .. ومع ذلك طالت حياتكما معا ، وأنت تعترف بأنك كنت سعيدا .

قال لويد جورج ويده ترتعش ونظرته أيضا : لقد اخفت حبها

العميق لى .. ولم تكشف إلا عن الصلابة والعناد .. كأنها أمى وأنا طفلها . لقد كانت على حق فى كل المشاكل الاجتماعية . وكنت على خطأ . أما السياسة فهى تحتقرها أعظم الاحتقار . وأنا الآن أشاركها هذا الرأى . هى كانت على حق قبل الأوان . وأنا بعد فوات الأوان . هى احبت أولادها ، أكثر منى .. فكانت نعم الأم ، وكنت بئس الزوج ! .

قالت ابنته عضو مجلس العموم :

ولكنك لم تكن كذلك يا والدى ؟

فقال مداعبا : معك حق ، لأنك لم تتزوجى يا ابنتى !

قال ابنه عضو مجلس العموم : كنت قاسيا على أمى يا أبى !

قال : بالعكس . هى أكثر قسوة يا ولدى . كنت ازعق واصرخ واضرب يدى برأسى . وكانت أمك صخرة عاتية . جعلتنى أحس دائما اننى أضرب رأسى فى الحائط . رأسى يوجعنى ولكن الحائط يظل راسخا لايهتز .. فكنت اشعر بتفاهتى . وأمك عندها هذه الموهبة على أن تجعلك تشعر بتفاهتك ـ منتهى القسوة ياولدى !

١٩- سمكة فى حوض من الزجاج
تثور على الجميع!

كتبت لها الملكة عالية ، ملكة الأردن تقول : قرأت خطابك . أحسست كأننى أتحدث إلى نفسى .. أنه نفس العذاب .. الوحدة فى داخلى والكذب حولى .. ومن الصعب أن يكون لنا أصدقاء .. لكنك أحسن حالاً ، فزوجك سوف يترك السياسة ويعود إليك ، أما زوجى فمحكوم عليه بالسياسة المؤبدة .. حتى الموت ..

كتب لها أحد المنجمين الهنود يقول : لقد ولد ابنك الثالث فى يوم مولد الزعيم مهاتما غاندى . مبارك ابنك وأمه وأبوه !.

وجاءت عشرات المكالمات التليفونية تقول لها : أنت عار على كندا .. عار على الإنسانية كلها !.

ومكالمات أخرى : بل أنت هبة من الله إلى شباب العالم الذى يرفض القيود والجمود ويقول للأعور أنت أعور ولرئيس الوزراء أنت سجين ، فلماذا أنا معك ؟!.

إنها أصغر سيدة أولى فى التاريخ . أصبحت زوجة لرئيس وزراء كندا بيير ترودو . كان رئيسًا سنة ١٩٦٩ ولأحد عشر عاما ..

هى مرجريت سنكلر أصغر منه ٢٣ عاما . أبوها اسكتلندى يحب

صيد الأسماك . ولذلك هاجر إلى كندا وصار وزيرًا للمزارع السمكية . عنده خمس من البنات . هى أكبرهن . وكان ينظر إليها على أنها الولد الذى كان يتمناه . فى سن مبكرة جدًا كانت تحب ملابس الأولاد . ودخلت البنطلون الجينز ولم تخرج منه طول حياتها .. وعندما دعاها رئيس الوزراء لتخرج معه لأول مرة ارتدت البنطلون فكان الناس يتلفتون ويتساءلون : إنه رئيس الوزراء .. إنه هو .. ومن تكون هذه الجربوعة فى الجينز !.

لم تفكر فى الزواج . وإنما فى الدراسة . ولذلك نجحت . وتخرجت فى الجامعة .. وأحبت شابًا فرنسيًا هو حبها الأول والأخير . كانت لغتها الفرنسية ركيكة ، وكذلك كانت لغته الإنجليزية . ولم تكن هناك صعوبة فى التفاهم بين اثنين متعانقين طول الوقت أكثر كلماتهما تكرارًا نعم يا حبيبى نعم .. ولم يكونا فى حاجة إلى إكمال الجمل . فأكثر العبارات ناقصة ، والذى يعجز عنه اللسان تكمله اليدان والعينان .. إلخ ..

عرفت فى سن صغيرة أن يكون لها أصدقاء وأن تسهر وأن تتأخر .. ولكن كانت انطلاقتها الكبرى عندما سافرت إلى المغرب .. إلى مراكش .. هناك عرفت الحشيش والأفيون والهروين . وحياة الصعلكة وحياة الهيبز . لم تكن الفلوس مشكلة . بل مشكلتها ما الذى تفعله بالكثير الذى معها . فأبوها كان قلقًا عليها . ولذلك بعث لها بأموال كثيرة . لم يعجبها السكن الجماعى والتحشيش الجماعى .. اختارت لها

غرفة .. ثم شقة .. وكانت تتسلل إلى الفنادق الكبرى تستأجر غرفة لتغسل ملابسها وتستحم ثم تعود بعد ذلك إلى مواخير الشباب .. وشعرت بالملل فى هذه الليالى المتشابهة للكلمات والقبلات . وقررت أن تهرب من الحب العنيف . فلم يكن للشباب الأوروبى الذى تراه إلا أن يصطاد فتاة مسكينة ويحبسونها فى غرفة مع الحب بالإكراه شابًا وراء شاب حتى يتساقطوا من الإعياء والفتاة من الإغماء . ثم يتركونها إلى ضحية جديدة .

وفى طنجة قررت أن تعمل فى إحدى دور الأزياء . ثم عدلت عن هذا القرار . فقد وجدت أنها لم تختر هذه المهنة إلا تحت ضغط الظروف . وهى تكره الضغط . وتكره حكم الظروف . وسافرت إلى حبيبها الأول فى باريس . ثم عادت إلى كندا . وقد تمكنت منها سيجارة الحشيش . أصبحت مزاجًا وعندما أحس أبوها أن رائحة عطرية تخرج من غرفتها ، سألها . اعترفت . ولم تتوقف . ولا هو وجد سببًا لأن يوقفها . وإنما حذرها فقط من أن هذا النوع من الكيف سيربطها بأحط الشباب فى كندا وفى العالم .

وفى أحد حمامات السباحة وجدت أمها رجلاً يتشقلب فى الماء ويهبط ويطفو كأنه تمساح . فقالت : هل تعرفين من هذا ؟.

قالت : أظنه .. لا أعرف .. أنه واحد اسمه ترودو ..

قالت الأم : لا تعرفين من هو .. إنه بيير ترودو وزير العدل .

قالت مرجريت : يعنى إيه ؟.

وفى الحملة الانتخابية لحزب الأحرار كان ترودو يقود المعركة .. وكان وقتها رئيسًا للوزراء . ووقفت مرجريت تتفرج . ولمحها .. ونزل من سيارته واقترب منها وقبلها هنا وهناك .. وهجم عليها الصحفيون يسألون : تعرفينه ؟ صديقته ؟ عشيقته ؟.

ولم تكن تعرفه .

وبسرعة عرف من هى . واتصل بها . ودعاها إلى لقاء .. وتكهربت الأسرة كلها . يعدون لها فستان اللقاء الأول . والماكياج والعطور والتسريحة والفستان والجزمة والذى فى الأذن وحول العنق وفى الأصابع . أنه الانطباع الأول هو الذى يبقى بعد ذلك .. أنه الحديث الأول .. واللمسة والهمسة والغمزة واللمزة . ولم يكن هذا اللقاء جميلاً ولا سعيدًا .. هو عنده ما يقوله . وكل ما لديه سياسة فى سياسة . وهى لا تعرف ماذا تقول لرجل من هذا الطراز . هى جامعية مجتهدة وذكية . وهو رجل خجول .. وهو بطل وأسطورة الشعب كله .. له وجه شاب مشرق . وعيناه لامعتان وفيهما دموع كأنه يبكى من الفرح . ولا يظهر عليه هذا الفارق فى السن لا فى الملامح ولا الكلام . لقد شعرت بسرعة جدًا أنه فى مثل سنها وإن كان أكثر ثقافة وتجربة وخجلاً . أمه اسكتلندية وأبوه كندى ويتحدثون الفرنسية فى البيت . ويعرف هو الإنجليزية والألمانية والايطالية وينتقل بينها بسرعة مذهلة .. سألته سؤالاً ساذجًا : هل إذا نمت وحلمت فبأى هذه اللغات ؟.

وضحك فى أدب وسألها : وأنت عندما تفكرين فبأى لغة ؟.

وأحد أسباب اختيار الجالية اليهودية له أنه فى المعركة الانتخابية خطب فيهم قائلاً : لو كنت يهوديًا ما أعطيت صوتى لواحد مثلى ، وإنما أعطيته لواحد منكم !.

وجاءها خطاب من حبيبها الفرنسى يقول : عندى زورق فخم جميل كبير. وعندى مفاجأة محدودة لك !.

وأسعدها الخطاب. ولابد أن تكون المفاجأة هى أن يتقدم لزواجها. وكتبت تقول له : تأخرت كثيرًا. سوف أكون زوجة لأحد العظماء. هذا سر بيننا !.

وطلب بيير ترودو أن يتزوجها. وكانت قمة السعادة للأسرة. وصارحها ترودو قائلاً : هناك شروط .. لا حشيش. لا لأن الحشيش ممنوع قانونًا ، ولا لأنها زوجة رئيس الوزراء ، ولكن لأن تعاطى الحشيش نوع من الهرب. ولا داعى للهرب .. الشرط الثانى أن تكونى مخلصة. لأنه لا يجب أن يتصيد خصومه فضيحة له ، تحطمه سياسيًا. وهو حريص على شرف حياته ونجاحه السياسى. والشرط الثالث : العقل أولاً والعاطفة ثانيًا .. أن يكون هذا شعارها. كما أنه شعاره. والباقى يجىء مع الأيام وبالتجربة. فوافقت.

ثم قال لها : أحب الأطفال .. أى عدد من الأطفال ..

وقررت هى أن تكون عند حسن ظنه. فتوقفت عن الحشيش وعن المواعيد الغرامية. وقررت أن تكون متدينة ، لأنه شديد الإيمان .. وكان من عادته أن يأخذ أولاده كل يوم أحد إلى الكنيسة. بعد أن يقرأ

لهم من الإنجيل القديم الذى توارثته أسرته ..

وكان يتضايق إذا هى استخدمت حبوب منع الحمل ، حتى قبل الزواج . لقد كان حريصًا على أن تأتى له بالأطفال فى أى وقت ..

وفى يوم وهما غارقان دائبان فى أحضان ملتهبة قال لها : أريد أن أقول لك يا حبيبتى .. إننى على يقين من أنك سوف تهجريننى يومًا ما . ولكن لا أعرف متى .. فدعينى أقبلك حتى ذلك اليوم !.

وكانت تفزع قائلة : مستحيل . مستحيل !.

وبهدوء وبرود يقول : إننى أرى المستحيل ممكنًا !.

وتصرخ : مستحيل !.

ويقول : أصدقك . ولكن أصدق فراستى أكثر !.

ثم يقول لها : إذن لنجرب .. سافرى وعودى بعد أسبوعين . وسوف أسمع إليك حتى الصباح .. ماذا حدث ..وماذا فعلت .

وسافرت وعادت ليقول هو لها : أعرف أنك لم تفعلى ما يغضبنى . إذن نجحت هذه التجربة الصغيرة . سوف نعيدها مرة أخرى . ليس الآن !.

وكان الزفاف هادئًا . يوم ٧ مارس سنة ١٩٧١ والحفلة جميلة . وشهر العسل مر بسرعة . وظهر الحمل عليها . وفى إحدى الحفلات جاءت جلستها إلى جوار الأمير تشارلز. طلب أن يرقص معها . ضبطته ينظر فى صدرها وكانت ترتدى فستانًا عاريًا هابط الخطوط . فقالت : لو لم أكن حاملاً فى ثلاثة شهور ما رأيت من صدرى شيئًا !.

وأخجله ذلك !.

وفى بيتها الواسع الضخم الفخم عدد كبير من الخدم والسفرجية والحراس والسكرتارية .. كل شيء كثير وكل الناس حولها لهم عيون فاحصة .. وكلهم أصحاب ملامح جامدة . وطريقة واحدة فى الكلام . وعلى الرغم من أنهم يقولون : حاضر .. أمرك يا أفندم .. فإن لهجتهم كأنها أوامر .. وكأنها طفلة صغيرة لا تعرف ماذا تأكل ولا ماذا تشرب ولا ماذا تقول ولا من تقابل ولا متى ولا كيف .. كل شيء حولها علامات . وإشارات وأوامر وممنوعات .

فمضت الأيام الأولى وهى تحس كأنها سمكة وحيدة فى حوض من الزجاج .. كل الذى حولها جدران سميكة ولكن من الزجاج الشفاف .. ترى ولاتسمع ، أو تسمع ولا ترى .. وإذا ضاقت فلتضرب دماغها فى الزجاج . وإذا نزف دمها فسوف يجيء الأطباء ينقذونها .. وهم أيضاً لايختلفون عن الحاشية الضخمة حولها ليلاً ونهاراً . لأول مرة تحس أنها تعيش فى سجن كبيرأنيق هادئ .. أنها فى عقل الكترونى .. ولا فرق بينها وبين الفئران والأرانب فى المعامل .. وأعجب من ذلك أنها لم تعد فى حاجة إلى أن تتكلم يكفى أن تشير .. أو تحاول أن تتكلم لتجد من يقول لها : صحف الصباح .. المجلات الأسبوعية .. آه القوة .. موعدك مع الحلاق .. مع الخياطة .. ليس موعد المكالمة مع ماما الآن .. إنه بعد ساعة .. سيادة الرئيس سوف يتغدى مع الرئيس الفلانى والوزير العلانى وقد أعطى أوامره بنوع الطعام والورود !.

أى أنها ولا حاجة !.

وكانت مشكلتها الأولى مع الطباخين .. كل يوم تجمعهم وتعطيهم قائمة الطعام الذى تريد والذى تحب .. والذى يجب أن يأكله رئيس الوزراء وضيوفه . هى التى تعطى الأوامر وليس أى إنسان آخر فى ذلك البيت ، ولا رئيس الوزراء .. لأنها هى رئيس البيت ، والتى تنظم حياة رئيس الوزراء وضيوفه !.

وكانت أول رحلة فى الخارج إلى روسيا .. واعترفت لابنة كوسجين رئيس الوزراء بأنها حامل . فكانت إبنة كوسجين تحتفظ لها بشرائح الليمون فى حقيبة يدها ، فكلما أصابها القرف أو الرغبة فى الغثيان أخرجت لها الليمون . وقد حذرها زوجها من أن الروس تقدموا جدًّا فى فن التصنت الألكترونى . وقد تأكد لها ذلك . ففى يوم قالت لزوجها : أدفع نصف عمرى من أجل برتقالة !.

لقد كانت تتوحم . وبعد دقائق سمعت طرقًا على الباب . أنه كبير الجرسونات قد أتى بصينية من الفواكه من كل لون . وقد تربعت البرتقالة بصورة بارزة على عرش الفواكه !.

ومرة أخرى فى لننجراد قالت لزوجها ، وهما يمشيان فى الشارع : الماء فى كل مكانٍ ولا أجد قطرة ماء أشربها !.

وعندما عاد إلى السيارة وجد السائق يقدم لهما زجاجة ماء بارد !.

وفى إحدى الولائم التى أقامتها لملكة بريطانيا جلس إلى جوارها الأمير تشارلز وكانت المطربة صارخة قبيحة الصوت فهمس فى أذنها :

أخشى أن يتحطم الشمعدان .

فانفجرت فى الضحك . وجاءتها نظرة قاسية من زوجها . والتفت كل الوزراء وزوجاتهم . وفجأة قفز عنكبوت أسود فى طبق الملكة فقالت : هذا الضيف قد جاء متأخرًا !.

وضحكوا جميعًا .

وتوالت شهور الحمل والولادة . وزاد وزنها . ولم تعد رشيقة . ولم تعد حتى تلفت نظر زوجها . وفى عيد زواجهما سألها : تريدين خاتمًا من الماس .. عقدًا من اللؤلؤ .. ساعة بالزمرد ..

فقالت : أبدًا .. ماكينة خياطة !.

واتخذت لنفسها غرفة خاصة فى أعلى البيت . وكانت تسميها غرفة الحرية .. هناك لا تليفونات .. لا أحد .. تقرأ أو تسمع الموسيقى الصارخة .. وتخيط الملابس ..

وفى ثلاث سنوات أنجبت ثلاثة أطفال .. وتلخبط نظام البيت تمامًا .. فالأطفال عندما كبروا راحوا يدوسون كل القواعد .. ويصرخون ويتضاربون .. ويفتحون الأبواب ويتركونها .. ويتناولون طعامهم فى المطبخ .. وبدأت رائحة الطعام تنتشر فى البيت .

وكانت متعلقة بأولادها . وجمعت كل العاملين فى البيت وقالت لهم : لا تعليمات منكم للأطفال .. ولا من حق أى إنسان أن يعاقبهم لأى سبب .. أنا فقط !.

ثم لاحظت أنهم فى المطبخ يتلقون الأوامر المتضاربة من الطباخين

والسفرجية . فاتخذت لهم غرفة مستقلة تحت إشرافها ..

وظهرت كل عيوب الحياة فى بيت رئيس الوزراء .. الحياة مملة . بليدة . بطيئة . متشابهة . مليئة بالقيود والسدود : لا تقولى هذا سرًا سياسيًا .. لا تتكلمى فى الدين مع فلانة .. لا تتحدثى عن الأولاد مع علانة فهى لم تنجب وقد حاولت وكذلك زوجها .. لا تقولى نكتاً قبيحة لفلانة فهى سوف تنقلها عنك أنها سمعتها من زوجك .. لا تحاولى أن تضعى منديلاً على أنفك إذا تحدثت مع زوجة فلان فرائحة فمها كريهة .. أعطها أذنك وانشغلى بالطعام ..

وفى أول زيارة رسمية لفرنسا ، قررت أن تذهب للحلاق الكسندر لكى يقص لها شعرها . ظلت عنده أربع ساعات .. ساعة فى رسم الشفتين وساعة فى رسم العينين .. وساعة فى قص الشعر وتسريحة .. وساعة فى صبغ أظافر اليدين والقدمين . ولما عادت إلى البيت مسحت شفتيها وأزالت الأزرق والأسود من عينيها .. وارتدت بلوزة وجيبًا لتجد زوجات رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء قد ارتدين السواريهات اللامعة الهفهافة الفضفاضة المجرجرة على الأرض ! ! .

حدثها الرئيس ديستان عن المخدرات ؟ ! .

قال لها الرئيس شيراك إن فى أسرته واحدًا قد أدمن المخدرات ، ولكن أمكن علاجه ! وفى باكستان سألها الرئيس بوتو : عن الأسباب التى دعت كندا إلى إلغاء عقوبة الإعدام . وقال لها إن باكستان تعدم سنويًا ٣٠٠ مجرم ..

قالت مرجريت ترودو : حكم الإعدام عندنا فقط لمن يقتل أحد رجال الأمن !.

أما الرئيس نيكسون فلم يجد إلا موضوعًا واحدًا يحدثها فيه : كيف أن ذكر حيوان الباندا لم يلمس أنثاه .. وكيف أنه حاول ولم تفلح محاولاته !.

إذن هم يتحدثون إليها على أنها «عيلة» ـ فالفرق بينها وبينهم جميعًا فى السن يتراوح بين عشرين وثلاثين عاما !.

بعد ثلاث سنوات من الزواج أصبحت الحياة نوعًا من الجحيم : خلافات .. خناقات .. ازدادت الأوامر والممنوعات لم تظهر بملابس تدل على أنها جاءت من مكان ما ، وتوقفت لتشارك بعض الوقت فى حفلة رسمية .. وفى ذلك إهانة للحاضرين واستخفاف بزوجها .. ولا مبالاة مطلقة !.

وعندما سافرت إلى كوبا سألت زوجها والطائرة على الممر : ما الذى أرتديه .

قال : فستانك الأبيض .

وبسرعة أحضرته ولبسته .. وسألته : هل أضع دبوسًا من الماس هنا .. أو ماذا ؟.

قال : جميل جدًا ..

ووضعته عندما توقفت الطائرة فجأة وبعنف وبسرعة امتد السلم وكذلك البساط الأحمر ، عندما انغرز الدبوس فى أصبعها ونزف

دمًا .. وتلوث فستانها . ونزلت .

ونشرت الصحف : بقع من الدم على فستان زوجة رئيس الوزراء فى زيارة رسمية .. دماء على فستانها الأبيض . فضيحة !.. انتظروا فضيحة أخرى !.

أما كاسترو فبهرها بأدبه ورقته ودفء كلماته .. عيناه أجمل عينين فى الدنيا . قال لها كاسترو : أننى ضعيف النظر . وأتدرب يوميًا على النظر فى قرص الشمس . ولكنى عاجز عن النظر إلى زرقة عينيك !.

وهى تراه رجلاً مسكينًا ينام كل ليلة فى سريره خوفًا من الاغتيال . وقد هربت زوجته إلى أمريكا ومعها طفلها الذى لم يره من ١٧ عامًا !.

وفى حفلة لزوجة رئيس وزراء فنزويلا وقفت تغنى . ونشرت الصحف الأغنية التى تقول : أحبك فأغنى ، وأراك لكى أغنى ، وأتركك لكى أغنى ، وأغنى لأننى أريد أن أغنى لك ولكل المحبين .. دعونى حتى أغنى !.

وضايقها ما نشرته الصحف . وكان فى طائرة زوجها عدد كبير من الصحفيين . سألوها عن الأغنية . وقدموا لها خمرًا ولم تكن تشرب فشربت ـ ولخبطت فى الكلام الذى سجلوه ووزعته وتداولته كندا . وتلقت مئات المكالمات تلعنها واليوم الذى جعلها سيدة أولى .. بينما مكالمات أخرى تدعو لها بطول العمر والشباب والشجاعة . فهى أحسن نموذج للشباب البسيط الذى لا يجد حرجًا فى أن يغنى إذا أراد ، وأن يرقص إذا أحب ، وأن يدخن وأن يسكر ، وأن يتزوج وأن ينطلق !.

وكان لابد من الانفصال . لا مفر . لولا أن جاءت السنة الرسمية سنة ١٩٧٦ ـ سنة الدورة الأوليمبية فى كندا . وكان لابد أن تبقى لاستقبال الضيوف والنجوم من كل الدنيا . وانشغلت واستغرقتها الحفلات وكان زوجها سعيدًا ..

* * *

أما عزلتها ووحدتها فتأكدت .. إنها الآن سمكة فى بحيرة تجمدت ولن يمضى وقت طويل حتى تموت أبرد وانظف موته !.

جلست تكتب خطابًا إلى صديقتها الملكة عالية ، ملكة الأردن : حبيبتى .. أننى فى غاية التعاسة . وحدى . منتهى الشقاء . كل الذى حولى كذب . لا أنا أصدق ما يقال ، ولا هم يحترمون ما أقول . فالكذب ما أراه والتزييف ما أسمعه . إلحقينى .. إنصحينى !.

وتلقت خطابًا من الملكة عالية تقول لها : قرأت خطابك . فكأننى أتحدث إلى نفسى . لم أعرف الأمان مع زوجى .. فقد حاولوا إغتياله كثيرًا . نصيحة لك : إذا ابتعد عنك زوجك فاخرجى كل ما فى نفسك : أصرخى .. حطمى .. زعقى .. إبك .. إبك .. ففى ذلك راحة لك . لقد جربت فاسترحت وأرحت !.

ثم جاءت الزيارة الرسمية للبابا . وفى المطار تلقت التعليمات الضرورية : الفستان أسود والبرنيطة .. أو أى غطاء للرأس .

ولم يكن عندها فستان أسود . فاستعارت ايشاربًا أسود من زوجة

السفير.. وذهبت إلى الباب بفستان فاتح طويل الكم .

وقبل أن تصدر الأوامر بمقابلة البابا ، قال لها زوجها : هذه هى الفرصة النادرة .. حدثى البابا عن كل شىء فى حياتك وحياتنا .. وقولى له ما تريدين ..

وأمام الباب قال زوجها : إنه مشغول بالسلام فى الشرق الأوسط والعالم .. وسأله البابا : هل تحب أن تسألنى فى أية مشكلة إيمانية ؟.

قال : لا ..

ثم التفت البابا إلى مرجريت ترودو يقول لها : عرفت أن لك أطفالاً فى غاية الجمال .. وأنك زوجة طيبة وفية .. وأنك مشغولة برعاية أولادك ومعاونة زوجك !.

ثم رسم الصليب ودعا لهم جميعًا بالبركة !.

وخرجت لتقول لزوجها : كل هذا المشوار لأسمع منه أن عندنا أولادًا وأننى أم طيبة وزوجة وفية !.

قال زوجها : ولكنك لم تسأليه !.

ـ وهل يمكن أن أسأله قبل أن يطلب منى ذلك ؟!.

ضاعت آخر فرصة وأندر فرصة لأن يسمع زوجها رأيها فى حياتهما وفى ضرورة أن تنتهى فورًا . لا أمل فى أن ترضى بما هى فيه ، وأن تقبل البروتوكولات ولا أن تعايش هذه الكائنات الآلية . لا أمل . وليس أحب إليها من أن تعود إلى الجينز والحشيش فى أى مكان .. لقد ضاعت منها نفسها ، وهى تريد أن تجدها وأن تعيش بها ولها ، أما

زوجها ففى استطاعته أن يجد ألف فتاة يسعدها وتكون تمثالاً من الشمع فى يديه وفى أحضانه . انتهى !.

* * *

فى نوفمبر سنة ١٩٧٧ حزمت حقائبها وقررت الخروج بلا عودة . وكان من رأيه أن تكون هذه هى آخر فرصة . وبعد شهر أو شهرين تعود إلى البيت ليقررا معًا كيف تكون الحياة . سافرت إلى باريس وطلبت من السفارة أن تعطيها جواز سفر باسمها هى لا باسم زوجها . وراحت تبحث عن حبيبها الأول . لم تجده . عادت إلى الحشيش والأفيون . تتعاطاه أربع مرات فى اليوم الواحد . رجعت إلى زوجها .. وقالت : لا أمل !.

جمعت ملابسها ووجدت من بينها خطابًا على غلافه هذه العبارة : إلى نفسى .. وفتحت الخطاب فوجدت به هذه الورقة تقول «أنا فى غاية الوحدة . من حقى أن أكون سعيدة . لقد تزوجت رجلاً رائعًا . ولكنى تعيسة . التاريخ : نوفمبر سنة ١٩٧٢» .

سألها زوجها : هل خنتنى فى باريس . أعرف أنك فعلت .

قالت لا : لم أخنك . أحببت رجلاً آخر .

ـ أنت مريضة !.

ـ كنت مريضة . أما الآن .. فليس مريضًا من يحب !.

عرضها على طبيب نفسى . جلس إليها طويلاً . وجدها مرهقة الأعصاب . منهارة .

قال لها : لم تعد عندك قدرة على المقاومة .

- صحيح .

- ولا أمل فى أن تعودى إلى زوجك .

- صحيح .

- إذن ؟.

وأشارت إلى الباب وإلى السقف .. أى أنها تريد أن تخرج وتسافر بعيدًا !.

وصدر بيان من مكتب رئيس الوزراء يقول : بناء على رغبة السيدة حرم رئيس الوزراء لقد انفصلا .. مؤقتًا . ومن حقها أن ترى أولادها فى أى وقت ولأى وقت . والأمل عظيم فى أن تعود إلى بيتها . فأهلاً بها !.

وارتفع نجم رئيس الوزراء عند الرأى العام الكندى . وأحبوه أكثر واحترموه أعمق .. واحتقروها ورفضوها ونبذوها .

وسافرت لتلحق بفريق الخنافس فى تورنتو بكندا . وأقامت فى غرف تجاورهم وعادت إلى الحشيش .. ونشرت الصحف : بالبيجاما البيضاء زوجة رئيس الوزراء تنتقل من غرفة إلى غرفة !.

حاولت أن تتهجم على الصحفيين لولا أن أنقذتها صديقتها ياسمين أغاخان ، بنت ريتا هيوارث .. وانتقلت إلى العمل السينمائى .. فيلمًا بعد فيلم ولكنها لم تنجح .

* * *

وفى آخر سطور اعترافاتها التى جاءت فى كتاب بعنوان «أنا لن أعود» تقول : لا أمل فى أن أعود إلى زوجى . لا أمل ، فهذا شىء من وراء العقل .. ولم أخرج من هذه المأساة سليمة أو كريمة ، ولكنى حاولت على الأقل أن أكون صادقة مع نفسى . فصدقت .. صدقونى !.

الفهـــرس

كـتب للمـؤلـف

(أ) ترجمة ذاتية :

١ - فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ - عاشوا فى حياتى
٣ - .إلاقليلا
٤ - طلع البدر علينا
٥ - البقية فى حياتى
٦ - نحن أولاد الغجر
٧ - من نفسى
٨ - حتى أنت يا أنا
٩ - أضواء وضوضاء
١٠ - كل شىء نسبى

(ب) دراسات سياسية :

١ - الحائط والدموع
٢ - وجع فى قلب اسرائيل
٣ - الصابرا (الجيل الجديد فى اسرائيل)
٤ - عبد الناصر - المفترى عليه والمفترى علينا
٥ - فى السياسة (٣ أجزاء)
٦ - الدين والديناميت
٧ - لا حرب فى أكتوبر ولا سلام
٨ - السيدة الأولى
٩ - التاريخ أنياب وأظافر
١٠ - الخالدون مائة - اعظمهم محمد (صلى الله عليه وسلم)
١١ - لعنة الفراعنة
١٢ - على رقاب العباد
١٣ - ديانات أخرى
١٤ - وكانت الصحة هى الثمن
١٥ - العرباء
١٧ - الخبز والقبلات

(جـ) قصص :

١ - عزيزى فلان
٢ - هى وغيرها
٣ - بقايا كل شىء
٤ - يا من كنت حبيبى
٥ - قلوب صغيرة
٦ - شارع التنهدات
٧ - فوق الركبة
٨ - هذه الصغيرة (وقصص أخرى)
٩ - عريس فاطمة

١٠ ـ يوم بيوم
١١ ـ إنها الاشياء الصغيرة

(د) نقد أدبى :

١ ـ يسقط الحائط والدموع
٢ ـ وداعا أيها الملل
٣ ـ كرسى على الشمال
٤ ـ ساعات بلا عقارب
٥ ـ مع الآخرين
٦ ـ شيء من الفكر
٧ ـ لو كنت أيوب
٨ ـ يعيش .. يعيش ..
٩ ـ الوجودية
١٠ ـ عذاب كل يوم
١١ ـ طريق العذاب
١٢ ـ وحدى .. ومع الآخرين
١٣ ـ مالا تعلمون
١٤ ـ لحظات مسروقة
١٦ ـ كتاب عن كتب
١٧ ـ أنتم الناس أيها الشعراء
١٨ ـ أيها الموت.. لحظة من فضلك
١٩ ـ أوراق على شجر
٢٠ ـ فى تلك السنة
٢١ ـ دراسات فى الادب الامريكى
٢٢ ـ دراسات فى الادب الايطالى
٢٣ ـ دراسات فى الادب الالمانى
٢٤ ـ فلاسفة وجوديون
٢٥ ـ فلاسفة العدم

(هـ) رحـلات :

١ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم
٢ ـ بلاد الله خلق الله
٣ ـ غريب فى بلاد غريبة
٤ ـ اليمن ذلك المجهول
٥ ـ أنت فى اليابان وبلاد أخرى
٦ ـ اطيب تحياتى من موسكو
٧ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية :

١ ـ مدرسة الحب
٢ ـ حلمك يا شيخ علام
٣ ـ مين قتل مين
٤ ـ جمعية كل واشكر
٥ ـ الأحياء المجاورة
٦ ـ سلطان زمانة
٧ ـ حقنة بنج
٨ ـ العبقرى
٩ ـ الكلام لك يا جارة

(ز) مسرحيات مترجمة :

* للاديب السويسرى فريد ريش ديرنمات :

١ـ رومولوس العظيم

٢ ـ زيارة السيدة العجوز

٣ ـ زواج السيد مسيسى

٤ ـ الشهاب

٥ ـ هى وعشاقها

* للأديب السويسرى ماكس فريش·

١ ـ أمير الأراضى البور

٢ ـ مشعلو النيران

* للأديب الفرنسى جان جيرودو.

١ ـ من أجل سواد عينيها

* للاديب الامريكى ارثر ميللر :

١ ـ بعد السقوط

* للاديب الامريكى تنسى وليامز·

١ ـ فوق الكهف

* للاديب الامريكى يوجين أونيل

١ ـ الامبراطور جونس

* للاديب الفرنسى يوجين ليونسكو .

١ ـ تعب كلها الحياة .

* للاديب الفرنسى اداموف :

١ ـ الباب والشباك

* للاديب الاسبانى أرابال ·

١ ـ ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية :

١ ـ الحنان أقوى

٢ ـ من أول نظرة

٣ ـ طريق العذاب

٤ ـ الوان من الحب

٥ ـ شباب .. شباب

٦ ـ مذكرات شاب غاضب

٧ ـ مذكرات شابة غاضبة

٨ ـ جسمك لا يكذب

٩ ـ اثنين اثنين

١٠ ـ الذين هاجروا

١١ ـ غرباء فى كل عصر

١٢ ـ أظافرها الطويلة

١٣ ـ هموم هذا الزمان

١٤ ـ الحب الذى بيننا

١٥ ـ عذاب كل يوم

(ط) دراسات علمية :

١ ـ الذين هبطوا من السماء

٢ ـ الذين عادوا من السماء

٣ ـ القوى الخفية .

٤ ـ أرواح وأشباح .

٥ ـ لعنة الفراعنة

رقم الإيداع : ٢٢٠٤/ ٩١
الترقيم الدولي : ٧-٢-٠٠٤٢-٠٩-٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣



هارت لين — اليزابيث مونرو — مارثا واشنطن — بات نيكسون — بتى فورد — فرانسيس فولسوم — جونسون وزوجته — جاكلين كينيدى

السيدة الأولى

زوجة الرئيس الفرنسى جيسكار دستان تقول : لست إلا زوجة رئيس الجمهورية . . لا أكثر ولا أقل ولا رأى لى فى السياسة !

وتقول زوجة الرئيس الأمريكى جورج بوش . إنه وحده المؤهل لأن يكون رئيسا للبلاد منذ وقت طويل . . وأنا مؤهلة فقط لكى أمشى وراء أطفالنا . . ونحن جميعا نراه ونرعاه ونفخر به !

وتقول زوجة تشرشل : زوجى يضع فى جيبه ساعة رديئة . . ولذلك فأنا أقوم بدور هذه الساعة ثلاث مرات يوميا . . عند نومه وعند صحوه وعند تناول الدواء !

فليس مألوفا أن نجد المرأة على الساحة السياسية ــ فالسياسة مسرح للرجال فقط . . ولا أن نجدها فى الحرب أيضا . . لأن الحرب هى استمرار للسياسة ولكن بأساليب أخرى . .

ولكن هذه الصورة تغيرت . . فالمرأة هناك دائما . . فوراء «السيد الأول» توجد «السيدة الأولى» . . تسمع وترى وتقرأ وتكتب وتنقل كل ذلك للسيد الأول . . ولأن هذه «السيدة الأولى» أقرب الافواه إلى إذن الرئيس كان صوتها أقوى وأوضح وأكثر الحاحا . . ومن هنا كانت خطورتها . .

وترى بعض الدول تدريب السيدة الأولى ، حتى لا تكون «السيئة» الأولى . . وتكون كارثة على الرئيس [illegible] . .

[illegible] هوبات . .

[illegible] ثمرة لانصاف المرأة وبيان دورها الخطير فى حياة العظماء . . وفى التاريخ الإغريقى أسطورة تقول إن الرجال عندما احتاجوا إلى حبال لجر السفن الحربية ، فقصرت النساء شعورهن وجعلنها حبالا . . وليس هذا إلا مساهمة متواضعة من المرأة . فالذى تستطيعه المرأة أقوى من ذلك . . فأثرها على عقل الرجل وقلبه وحواسه أخطر من ذلك كثيرا جدا . . فهى تعكس الشقاء والهناء على السيد الأول . . وهى تستطيع أن تضلله بالفشل وأن تكلله بالنجاح . .

اقرأ للكاتب الكبير أنيس منصور نظرات فى التاريخ النسائى . . أو فى التفسير النسائى لتاريخ الرجال . .

فـ «السيدة الأولى» نسيج جذاب من التاريخ وعلم النفس والفكاهة والفضيحة والدسائس والمتعة !